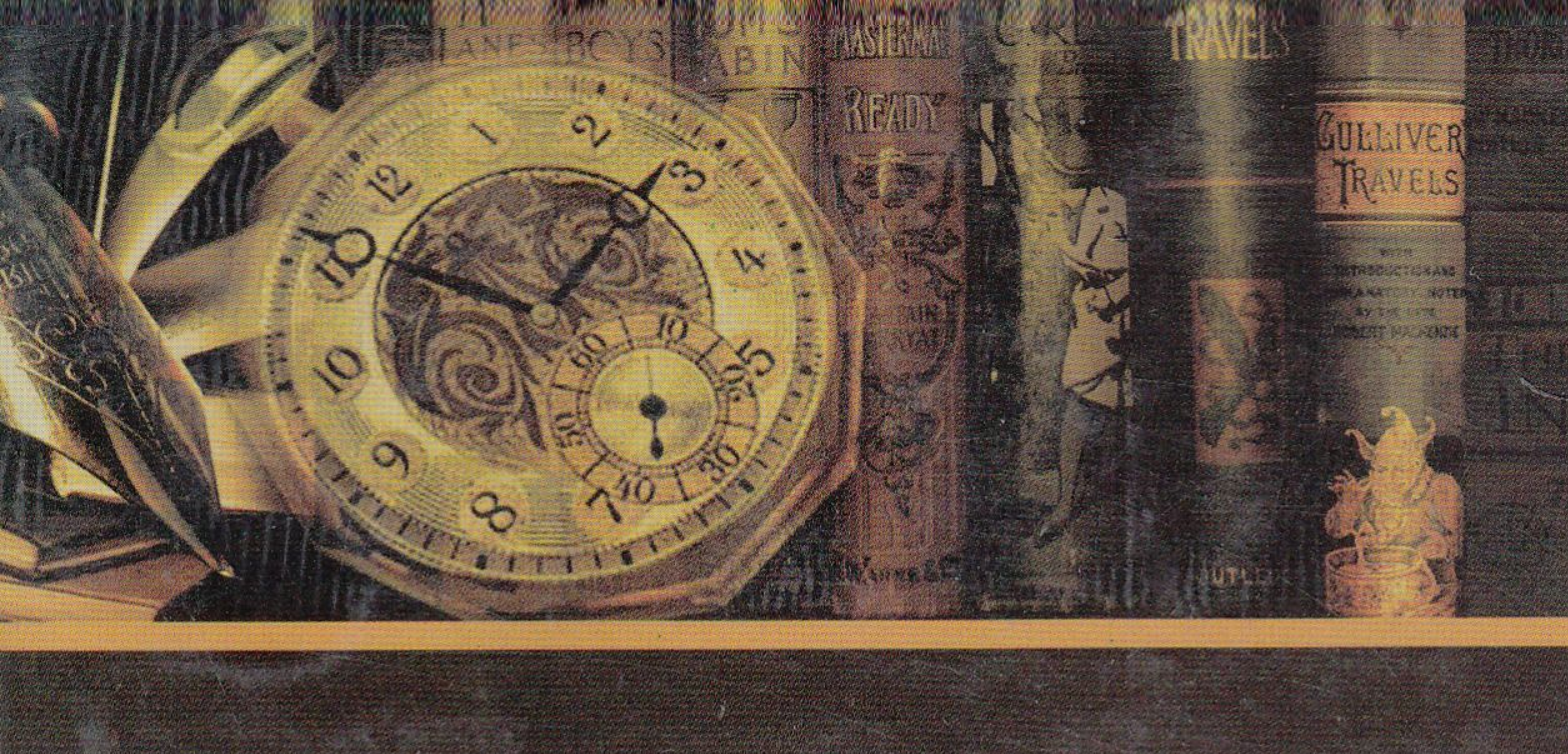






ذاكرة الكتابة

118

حياة مُجاوِر في الجامع الأحمديّ

محمد عبد الجوّاد

تقديم : سعد عبد الرحمن

حياة مجاور
فى الجامع الأحمدى

محمد عبد الجواد

تقديم
سعد عبد الرحمن



سلسلة
ذاكرة الكتابة
تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• حياة مجاور فى الجامع الأحمدى
• محمد عبد الجواد
• الطبعة الأولى
دار الفكر العربى ١٩٤٧ م
• الطبعة الثانية:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة 2010م
16,5 × 23,5 سم
• تصميم الغلاف: فكرى يونس
• رقم الإيداع: ١٤٥٠٤/ ٢٠١٠
• الترقيم الدولى: 978-977-704-179-9
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: ١٦ شارع أمين
سامى - القصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)
• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

ذاكرة الكتابة (118)
تعنى بنشر أبرز الأعمال الفكرية والأدبية
والنقدية التى طبعت فى بدايات القرن العشرين

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة
بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الأول.

حياة مجـاور
فى الجامع الأحمدى

تقديـــم

بقلم: سعد عبد الرحمن

لم تكن المساجد منذ نشأتها الأولى فى صدر الإسلام مجرد أمـــاكن لأداء الصلاة، "الركن الثانى من أركان الإسلام "، وإنما كانت أيضاً مكانـــاً لتلقى العلم بمبادئ الدين الجديد والتفقه فيه، وذلك تأسيساً على أن العلم فى الإسلام يعد شرطاً أساسياً من شروط أداء العبادة الصحيحة.

وعبر قرون، قامت المساجد فى مختلف بقاع العالم الإسلامى بهذا الـــدور الذى بدأ بسيطاً محدوداً، ثم أخذ فى التطور والتوسع حتى أصبحت بعض المساجد بمثابة مدارس كبيرة أو جامعات كان نشـــاطها وراء ازدهـــار الحركة الفكرية والعلمية فى العالم الإسلامى لعـــدة قـــرون، ولم تكـــن الدراسة فى تلك المساجد / الجامعات قاصرة على العلوم النقلية فقط، بل

تعدت ذلك إلى العلوم العقلية، وإن كان الأمر لم يدم على هذا المنـــوال. فقد أدى التدهور الذى أصاب الحياة السياسية والاجتماعية للمســـلمين بعد سقوط بغداد أمام جحافل المغول (٦٥٦هــ) ثم ضـــياع الأنـــدلس (٨٩٧ هــ) إلى تدهور مقابل فى نشاط كثير من هذه المساجد والخطاط فى مستوى أدائها لدورها العلمى والدينى.

ومن أشهر المساجد التى كان لها دور بارز فى حياة المسلمين جامع عمرو بن العاص فى الفسطاط (٢١هــ)، والجامع الأموى فى دمشق(٩٦هــ)، وجامع الزيتونة فى تونس (١١٦هــــ)، وجـــامع المنصـــور فى بغـــداد (١٥٥هــ)، وجامع القرويين فى فاس بالمغرب (٢٤٥هــــ)، وعنـــدما أسس جوهر الصقلى مدينة القاهرة لتكون عاصمة للدولة الفاطمية وبنى الجامع الأزهر(٣٦١هــ) ليكون مدرسة لنشر المذهب الشيعى، فقد أخذ مركز الثقل العلمى ينتقل إليه حتى غدا فى نهاية الأمر؛ لا ســيما بعـــد الحريق المدمر الذى عصف بجامع عمرو بن العاص سنة ٥٦٤هــ؛ هـــو مركز الثقل الرئيس فى الحركة العلمية بمصر.

ومنذ سقوط بغداد أخذ كثير من جهابذة علماء المســـلمين يفـــدون إلى القاهرة ليشاركوا فى صنع النهضة العلمية التى ظهرت فى مصر بعد ذلك

من خلال الجامع الأزهر والمدارس التى أنشأها سلاطين مصر فى العصـــر المملوكى كالناصرية والكاملية والشيخونية والبرقوقية والظاهرية والمؤيدية والأشرفية وغيرها، وكما توافد العلماء على الجامع الأزهر؛ توافد طلاب العلم من كثير من بقاع العالم الإسلامى، وظل الأزهر حتى جاء عصـــر السيطرة العثمانية هو الجامعة الإسلامية الأشهر، والأوسع تأثيرا فى حياة المسلمين.

وحيث إن كثيرا من المسلمين غير المصريين الراغبين فى العلـــم لم يكونوا، لأسباب شتى، قادرين على الالتحاق بالجامع الأزهـــر؛ لـــذلك ظلت هناك مساجد كثيرة فى بقاع مختلفة من العالم الإسلامى تقوم بنفس الدور الذى يقوم به الجامع الأزهر. أيضا فإن كثيراً من المسلمين المصريين لم يكونوا أيضا قادرين على الدراسة بالأزهر؛ لـــذلك كانـــت هنـــاك مساجد وزوايا كثيرة فى العديد من ربوع مصر تقوم بهذا الدور، أحياناً الدور كاملا، وأحيانا الدور غير كامل، أى تؤدى الدور بوصفها مرحلة مؤهلة للالتحاق بالأزهر فى القاهرة.

ومن هذه المساجد التى كانت بمثابة جامعات إقليميـــة الجـــامع الأحمدى فى طنطا، ولم تكن طنطا فى الواقع قبل ظهور الجامع الأحمدى

سوى قرية صغيرة تحولت بعد ذلك إلى مدينة كبيرة مع ازدهار نشاط الجامع الأحمدى الذي يرجع إلى تعاظم الأوقاف المحبوس ريعها على العناية بالمسجد والإنفاق على مرافقه والعلماء وطلاب العلم به، وتوافد رجال الطرق الصوفية من شتى أنحاء مصر للتبرك بمقام الشيخ أحمد البدوى مؤسس الطريقة الأحمدية وصاحب الكرامات المشهورة كما يعتقد الصوفية ومن لف لفهم من العامة، والموصوف في الأغنية الشعبية الشهيرة بأنه "جاب اليسرى" أي الأسرى.

***

والكتاب الذى بين يديك الآن عزيزى القارئ "حياة مجاور فى الجامع الأحمدى" للأستاذ محمد عبد الجواد (١٨٨٧- ١٩٦٤م) هو فى الجانب الأساسى منه عبارة عن صفحة من تاريخ التعليم فى مصر، إلا أنه يعد فى جانب آخر منه بمثابة سيرة ذاتية لحقبة زمنية من حياة المؤلف.

وقد صدر الكتاب لأول مرة سنة ١٩٤٨م أى بعد سبع عشرة سنة تقريباً من صدور الجزء الثاني (١٩٣١م) من كتاب الدكتور طه حسين (١٨٨٩- ١٩٧٣م) " الأيام " وتسع عشرة سنة تقريبًا من صدور الجزء الأول (١٩٢٩م)، وبين الكتابين أوجه شبه كثيرة، وتفسير

ذلك يرجع ببساطة إلى أن مؤلف كتاب "حياة مجاور" متأثر بلا شـك بالدكتور طه حسين في كتابه "الأيام" ولعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا إنه لو لم يظهر كتاب الدكتور طه حسين ويطلع الأستاذ محمد عبد الجـواد عليه لما فكر على الإطلاق في تأليف كتابه المذكور والكتاب السابق عليه "في كُتَّاب قريتي".

وفي ظننا أن الأستاذ محمد عبد الجواد عندما اطلع على كتـاب " الأيام "، ورأى أن تجربة الحياة التي يصورها الكتاب هي تجربة شبيهة إلى حد كبير بتجربة حياته، وأنها تجربة مر بها صاحبها في نفس الحقبة الزمنية التي مر هو فيها بتجربته، عندئذ قرر أن يروي تجربته كما فعل الدكتور طه حسين.

لاغرو إذن أن يتناول الكتابان موضوعًا واحدا، إذ يصـور كلاهما جوانب من المعاناة التى عاناها المؤلفان من نظام التعليم الدينى: طه حسين فى الجامع الأزهر، ومحمد عبد الجواد فى الجامع الأحمدى، وكلا الكتابين يتحدث عن الحالة التعليمية الدينية فى نفس الفترة الزمنية "من نهايـات القرن التاسع عشر إلى منتصف العقد الثاني تقريباً من القرن العشرين".

ولأن كلا المؤلفين : د. طه حسين و الأستاذ محمد عبد الجواد كان ينتمي في طفولته وصباه إلى الطبقات الفقيرة من المجتمع، فقد رسم كل منهما بقلمه على اختلاف الأسلوب صورة واضحة المعالم لفاقته وفقره فى مقتبل حياته التعليمية، فطه حسين يصف لابنته كيف أنه " كان فى تلك المرحلة من عمره صبيا فقيرا ينفق الأسبوع والشهر لا يعيش إلا على خبز الأزهر، وهو خبز يجدون فيه ضروبا من القش وألوانا من الحصى وفنونا من الحشرات، وكان ينفق الأسبوع والشهر والأشهر لا يغمس هذا الخبز إلا فى العسل الأسود " ، ثم يعقب مخاطباً ابنته بقوله: " وأنت لا تعرفين العسل الأسود وخير لك ألا تعرفيه " .

أما محمد عبد الجواد فيصف فى كتابه بشيء من التفصيل كيف كان غذاء الطلبة المجاورين فى الجامع الأحمدى. فيتحدث عن الجبن الأبيض المقدد الذى يخزنه الطالب فى سحارته ليأكل منه كلما جاع مع الخبز المصحوب بورق الفجل أو الكرات، ويصل الأمر ببعض الطلبة الفقراء - خشية نفاد الإدام - إلى أن يضع الواحد منهم قطعة الجبن الجافة فى قليل من الماء ثم يغمس لقمته فى هذا الماء حرصاً واقتصاداً، كما يتحدث الأستاذ محمد عبد الجواد عن أنواع الطعام التى كان يتناولها

المجاورون كأقراص الطعمية أو الفول النابت أو الفول الأخضر في إبانه أو المدمس مع الطرشى، وكيف كان يشترك اثنان أو أكثر من المجاورين أحيانا فى غدوة واحدة ليجمعوا بين صنفين أو نوعين من الإدام، وهو فى أحسن حالاته فول نابت يُفتّ فيه قرص أو قرصان من الطعمية.

وإذا كان الأستاذ محمد عبد الجواد لا يوجه كلامه إلى ابنه أو ابنته كالدكتور طه حسين عندما يصف كيف كانت حياة المجاورين بائسة غارقة فى الضنك والفاقة، إلا أنه يفعل ما هو قريب من ذلك، فبعد أن يعتذر عن تمسكه بالصراحة المقذعة فى وصف معيشته ومعيشة من كان معه من المجاورين، نظرا لأن بعضهم قد يرى فى ذكر هذه الحقائق غضاضة، أو لأن بعض كبار العلماء قد يشمئزون منها، مع أنها لا تعدو كونها حياة سابقة كانوا يحيونها حقا يقول: " وقد يعجب أبناؤهم المترفون كيف كان آباؤهم يعيشون تلك المعيشة أو نشأوا تلك النشأة وهم الآن يخبون فى النعيم ويرتعون فى بحبوحة الرغد والرفاغة " أليس هذا الكلام شبيها بقول الدكتور طه حسين لابنته: " إنى لأخشى لو حدثتك بما عرفت من أمر أبيك حينئذ أن يملكك الإشفاق وتأخذك الرأفة فتجهشى بالبكاء " ؟ . ومع ذلك فإن الدكتور طه حسين لا

يستنكف بعد ذلك أن يصف حالته فيقول: " كان نحيفاً شاحب اللون مهمل الزى أقرب إلى الفقر منه إلى الغنى، تقتحمه العين اقتحاما فى عباءته القذرة وطاقيته التى استحال بياضها إلى السواد القاتم، وفى هذا القميص الذى يبين أثناء عباءته وقد اتخذ ألوانا مختلفة من كثرة ما وقع عليه من الطعام، ومن نعليه الباليتين المرقعتين " .

وكما كان الدكتور طه حسين ساخطا على حياته التعليمية فى تلك الفترة، وقد تمثل سخطه في العديد من الأمور التي يمتلئ بها كتابه الأيام من مثل تندره وسخريته اللاذعة من بعض شيوخه كهذا الشيخ غليظ الطبع الذي يقرأ في عنف ويسأل الطلاب ويرد عليهم في عنف، ولا يكاد يسأل حتى يشتم، فإن ألح عليه السائل لا يعفه من لكمة إذا كان قريبًا منه، ومن رمية بحذائه إذا كان مجلسه منه بعيدًا، وكذلك سوء ظنه بكثير من أساتذته آنذاك بناء على ما كان يسمعه من زملائه وأصدقاء أخيه ويعبر عن ذلك في قوله " فلم يكن شيء من هذه الأحاديث ليحسن ظنه بهؤلاء وأولئك وإنما كان ظنه يزداد بهم سوءا كلما مر عليه الوقت".

وعندما مات الشيخ الإمام "محمد عبده" ، وكان طـه حسـين معجبًا إلى حد كبير بشخصيته الآسرة وعقله المتفتح وأفكاره المستنيرة وجد أن كثيرا من الأزهريين قد انتهزوا فرصة وفاته ليتاجروا باسمه ويستغلوا صلتهم به لأغراض شخصية، لذلك أصابه نفور منهم، وقد زاده نفورًا من الأزهر ورجال الأزهر أن الذين بكوا الشيخ الإمام صادقين لم يكونوا من الأزهريين أصحاب العمائم وإنما كانوا من الأفندية أصحاب القبعات والطرابيش.

وقد بلغ السخط بالدكتور طه حسين على حياته التعليمية في تلك الفترة حدًا كبيرًا أفصح عنه في تلك العبارة: "واشتد ضيق الفتى بالأزهر وأهله وحياته في القاهرة غارقًا فيما لا يحب ، مقصيًا عما تشتهيه نفسه ويتحرق إليه قلبه، حتى لقد كان يصل إلى القاهرة في أول العام الدراسي فلا يكاد يستقر فيها حتى يدعو آخره متشددًا في الدعاء أو ملحًا فيه"، و في هذه العبارة أيضا التي يقول فيها "فلما عاد إلى الأزهر من قابل عاد إليه ضيق النفس به شديد الزهد فيه حائرا في أمره لا يدري ما يصنع".

كذلك كان الأستاذ محمد عبد الجواد ساخطا على حياته التعليمية في تلك الفترة، ولكنه لم يجعل من سخطه مبررا للإجحاف وعدم الإنصاف، فهو مع قسوة ما عاناه فى تلك الفترة من حياته، يصفها بأنها " لا تخلو دراستها من المتعة واللذة، وفيها شيء من الفائدة والدراسة النفسية (السيكولوجية)".

وهو أيضا يلتمس لوالده العذر في شدة معاملته له وقسره على أن يسلك طريقا في التعليم لم يكن يرغب فيه، إذ إن والده كان يحوطه بعناية ليس بعدها عناية خشية أن يضيع وقته في اللهو واللعب، فلا يعود من طلب العلم بدون أن يبلغ الهدف الذي كان يرمي إليه، وهو أيضًا رغم إقراره بأن الدراسة بالمعاهد الدينية في مصر ومنها الجامع الأحمدي تسير على غير هدى ولا تخضع لنظام، إلا أنه كما يقول: "تعمد ترك نقد أساليب التعليم والدراسة فوكلها إلى وصفها الدقيق مجردة ناطقة لا غبار عليها".

ونزعة الإنصاف التي سيطرت على الأستاذ محمد عبد الجواد في أثناء تأليف كتابه هي التي جعلته يعترف بأنّه "لم يرد من استعادة ذكرى القديم أن يوصي بالتمسك به أو أن يرفض الانتفاع بالحديث دونه" لأن

كل اهتمامه كان منصبًا على " تسجيل القديم لدراسته والانتفاع بما كان فيه من مزايا، ولمجانبة ما كان فيه من مآخذ ومثالب "، إذ إن كل جديد لا يقوم على أساس من دراسة القديم – من وجهة نظره – يكون "كالصرح الذي يبنى على غير أساس أو على أساس غير متين، وليس في استطاعة مخلوق أن يقرر أن القديم كله عيوب وأنه لا يصلح إلا للنسيان" .

***

هل هناك الآن مجال للشك فى أن محمد عبد الجواد كان يترسم خطى الدكتور طه حسين فى كتابه "الأيام" حين كتب كتابه "حياة مجاور فى الجامع الأحمدى"؟، على أية حال هناك الكثير من الأمور التي تؤكد هذا التأثر في الكتابين إلا أننا سنقتصر على ذكر أمرين منها فحسب: الأمر الأول أن الأستاذ محمد عبد الجواد في معرض حديثه عن السادة العلماء أو الشيوخ الذين عرفهم في تلك الفترة في حياته حاول أن يرسم صورة لاختلافاتهم الشخصية في الطباع والسلوك وغيرهما مركزا على اللوازم التي كانت تشيع على ألسنتهم كما فعل الدكتور طه حسين في "الأيام" ولكن بطريقة مختلفة ليس فيها طرافة وصف الدكتور طه

حسين ولا حيوية ورشاقة تعبيره، يقول (وكما يختلف السادة العلماء في صورهم وأشخاصهم وأصواهم، كذلك يختلفون في " لوازمهم " وأريد بها ما اعتادوه من قول وحركة في أثناء تقريرهم أو شرحهم دروسهم وقد تدل الألفاظ كما تنم مخارج الحروف على مديريته (أي المتحدث) من شرقية أو بحيرية؟ فترى هذا يقول دائما وبين كل الجملتين: "يا مولانا" يتغنى بها أو "يا سيدنا قال إيه؟" أو "يا ويد" محال "يا واد" محرف "يا ولد" ، وكانت هذه ثقيلة أو خفيفة تبعا لظل الشيخ ودرجة محبته في نفوس تلاميذه).

وهذا يشبه ما أورده الدكتور طه حسين في الأيام عن بعض مشايخه في السنوات الأولى من دراسته بالأزهر من مثل حديثه عن اللازمة التي كان يرددها أحد المشايخ بعد كل مرة من تفسيره للجملة التي يناقشها: "قال قال إيه؟" أو الشيخ الآخر الذي كان كلما انتقل من جملة إلى جملة يقول "إخص على بلدي" أو الشيخ الثالث الذي كلما سأل الطلاب سؤالا فيما شرحه فلم يرد عليه أحد ضرب بيده جبهة الغلام وهو يقول: "ردوا يا غنم، ردوا يا بهائم، ردوا يا خنازير" يفخم العين والخاء إلى أقصى ما يستطيع فمه من تفخيم.

الأمر الثاني أن الأستاذ محمد عبد الجواد حين سجل تجربة حياته خلال دراسته بالجامع الأحمدي فقد سجلها في كتابين تمامًا بتمام كـ "الأيام" للدكتور طه حسين آنذاك، إلا أن ما اختلف فيه الاثنان أن الأول اختار لكل كتاب من كتابيه عنوانا قائمًا بذاته بينما آثر الثاني أن يكون للكتابين عنوان واحد باعتبارها كتابًا واحدًا من جزأين، ومما هو جدير بالذكر أن الجزء الثالث من الأيام لم يكتبه الدكتور طه حسين إلا في وقت متأخر من حياته فقد كتبه في الستينيات من القرن العشرين، و لم يصدر إلا بعد وفاته في أكتوبر ١٩٧٣م.

والأمر الغريب الذي قد يثير الدهشة هو أن الأستاذ محمد عبد الجواد كان ينوي أن يخرج كتابًا ثالثًا يكمل به ما رواه في كتابيه السابقين من تجربة جياته التعليمية، ويروي فيه بالتفضيل ما حدث له بعد فشله في الحصول على شهادة "العالمية" من الأزهر وتخبطه في دراسات مختلفة وتردده على معاهد متباينة غير المعاهد الدينية كدار العلوم وكلية الحقوق، فهو في الصفحة السابعة من هذا الكتاب يقول: "وسأسجل لكل منهما (أي لدار العلوم وكلية الحقوق) حقه في تكوين هذه الشخصية العجيبة إذا طال الأجل وشاء المولى القدير" ولكن هذا للأسف

لم يحدث حتى مات عام ١٩٦٤، بينما كتب الدكتور طه حسين الجـزء الثالث والأخير من "الأيام" قبل وفاته بخمس سنين تقريبًا، فهل تراه (أي الأستاذ محمد عبد الجواد) فعل ذلك ومات قبل أن يتمكن من نشره، أم أنه لم يفعل مطلقًا؟.. هذا ما لا نستطيع القطع فيه برأي إذ ليس تحـت أيدينا من المعلومات ما يجعلنا قادرين على ذلك.

وإذا كان الدكتور طه حسين ألف كتابه فى شكل سيرة ذاتيـة تصور حقبة من حياته الباكرة تصويرا أدبيا، إلا أن " الأيام " فى جانب منه يقدم صورة زاهية الألوان لما كان عليه حال التعليم فى الجامع الأزهر آنذاك، فهو جزء من تاريخ التعليم الديني في مصر إذا نظر إليه من هـذا الجانب، فكذلك الأستاذ محمد عبد الجواد قد ألف كتابه " حياة مجاور فى الجامع الأحمدى " وقبله كتابه " فى كُتَّاب القرية " في شـكل " السيرة الذاتية " ، وإن لم يتمكن من صوغها في أسـلوب أدبي رشـيق كأسلوب الدكتور طه حسين.

وربما لهذا السبب ولغيره من مثل: الاهتمام بالتواريخ والرسـوم التوضيحية والصور الفوتوغرافية والاعتماد على الأرقام والجداول وقوائم الأسماء ..إلخ، والاستعانة ببعض المظان والمراجع فيمـا يخـتص بـبعض

المعلومات التي يوردها في حديثه، أصبحت "السيرة الذاتية" فى هذا الكتاب الذى بين أيدينا مجرد إطار عام فقط، وصار الكتاب – إذا شئنا تصنيفه تصنيفا دقيقا – ينسب إلى "تاريخ التعليم"، فهو كما وصفه مؤلفه "صفحة من تاريخ التعليم" تصور حالة التعليم الديني المزرية المضطربة خلال تلك الحقبة الزمنية التي أشرنا إليها من قبل.

الكتاب ثرى بالمعلومات القيمة عن الكثير مما يتعلق بالجامع الأحمدى: نشأته ومكانه وصفته وبعض مراحل تطوره وملحقاته من المساجد الأخرى والزوايا وأسماء أشهر العلماء الذين تولوا مشيخته، وقد ترجم المؤلف في الكتاب بإيجاز لبعض الشخصيات مثل "السيد أحمد البدوي" الذي تأسس الجامع نسبة إليه، والشيخ إبراهيم الظواهري شيخ المسجد الأحمدي في الفترة من (١٨٩٢ – ١٩٠٧م)، وابنه الشيخ محمد الأحمدي الظواهري الذي تولى مشيخة المسجد من (١٩١٤ – ١٩٢٣م) وهو نفسه شيخ الجامع الأزهر فيما بعد خلال الفترة من (١٩٢٩ – ١٩٣٥م)، والشيخ أحمد الشرقاوي المتوفى في يونيو ١٩٣٨ والذي يصفه المؤلف بأنه قائد النهضة العلمية المدنية الحديثة بـ" هورين – غربية". وما جاورها من القرى.

وقد تحدث المؤلف في كتابه باستفاضة عن خطط الدراسة بالمسجد ومناهجها والسنة الدراسية متى تبدأ ومتى تنتهي؟ وأوقات الدراسة وموادها وكيف كانت طرق الدراسة في ذلك الزمان وأغراضها وأساليب الامتحانات؟.

ويعد الكتاب لوحة حية مرسومة بقدر كبير من الدقة والتفصيل لحياة الطلاب المجاورين ومساكنهم وغذائهم، هذا فضلا عن وصف مدينة طنطا مع المقارنة بينها في أوائل القرن العشرين وطنطا في منتصف الأربعينيات والمنطقة المحيطة بالمسجد الأحمدى وما فيها من الأسبلة والسقائين، والموالد ومواسمها وفي مقدمتها مولد السيد البدوي، والنذور.. وهو يعطينا في الكتاب وصفا تفصيليا لصندوق نذور السيد البدوي ومواعيد فتح الصندوق وكيفية جرد ما به وكيف يقوم؟ وعلى من يتم توزيعه؟.

وكما تمرد الدكتور طه حسين على حياته بالأزهر تمرد الأستاذ محمد عبد الجواد على حياته بالجامع الأحمدي، وكما انتهى المشوار التعليمي للدكتور طه حسين بعيدا عن الأزهر فقد انتهى المشوار التعليمي لمؤلف كتاب " حياة مجاور " بعيدا عن الأزهر كذلك، فقد التحق -

بعد أحداث طويلة أدت إلى طرده من الدراسة بالجامع الأحمدى وفشله فى الالتحاق بالأزهر للحصول على شهادة " العالمية " التى كانت كل أمل والده أن يحصل عليها – انتهى هذا المشوار بكلية دار العلوم حيث حصل على دبلوم دار العلوم، ثم بكلية الحقوق المصرية حيث حصل على ليسانس الحقوق؛ ليعمل بعد ذلك مدرسا بمعهد التربية للمعلمات بالزمالك.

ومهما كان من أمر تقويمنا لأسلوب هذا الكتاب ومحتوياته فهو في تقديرنا كتاب مهم يصور بأسلوب سلس ومشوق: " مشاهدات طالب في عشر سنوات كاملة قضاها في طنطا وهو حاد السمع والبصر، دقيق الحس والوجدان ، سجل بها للتاريخ حقائق عاش فيها ووصف معارك الحياة خاض غمارها ومجتمعات خب فيها ووضع وشهد أحداثا سبر أغوارها وتلطخ بحمأتها وقد كتبها موزونة بالميزان الذي كانت فيه وقتها " .

والله ولى التوفيق،،

القاهرة في مايو ٢٠١٠

حياة مجاور

في الجامع الأحمدي

للأستاذ

محمد عبد الجواد

الأستاذ بمعهد التربية المعلمات بالزمالك

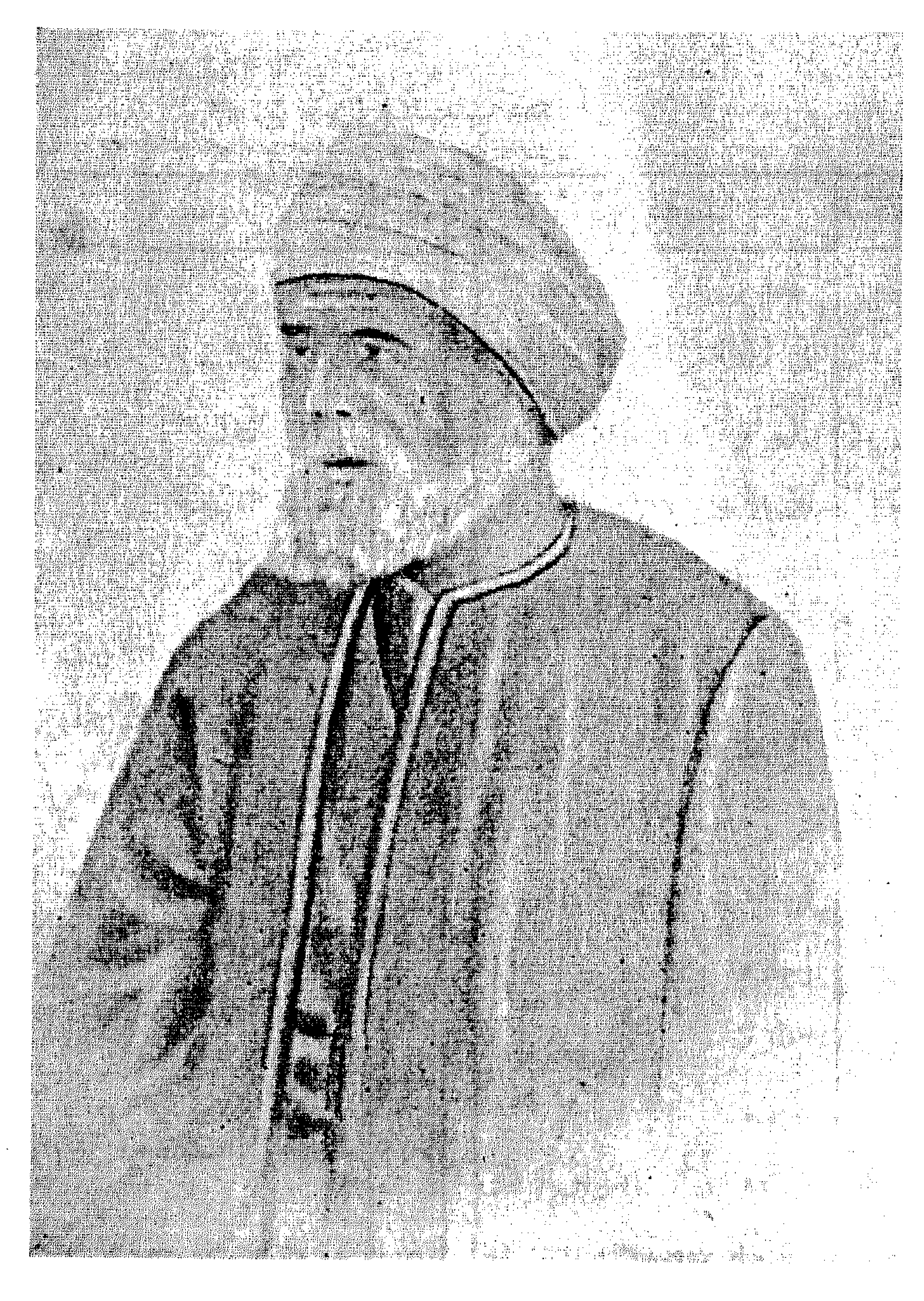
« دبلوم » دار العلوم

و « ليسانس » الحقوق المصرية من جامعة فؤاد الأول

مؤلف كتب :

فى كتاب القرية ، والتذكرة فى فقه اللغة ، ودروس

التهذيب التاريخية ، وتأمل مشاهد الطبيعة الخ .



المرحوم الشيخ الجليل ابرهيم ابرهيم الظواهرى
شيخ الجامع الأحمدى
والد المرحومين المشايخ : الشافعى ، والحسينى ، والأحمدى ،
شيخ الأزهر الأسبق (انظر صفحات ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠٤)

المضمون

تصدير

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل

الشيخ ابراهيم الجبالى

عضو جماعة كبار العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم

الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان علمه البيان . نحمد ونشكره ، فهو وحده الحقيق بأجلّ الحمد وأجمل الشكران . ونصلى ونسلم على سيدنا محمد سيد ولد عدنان ، الذى أكرمه الله بمعجزة البيان ، وعلى آله وصحبه ماتعاقب الملوان .



وبعد فنعمة البيان على الإنسان نعمة جزيلة ، ذات آثار جليلة ، تتفاوت تفاوتا بعيد المدى ، بقدر تفاوت الإنسان فى مراتب الإرشاد والهدى . ولقد يُرى من تفاوت هذه الموهبة فى

الناس مايربو على كل تفاوت فى المواهب ، فتتباين به الأقدار وتتباعد فيه المراتب .

ومن أجلى مظاهر الإبانة فى تفاوت الأساليب ، وجودة التعبير ، وبراعة العبارة ، وإحكام الرصف — باب الوصف . فرب واصف يقرب لك البعيد ، ويرينا المعقول بصورة المحسوس ؛ بيد أنه كثيرا مايكون لطرافة الموضوع الذى يكتب فيه الكاتب ، أو عظمه وفخامته ، أو غرابة حوادثه — أكبر العون للكاتب على الإجادة ؛ ولكن البراعة الحقيقية تتجلى إذ يتناول الكاتب موضوعا مألوفا معتادا مرّ على كل إنسان ، ولاسيما فى حال الحداثة واللهو ، فلا يسترعى من إنسان نظرا ولا يستحق من مشاهد خبراً ، وبماذا يخبر ؟ وماذا ينتظر ، وحوادثه متشابهة ، وكلها تافهة ، إذا استحق منها حادث التفاتا فليس إلا لأن مثله حقه أن يأتى من الكبير ، فهو مستظرف لصدوره من طفل صغير ؛ ولله من قال يخاطب رفيق صباه :

تذكر والحادثات بُله	ليس لها ألسن حداد
ونحن فى مكتب المعالى	يصبغ أفواهنا المداد

فهل كون حوادث الصبا بلهاء ، لا تلق على أصحابها عبرة ، ولا تستحق منهم نظرة ، أمر غريب ؟ كلا ! هى دائما كذلك ، وهل فى صبغ المداد أفواه صبيان المكاتب غرابة ؟ لا لا ! كل أطفال

المكاتب كذلك . وما ساقها الشاعر إلا ليبرز طور السذاجة على أكمل معانيه وأجلى مظاهره .

هذا الطور من الحياة طور بسيط ساذج ، يمر على الجميع بصور متشابهة فى الجوهر ، مهما اختلفت فى الشكل ، وهى أيا كانت، ليس فيها ما يجذب السمع ، أو يسترعى الذهن، أكثر مما تلمحه من أنه كان طور السلامة من مشاغل الحياة وملاهيها ، فيسوق صورة من صوره الكثيرة لتجعله مثلا لبقيتها كما يقول المثل العامى : ما أهنأ أيامك يا جحا ؟ قال : أيام كنت أعبىء التراب فى طاقيتى (قلنسوتى) .

فإذا جاء كاتب فأبرز لنا هذا الدور من الحياة بصورة متماسكة متلاحمة ، وكوّن منها هيكلا حياً ، وإذا هو صورة حقيقية لما مر بنا جميعا واجتزناه كلنا بسلام ، وإذا هو دور طريف ، ورواية جذابة، قد أخذت كل حلقة من سلسلته بوسط جارتها ، وإذا هو مطالعة لنفسية ، بل نفسيات دقيقة ، فيها المتشابه وفيها المحكم ،وفيها المتنافر ، وفيها المنسجم ، ولم يعدُ الواقع فى ذرة منها . بل جعل فى كل حلقة درة ثمينة ، تجتذب التفكير، تأملا فى مناحى النفس الإنسانية ، وأوضاعها الطبيعية ، ويجليها أنه يسير بك فى بستان من أزاهير الحوادث الصبيانية ، ودور الطفل اليافع، والمتعلم والمهمل ، أقول إذا عمد الكاتب إلى هذا الدور

الساذج من أدوار الحياة، وكوّن منه هذا الهيكل المتماسك الجميل، كان هو الكاتب المبدع حقا ، بل كان هو الكاتب الفذ الذى لا يجارى ، وكان مايقوله هو السهل الممتنع ؛ تنظر إليه فتراه بين يديك لا يتعاصى شىء منه عليك ، فهو فى معانيه أقرب إليك من شعاع الشمس ، فإذا ما حاولت أن تحاكى هذا الكاتب ، وتنسج من معلوماتك مثل ما نسج من معلوماته التى ساويته فى مشاهدتها ، بل فى ملابستها ، كنت كمن يريد أن يمسك بيده شعاع الشمس ، فما أبعده وما أقربه ؛ حقا هذا هو السهل الممتنع

هذا هو ماشهدته وشهدت به حين أطلعنى حضرة الأستاذ النابغة ، الأستاذ محمد عبد الجواد على كتابه : « محمد عبد الجواد فى الجامع الأحمدى » .

سمعته منه فى مجالس ، وكنت أحرص على دوام استماعه منى على تبادل الأنس به ، على شغفى بمسامرته ، ومناقلة الحديث معه فى شتى الموضوعات، التى تجمع بين الفائدة واللذة الفكرية .

لقد كنت أشعر وأنا أصغى للأستاذ أنه قد رجع بى إلى عهد الصبا ، وأنى أسير معه من البيت إلى الجامع ، وانتقل معه من درس إلى درس ، أحضر مايحضر ، وأسمع من الأساتذة ما يسمع ، وأعانى ما يعانى من شظف مر بنا جميعا ، وأغتبط بما يغتبط ، من مباهج استمتعنا بها فى تلك الفترة من الحياة المؤلمة

الحلوة ، التى تشبه حياة العاشقين ، يستعذبون العذاب ، ويطربون لرؤية السراب ، ويتلذذون بتافه المأكل والشراب .

تالله لقد كنا كلنا « محمد عبد الجواد » وإن كان بعضنا فى الجامع الأحمدى ، وبعضنا فى الجامع الأزهر ، فلماذا اختصه الله بهذه الموهبة ، فانفرد من بيننا بهذه المقدرة ، فصاغ لنا من حياتنا صورة ناطقة ، ورواية صادقة ، بل أرانا أنفسنا فى مرآة صافية لا تقتصر على إبداء ملامحنا وجوارحنا ، ولكن صوّر لنا نفسنا ، فرأينا نفسنا ، وجلى لنا مشاعرنا وإحساسنا ، وآلامنا وآمالنا ، وجمع لنا فى لمحة نقرؤها فى لحظة ، حياتنا فى حقبة من الدهر ، تناهز من السنين العشر أو فوق العشر .

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

نعم ، قد أخالف الأستاذ فى بعض آرائه ، وبخاصة فى رجال التعليم وطرقه ، ورجال التصوف وطرقه ، ولكن هل هذا يحول بينى وبين الإعجاب به ، والإجلال وعظيم التقدير له ؟! إنه فى نظرى الرجل القدير ذو الشأن الخطير وكفى .

أسأل الله أن يهبه من الصحة والنشاط ، ما يمكنه من مواصلة هداياه وهديه لأمته ، إنه سميع مجيب .

فى الجامع الأحمدى

صفحة ثانية من تاريخ التعليم بمصر[1] ، فيها صورة وصفية للدراسة فى الجامع الأحمدى (أحد معهدى التعليم الدينى الاسلامى بمصر ، والآخر هو الأزهر الشريف) ، تكشف عن حال طلابه ومعيشتهم ، فى الربع الأول من القرن الرابع عشر الهجرى أو الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادى .

وقد برز حول هذه الصورة التى ترى فيها ملامح شخصية ، نقوش أو رسوم من الحالة الثقافية والاجتماعية التى كان الكاتب مغمورا فيها . فالمؤرخ الذى يكتب فى التاريخ صفحة ما ، لابد له من أن يصنع لها إطارا من الملابسات التى كانت تحيا فيها تلك الصورة ، حتى تظهر ناصعة بالمظهر الطبيعى اللائق بها . على أنه يجب على من يحاول وصف عقلية من العقليات ، أن يمدها بألوان من البيئة التى فيها نشأت ، ويشير إلى بعض الأحداث التى بمرآها تغذت ، وعلى ضوئها اهتدت ، ويحيطها بمجموعة الأفكار والمعتقدات التى منها استقت وترعرعت . أليست العقلية كناشة من صور اجتماعية تنعكس وتجتمع فى بؤرتها ؟!

---

(١) الأولى « فى كُتاب القرية » .

أليس فكر المرء خلاصة تمثيلية ، تتمثل فى أساليب تفكيره ما مر به من أحداث ومشاهدات ، نتيجة لهضم وقائعها ، وأثراً من آثارها فى نفسه ؟! ولولا ذلك لما افترقت العقليات ، ولما تباينت الأفكار والآراء ، ولا تحد الأشخاص فى طريق تعقلهم ، مهما اختلفت بيئتهم ، وهو محال !

كيف يغفل هذا الطالب ، وهو يرتل علينا آيات حياته بالجامع الأحمدى — وصف المزارات والموالد وما يشاهد فيها ، وذكر النذور والهدايا وتغلغلها فى نفوس العامة ، واهتمام الناس وطبقات الشعب بها ؟!

أوكيف يذكر الدراسة فيه وما يتعلق بها ، بدون أن يعرض إلى ما يرتبط بالجامع وما فيه ومن فيه ، وإلى ما كان يحدث حوله أو فى داخله ، وما يكتنفه من شتى الصور التى أظلته ؟!

كل ذلك فى نظره ، من أوضح الأهداف التى يصح أن يرمى إليها ، إذا أراد أن يكل الاستنباط والتعليل إلى المكان لا المسكين ، والزمان لا المزمون !

ولعل القارىء يغفر له خطيئته باقحام شخصه فى هذه الدراسة ، فقد كانت حياة غريبة ، لا تخلو دراستها من المتعة واللذة ، وفيها شىء من الفائدة والدراسة النفسية (السيكلوچية) ؛ تجلى فيها ظلم المشرف لمن تولى الإشراف عليه ، ولم ينفع فيها توجيه ولا إرشاد.

حياة كانت صراعا بين الميل الشخصى والتحكم فى التوجيه العلمى ، حياة فيها الحرية المطلقة من ناحية ، مع قيود من الاستبداد والاستعباد يرسف فيها هذا العقل الحر من نواح أخرى ؛ حياة ارتجالية عبثت يد الزمان بخطط التربية التى رسمت لها ؛ فكانت تربيعة بين الشدة واللين ، وبين القوة والسياسة ، وبين المد والجزر ؛ وإجمالا : حياة كانت ملتقى المتنافرات والمتناقضات !!

ما أردت بهذا مناقشة مبدأ ، أو بحث قاعدة ، ولكنى أريد أن ألقى بها سؤالا على مسامع الزمن، وأطلب من مبادىء التربية الإجابة عليه ! إنها لحياة جديرة بالدراسة ! يرسم الوالد لتعليم ابنه خطة ، فتحول ظروف قهرية بينه وبين تنفيذها ، ويظهر ميل الطالب واضحاً إلى الخروج عن المألوف فى الدراسة ؛ ويأتى بالمعجزات فى تحطيم الأغلال التى تقيده ، ولا يقف حرص الوالد الشديد أمام إسراف هذا الولد فى إشباع ميله ورغباته ، من ثقافة كان يراها أبوه عائقاً عن تحصيل العلم فى نظره ، وتأبى الأحداث والملابسات إلا أن تساعد على نصر أحد الطرفين المتنازعين !

وأخشى أن أكون قد أسرفت فى تمسكى بالصراحة المقذعة ، فى وصف حالى ومعيشتى ومعيشة من كان معى من المجاورين !! وقد يرى بعضهم فى ذكر هذه الحقائق غضاضة ، أو يشمئز منها بعض كبار العلماء ، وهى لا تعدو كونها وصف حياة سابقة كانوا يحيونها حقا !!

وقد يعجب أبناؤهم المترفون :كيف كان أباؤهم يعيشون تلك المعيشة ، أو نشئوا تلك النشأة ، وهم الآن يخبون فى النعيم ، ويرتعون فى بحبوحة الرغد والرفاغة !! وهذا بعض ماسمعت من بعض الأصدقاء عند اطلاع أبنائهم على ما وصفنا فى « كُتاب القرية » . ولكن أين كنا من الطلبة السابقين ، ومشايخ الإسلام الأجلاء الأقدمين ، ولنا فيهم أسوة وقدوة ؟! فقد تواترت الأخبار على أن كثيراً من طلبة العلم قبلنا كانوا يقتاتون بقشر البطيخ الملقى فى الحوارى والشوارع ، وأن شيخ الإسلام (فلان) طردته امرأة أبيه من بلده فلجأ إلى طلب العلم فى الأزهر ، وأن شيخ الإسلام (فلانا) غادر قريته وعلى كتفه سوط المحراث (الفرقلّه) وهبط القاهرة ، فقابله ابن البلد القاهرى وقال له هازئاً « تقدم ياشيخ الإسلام » فكأنما كانت مكتوبة فى اللوح المحفوظ ! وطالما افتخر هؤلاء ومن على شاكلتهم بنشأتهم ، وذكروا من أساء إليهم بالرحمة وطلب المغفرة ، إذ حسنت آثار إساءتهم !!

وليس عندى من الأعذار إزاء هذا الاعتراض — إن صح أن الأمر يستوجب المعذرة — إلا أنى أسرد وقائع ، وأسجل مناظر ومشاهد ، لم يذهب بوضوحها فى ذهنى نصف قرن من الزمان ! فإذا كان مرّ السنين الذى يُنسى ويفنى ، لم يستطع تحويرها فى ذاكرتى ، فكيف يغيرها أو يشوهها قلمى ، وهما

أميناى على كل ما أعى وأتذكر ، وأكتب وأصف ؟ ! على أن أى تعديل فى تلك الصور قد يدخلها فى دائرة « الكذب » حمانا الله منه ! خمس وأربعون سنة كاملة لم تشعع من أذنه صوت بائع الترمس وهو يمر غرب الجامع بعد العصر منادياً : يالوز امبابه يا ترمس ! وإن هب ريح العصارى افتكرت الأهل و بلادى ! فيطرب لصوته وهو يدوّى بالجامع ، وتذكّره صفرة الشمس ، أو الأصيل ، بالبعد عن الأهل ، والاغتراب فى طلب العلم !

ومهما كانت هذه الصحائف ومحتوياتها ، ، فهى مشاهدات طالب فى عشر سنوات كاملة قضاها بطنطا ، وهو حاد السمع والبصر ، دقيق الحس والوجدان ؛ يسجل بها للتاريخ حقائق عاش فيها ، ويصف معارك للحياة خاض غمارها ، ومجتمعات خب فيها ووضع ، وشهد أحداثاً سبر غورها ، وتلطخ بحمأتها ، إذا صح هذا التعبير ! وهو يكتبها موزونة بالميزان الذى كانت فيه وقتها ؛ فهو يحصى كل الحسنات والسيئات ، الحسنات فى نظره ، والسيئات فى ظاهرها ، وإن انقلبت فيما بعد إلى حسنات ! فلا ينسى لناصح (خياط) وقف بجانبه أمام المراحيض ، أن تناول إبرته من عمامته ورتق بها فتقا كان فى طوقه من أثر شيطنة الشباب ، ولا يزال يتمنى أن يعرف أحداً من أبنائه ليرد له جميل هذا التطوع ولو بعد نصف قرن من الزمان ! كما أنه يتناسى إساءة من قطع صلته

بالمعاهد الدينية ، قسرا وبكل وسيلة ، فيوجهه الله هذا التوجيه الغريب !

ولم يفته أن يشير إلى الأفكار المتعلقة بطلب العلم فى غير الأزهر ، صواباً كانت أم خطأ ، لأنها كانت شائعة فى ذلك الوقت ، ولكل عصر فى التربية روح خاص .

ولقد تعمدت ترك نقد أساليب التعليم والدراسة فى الجامع ، فوكلته إلى وصفها الدقيق ، وإبراز صورها مجردة ناطقة لا غبار عليها ، إجابة لاستيلاء مشاهداتى على مشاعرى .

ولعل الآباء من القراء يحسون شيئاً من الاستبداد الذى تعرضت له فى حياتى العلمية ، ويدركون أثر الضغط الذى وقع علىّ ممن تولى شأنى فى مبدأ غربتى ، لشدة معاملة والدى ! وإذا كنت قد استطعت التصريح بشىء منها فى أيام الكتّاب ، فقد كانت وطأتها أشد فى أيام المجاورة ، لما ظهر ممن تولوا زمام قيادتى . وللوالد رحمه الله بالغ العذر فى ذلك : فالدراسة بالمعاهد كانت تسير على غير هدى ، ولا تخضع لنظام ؛ وكان حريصاً على أن يحوط ابنه بعناية ليس بعدها عناية ، حتى لا يقطع زمنه فى اللهو واللعب ، بدون رعاية من هو أكبر منه ، فلا يعود ابنه — كما عاد هو — من طلب العلم بدون أن يبلغ الهدف الذى كان يرمى إليه ! غير أن كل شىء يزيد عن حده ، ينقلب إلى

ضده ؛ فلم يرد الله لهذا الفتى الضعيف أن يبقى طويلا تحت نير الوصاية ، بل استقل بشأنه ، بعد أن اضطر إلى الثورة على وليه المستبد . ووصيتى إلى الآباء الذين يضعون أبناءهم فى رعاية غيرهم ، ألا يكلوا أمر أبنائهم لمن هم أقوى منهم إلا بمقدار ، وألا يطلقوا لهم العنان فى تأديبهم بقسوة ، وألا يصغوا إلى وشاياتهم ليستديموا بذلك أمر قوامتهم .

ولست أدرى أكان من حسن الحظ أم من سوءه ، أن الله لم يرد أن يتم ذلك المنهاج الذى رسمه أبى لدراستى فى طلب العلم ، بغية حصولى على شهادة « العالمية » ، فتخبطت فى دراسات مختلفة ، وترددت على معاهد متباينة ، غير المعاهد الدينية ، منها دار العلوم وكلية الحقوق ، وسأسجل لكل منها حقه فى تكوين هذه الشخصية العجيبة إذا طال الأجل ، وشاء المولى القدير .

والحمد لله على توفيقه والشكر لكل من ساعد فى الإدلاء بأية معلومات ندّت عن دائرة علمى والله بكل شىء عليم ؟

ربيع الأول سنة ١٣٦٣ هـ
مارس سنة ١٩٤٥ م

محمد عبد الجواد

إلى الوراء = إلى الأمام

من لا خير فيه لماضيه ، فلا خير
فيـه لحـاضره ولا لمستقبله !

عجبا عجبا ! يقولون دائما إلى الأمام ، وأنت تقول إلى الوراء ! فما هذا التناقض ، بل ماهذا القلب والعكس ؟ ! والأعجب أن تعتقد أن الثـانية تعدل الأولى ! هل تريد أن السائر فى طريق هامة أو غير مألوفة ، أو فى طريق جديدة ، ينظر خلفه ، كما يرى أمامه ؟ هل تريد أن ينتفع بما رآه ، عندما يسير فى طريقه المقبلة ؟ لعلك ترى أن التاريخ الحديث لا يستغنى عن التاريخ القديم ، إذ « التاريخ يعيد نفسه » !

هذا الطفل أتم دراسته فى الـكُتّاب ، وهو يُعد نفسه أوهم يعدونه ، للسفر إلى طنطا عاصمة إقليمه . وللدراسة فى « الجامع الأحمدى » كى يتلقى صنفا آخر من التعليم ، إن اختلف عن سابقه فى شكله فهو حلقة من سلسلة متحدة فى موضوعها ! لا بد له من استعراض صور معهده الأول ، ليقيس عليها مستقبل دراسته فى المعهد الثانى ، فهو هو لم يتغير ؛ ولذلك يعتقد أن معهده الجديد لا بد أن يكون صورة مكبرة إن لم تـكن مساوية للمعهد القديم ، أى أن دراسته فى الجامع لا تزيد كثيرا على دراسته فى الـكُتّاب .

ولكن مالنا ولهذا التفكير الصبيانى ، أو هذا المنطق الخيالى؟ إنك تريد شيئا آخر يجدر التصريح به ! إن المفاضلة بين « القديم » و « الحديث » موضع نزاع بين « المجددين » و « المحافظين » الذين يدعون « الرجعيين » ؛ فلعلك تشير إلى مايزعمه قوم من أن معنى التجديد النظر إلى الأمام فقط ، ومعنى المحافظة على القديم التمسك به ، وفرضه على الجيل الحديث ! وهم ـ من أجل ذلك ـ يحقرون القديم ، وقد يحرمون النظر فيه والاشتغال به أو تسجيله ، معتقدين أن الذى أغناه الله من فقر ، لا يصح له أن يفكر يوما فى حاله الأولى ، بل يجب أن يشتغل بثروته الحديثة ، ولا يذكر قديمه وما كان فيه من بؤس ! وهم فى رأيهم هذا واهمون !

كأن قارئا ذكيا يقول : هذه مقالة بلا عنوان ، أو علوان بلا مقالة ، فلماذا أجهدت نفسك وأتعبتنا معك فى هذه الطريق الملتوية ، تحاول أن توضح عنوان المقالة ، فلا تزيده إلا إبهاما ، وتريد أن تفسره فلا تزيده إلا غموضا ، وتود أن تجعله يقينا فلا أخرج من المقالة إلا متشككا ؟! وإليك أيها القارىء مايدور بخلدى : إنما أبغى دفع اعتراض بعض القائلين : مالهذا الرجل يضيع وقته فى تسجيل صور قديمة قد تكون غير مشرفة ، ويكتب تاريخا ننظر اليه الآن نظر حديث الغنى إلى زمن فقره السابق ، ويؤثر بالتخليد هذه الحوادث البالية ، على صور الرقى

والتقدم الحاضر ؟ ! ماله يكرس وقته ، ويجهد فكره ، فى استعادة تاريخ عتيق بال ، وهو ليس من الطرافة بحيث يستلذه القارىء ، ولا هو من أنواع التسلية المحبوبة ؟ ! لماذا يعيدنا مرة إلى «الكُتّاب» و« الفقيه » وعصاه و « فلقته » ، ثم يعود فيستعرض «الجوامع» والدراسة القديمة فيها ، فيصف لنا معيشة البؤس التى كان يعانيها «المجاورون» فى أكلهم وشربهم ، ونومهم ودراستهم ، وفى غدوهم ورواحهم ؟ !

ولكن لا ! مهلا أيها المعترض ! للقديم علينا حق دونه حق الحديث ! فلست أريد من استعادة ذكرى القديم ، أن أوحى بالتمسك به ، أو أرفض الانتفاع بالحديث دونه ! بل إنى أسجل القديم لدراسته والانتفاع بما كان فيه من مزايا ، ولمجانبة مافيه من مآخذ ومثالب . حقا إن علينا أن ندرسه ، لنتخذ منه أسسا للتجديد ؛ فكل جديد لايقوم على أساس من دراسة القديم ، يكون كالصرح يبنى على غير أساس ، أو على أساس غير متين ! وليس فى استطاعة مخلوق أن يقرر أن القديم كله عيوب ، وأنه لايصلح إلا للنسيان !

ويكفينا للبرهنة على قيمة « القديم » أن نرى فى مصر طائفة ممن تخرجوا فى « المدرسة القديمة » قد علا شأنهم ، وطارصيتهم ، وهم رجال أشداء على الزمن ، مارسهم فمرسوه ، شقوا طريقهم

بين الصفوف ، ورفعوا أنفسهم فوق الهام ؛ وهيهات أن يمدنا « الحديث » أو « المدرسة الحديثة » بمثـــل هؤلاء الرجال القادة المحنــكين !

وإياك أن تظن أنى أحاول تفضيـل القديم على الحديث ، بل إنى أبرر ماأعمل من تسجيل شيء عنه ، وماتصرفه أنت من دراسته ؛ فالقديم وسيلة لاغاية ، والحديث مقصد ، لانهـاية وللوسائل أهمية قد تفوق ماللمقاصد والغايات .

وقول « طاغور » شاعر الهند « إن الماضى يحتوى الحاضر والحاضر يفسر الماضى » يوضح مانقصد إليه من هذا المقال . ونحن معه أيضا فى قوله « وقّـر الماضى ولا تعش فيه [١] »

---

(١) مجلة الرسالة عدد ٣٧٩ سنة ١٩٤٠

الجامع الأحمدى لا الأزهر الشريف

فى المنزل حركة غير عادية ، شملت ربىّ البيت ، والصغار والخدم ، فربة البيت (رحمها الله) مشغولة فى إعداد « طحين القمح » ، ولا يؤلف ذلك عند أهل الريف إلا لمناسبة الأفراح أو الأتراح ؛ وهذه الأسرة لم تعتد العناية بهما . فأيام الأفراح عندها دون الأيام العـادية ، مظهراً وشكلا واهتماماً ، وليس لديها — ولله الحمد — من الأتراح ما يدعوها لهذا الاستعداد . وكل ما هنالك أن السيدة « أم السعد » تجهز ابنها البكرى لغياب طويل الأمد ، ومعيشة بين رفقة من طلبة العلم كلهم غرباء عن أهليهم ، وتريد أن تزوده بزاد ممتاز من « الخبز الخاص » المتخذ من دقيق القمح الخالص ، لعل ذلك يعوضه فى تغذيته — إبان غربته وبعده عنها — ما سيفوته من رعايتها ، ومن مختلف أصناف الطعام التى كان يتغذى بها وهو فى حضانتها .

أما رب الدار (رحمه الله) فمنهمك فى المقابلات والمشاورات، فابنه هذا فى منتصف الثانية عشرة من عمره ، لم يعوده الغربة ، ولم يسمح له بارتياد القرى والكفور ، فى الموالد والأعياد ، كما يفعل أترابه ولداته ، ولا بد من أن يضعه فى الجامع تحت كنف طالب أكبر منه ، يرعى شئونه ، ويحول بينه وبين اللعب

الذى اعتاده فى « الـكُتّاب » وكان له فيه مع والده وقائع مسجلة فى مطاردته ، ويحمله على الجد والمذاكرة ، ويرشده إلى ما فيه مصلحته ، عملا بنتائج خبرة الوالد السابقة .

وهذا الشيخ أبو الفتوح (رحمه الله) جاء إلى المنزل ومعه والده وجماعة من قدامى الطلاب المتخلفين ، يرجون عمهم الشيخ « سيد احمد » فى تغيير رأيه فتكون رحلة الطلاب إلى « الجامع الأحمدى » لا إلى الأزهر الشريف ؛ لأنه كان يرى أن يكون طلبهم العلم فى الأزهر ، لسابق صلته به ، ولأن أفق العلم فيه أوسع ، وشيوخه — فى نظره — أجل وأعلم ، وفنونه أكثر وأطول ، وبعدهم عن البلد يساعد الطالب على عدم التردد إليه، ويجعل صلته بالعلم والعلماء أوثق ، وإجمالا يحمل الطالب على الاجتهاد فى درسه والالتفات إلى عمله . وكان « أبو الفتوح » قد سبق له الحضور فى الأزهر ، ورجع منه فى حادثة « ضرب الرصاص » فى ٧ يونيه سنة ١٨٩٦ حينما أراد رجال الشرطة المصريون بقيادة بعض الأوربيين أن يدخلوا الأزهر للتحقق من الاحتياطات الصحية ضد الطاعون،فاعتدى عليهم المجاورون. وهو من ذلك الحين مضطرب ، ويرى فوق ذلك أن « الجامع الأحمدى » أقرب مسافة ، وأقل كلفة ، ويستحسن أن يكون السفر إلى طنطا مدة ، نرحل بعدها إلى الأزهر الشريف لإتمام الدراسة هناك .

كل هذا والصبي لا يعرف من أمر الأزهر ولا من أمر الجامع الأحمدى شيئاً ، اللهم إلا مايدركه من أن « الكُتّاب » قد حفظ فيه القرآن ، وأن موضوع الدراسة المقبلة هو « المتون » التى سبق له حفظها فى السنة الأخيرة منه ، بعد متن « تحفة الأطفال » و « الجزرية » فى التجويد ، من مثل « الآجرومية » و « أبى شجاع » و « السنوسية » و « الجوهرة » وما إليها من المتون التى كان يسبق حفظها الذهاب إلى المعاهد الدينية فى ذلك الوقت .

ولم يعزب عنه ما كان يصغى إليه أحيانا من حديث الخادم ، أو الفلاح العامل فى الحقل ، أو المُزارع ، كما كانوا يسمونه . كان يصور له الشيخ فى الجامع كالفقيه فى الكُتّاب ، ويصف له ماشاء خياله أن يمده به من قسوته ، ويطنب فى وصف عصاه ، والشدة التى يعامل بها الطلبة الذين لا يحفظون ! كما كان يخبره بشىء عن اقتصاد المجاورين ومعيشتهم ، ويسدى إليه النصح بالمحافظة على نعله خاصة حتى لا يسرق منه فى الجامع . وكأن هذا المزارع كان يحس منه النفور من هذا المكان الجديد ، الذى يعود فيه للعصا و « الفلقة » ، مضافا إليهما « المقرعة » ، فيزين له مزايا « المجاوَرَة » من أكل « الطعمية » ، والحلوى « الطحينية » ، وغيرهما ، مما كان فى نظر الأطفال فاكهة لا يرونها إلا فى سوق « الخميس » أو فى الموالد والأعياد ، ومما لا يمكن الحصول عليها إلا بالنقود ، وقلما كانت

تقع فى أيدى الأطفال إلا فى يومى العيدين الصغير والكبير . أما وصفه للكعك و « القراقيش » وما يصنع مع « الزوّادة » فأمر يشجع هذا الطالب الصغير وأمثاله ، على أن يتمنى أن يكون « مجاورا » ليتمتع بتلك المزايا الفخمة .

على أن زيارته للكُتّاب أصبحت اختيارية ، وقد صار منه طليقا ، بعد أن كان يرى فيه سجنا أبديا ، وأصبح مركز الفقية منه مركز صداقة ، بعد أن كان عليه حاكما مستبدا . وهذه — فى نظره — ميزة أخرى ، كان يقدرها قدرها .

وما كان أشد فرحة هذا الطفل حينما علم أنه عند ما يكون مجاورا لا يمشى مطلقا حافيا عارى القدمين ، بل يكون منتعلا دائما ، وقد كاد يطير من الفرح حينما رأى أن جلبابا من صوف كشميرى قد أعدّ له ليسافر فيه !

وهكذا نظر الولد إلى هذه الرحلة نظرة مادية ، خففت عنه ما علق بذهنه من شبح الشيوخ ، الذين هم فقهاء مكبرون أو محرّفون . وهو على كل حال لم يكن له الخيار فى أن يرحل أو لا يرحل ، بل هو مُسَيَّر لا مخير ، إلا فى الأخيلة التى توحيها إليه أفكار من يحدثونه فى حياته المقبلة، حديثا مسيئا حينا وسارّا أحيانا ، فلا يفترض إلا أن تكون الحياة الثانية ، حياة الجامع

أو المجاورة ، أخف كثيرا من حياة الكُتاب، وهو لذلك مطمئن، وهو مستريح مسرور .

نترك الصبي يفرح بما أعد له من خبز خاص « مُلَدَّن » وما معه من فرنى (قراقيش) وغيرها ، ويبتهج بملابسه الجديدة ، ونعود إلى مجتمعات الوالد فى المفاضلة بين الأزهر والجامع الاحمدى ، فيتغلب الفريق الثانى على الوالد ، ويرى أن لا مانع من ذهاب « محمد » مع الشيخ « أبى الفتوح » وزميلين آخرين إلى طنطا مؤقتا . وهكذا أراد الله أن يرحل هؤلاء الطلاب الأربعة إلى الجامع الأحمدى ، وأن يمكث فيه هذا الطالب أحد عشر عاما هجريا دراسيا ، ينقل بعدها إلى الأزهر مرغما ليقضى فيه شهورا ، ثم يدخل « دار العلوم » نتيجة لأحداث هامة فى حياته ، ترى بعضها فيما بعد .

القسم الأول

أوليـــــات

سلخ هذا الطفل الريفى من عمره أحد عشر ربيعا لا يجاوز حدود قريته إلى بلد أو مدينة أو مصر ، فلا غرو أن تستوعب مشاهداته فى هذه الدنيا الجديدة كل مشاعره ، وتستولى على جميع حواسه ؛ سيركب القطار لأول مرة فى حياته ، ولم يكن يعرف منه إلا صور اللعب التى كان يحضرها روّاد الموالد لأطفالهم ، وسيهبط طنطا ولا عهد له بالشوارع التى تموج بالعالم موجا ، وسيدخل الجامع الأحمدى وهو أكبر من مسجد القرية بخمسين مرة على الأقل ، وسينام فى حجرة ليس فيها أبواه ، وسيحضر مجتمعات يكون فيها مثل لب البطيخة فى شطها وسيقطع طرقا لم يرها فى منامه . فكل شىء عنده جديد ، فى الطريق والقطار ، والشارع والجامع ، وفى المنزل الذى سيحل به وفى طريقه إلى القرية آخر العطلة ، وغير ذلك مما وقع تحت نظره ، وارتسم فى مخيلته ؛ لذلك يصفه بالدقة التى طبع عليها فى حافظته ، ولا ينسى أولياته مما رأى ، مهما تطاولت السنون وتباعدت الأيام .

إلى طنطا

أزف الرحيل ، وتم الاستعداد ، وأصبح الصباح ، فدُعى « محمد » إلى الاستحمام ولبس الملابس الجديدة ، وليس يذكر كيف أو بماذا أفطر ، إلا أنه ، جريا على عادة الريفيين ، لا بد أن كان الخبز « الفطير » أساس وجبة الصباح قبيل السفر ليحمل والده معه إلى طنطا عددا منه لأهل البيت الذى سينزلون به .

خرجوا إلى دنياه الجديدة ، التى تبتدىء من محطة بركة السبع وهى قرية يذكر أنه أتى إليها مرة ، مع رواحل فى انتظار جهاز قريبة له قادم من طنطا ، ولكنه لم ير المحطة ولا الطريق ، ولم يبصر القطار ولا تذكرة السفر . يالفرح هذا الطفل ! لقد امتطى القطار فى آخر عربة منه ، وأخذ يطل من باب العربة ، ليشاهد امتداد الشريط الحديدى خلفه وأثر الشتاء فوقه ، وظل كذلك نحو نصف الساعة ، حتى وصل القطار إلى طنطا قبيل الظهر بساعة ونصف الساعة . هبط مدينة طنطا وولى وجهه شطر الجامع مع والده ، فراعه شوارع مزدحمة ، وأخذ بلبه تلك الحوانيت المتراصة على جانبيها ، والسلع المتكدسة فيها ، والبضائع المرتبة أمامها ، أو المعلقة على مداخلها . وقد استرعى نظره

خاصة ، عجلات اليد وفوقها الفول الأخضر ، ينادى عليه الباعة بأصواتهم العالية ؛ ونداثهم المأثور « ياحراتى يافول ياماسى عسل وصابح ياحراتى » ، وهو غير النداء الذى ألفه من باعة القرية ، والفول ليس مما يباع فيها .

يذكر لك هذا بعد اثنتين أو ثلاث وأربعين سنة ، كما يستدعيك لتذكر أو تتذاكر معه وقت هذه الرحلة بالضبط أو بالتقريب . يرى أن الوقت كان شتاء لما رأى من بقايا المطر خلف القطار ، ولوجود الفول الأخضر فى ذلك الوقت . وإذا علمت أن ابتداء السنة الدراسية بالجامع كان فى شوال دائما ، وأن شوال سنة ١٣١٦ﻫ كان موافقا لشهر فبراير سنة ١٨٩٩م أدركت معه وقت هذه الرحلة فاحفظه .

وإذا قدر لك أن تزور طنطا الآن (سنة ١٩٤٢م) وتشاهد شوارعها الواسعة النظيفة المرصوفة ، ثم تشاهد الأبنية الفخمة على جوانبها ، والقصور الشاهقة فى ضواحيها ، وتمر بها ليلا (فيما عدا وقت الحرب) فترى المصابيح الكهربائية تتلألأ فى شوارعها والثريات فى ميادينها — تعجب حقا من قول المرحوم على مبارك باشا فى خططه ج ١٣ فى وصفها « عديمة الانتظام ، ضيقة الحارات ، غير محكمة البناء ، فكانت كثيرة العفونات والرطوبات ، لعدم تخلل الهواء والشمس ؛ ولذلك

كانت تكثر بها الأمراض والوخم ، بعد فراغ الموالد وفى أثنائها » ا هـ

ولكن لا عجب ! فنصف قرن يسمح ليد الإصلاح بتغيير المدينة وتحسين تخطيطها . نعم ، إنها كانت كما وصفها على مبارك باشا ، إذ لم يكن بها فى سنة ١٩٠٠ شارع مرصوف بالحجارة إلا شارع المديرية الممتد الى شارع « البورصة » ، وكانت الأوحال تتراكم فيها مدة طويلة غب المطر ، حتى قلت فى ذلك سنه ١٩٠٨

ماجت بحار الوحل فى طنطا إلى
أن فاقت المسك العبير الأذفرا

وأردت بوجه الشبه سواد اللون فقط .

أما شوارعها الواسعة فكانت لا تزيد على أصابع اليد ، كما كانت الأبنية الفخمة المعروفة معدودة ، مثل « سراية الرباط » ومدرسة « الفرير » ومدرسة الراهبات التى كانت تعرف « بالسبع بنات » على ترعة الجعفرية (فى الجزء الشمالى الذى تم ردمه الآن) ، عدا عدة بيوت أنيقة صغيرة ، كانت تشرف على الترعة أيضا قبيل قنطرة سمنود .

وقد تطورت الإضاءة فيها من مصابيح « البترول » الضئيلة النور الى مصابيح « البنزين » المحدودة الإضاءة ثم الى المصابيح الكهربائية المذبذبة ، فإلى هذه المصابيح الفخمة فى الشوارع الكبيرة الآن .

وقد عنى المجلس البلدى بتغيير الماء الذى تستقى منه المدينة ، فصار ماء نهريا عذبا ، بعد أن كان « معينا » ، وعمت الحنفيات العمومية أرجاء المدينة ، بعد أن كانت شوارعها وحاراتها غاصة بالسقائين الذين يجلبون الماء العكر من الترعة الجعفرية ، ويتردد فى أكثر الطرقات نداؤهم المعروف « يعوض الله ! »

وقد زالت الرطوبات والعفونات من حواريها وشوارعها ، لرصف كثير منها ، ولوجود مسارب « المجارى » فى أنحائها .

والفضل فيما اختط فيها من الشوارع الكثيرة الواسعة للمرحوم محمد محب باشا ، ومن تلاه من المديرين ، الذين أخذوا فى توسيع المدينة وإصلاح شوارعها ، وإنشاء المتنزهات والمبانى العامة فيها . وفى مدة المرحوم العزبى باشا تم تحويل مجرى الترعة الجعفرية ، وردم الجزء المنحنى منها .

فى الجامع

قطع طريقه مع والده من المحطة إلى الجامع ، وما أن وصلا إلى باب السكة الجديدة ، حتى كانت لهما وقفة هناك ، أو معركة حول دخول الجامع .

١ - هم الوالد بخلع نعليه ، ولكنه هو كان غير منتعل ، لأنه خلف نعله القديم أو « الصريمة » فى القرية ، وسيشترى له والده نعلا جديداً مناسباً من طنطا .

وكيف يدخل المسجد وقد قطع شارع السكة الجديدة مشياً على الأقدام حافياً غير منتعل ؟ وهذا البواب بمقرعته ، يقرع بها يده تارة وحائط المسجد أو كتف من أمامه أخرى ، ينبه الداخل والخارج إلى سرعة الانتعال أو خلع النعلين ، وهو يفتش عن الداخلين ليمنع الحفاة من أن تطأ أقدامهم أرض الجامع الطاهرة! نبه البواب الوالد بعبارة مؤدبة « اف من باب الميضأة » فأجابه « رجلاه نظيفتان » فقال «أين مداسه ؟ هو حاف ». وبعد نقاش هادىء عدل الوالد عن تمسكه بأن يدخل من هذا الباب مع ابنه الحافى بدون غسل رجليه ؛ وكان له مع هذا الابن درس خلق واجتماعى فى الاعتراف بخطئه وأنه ما كان ينبغى له وهو فى أول

الطريق أن يستعمل التلفيق ، أو يحاول الخروج عن الصراط السوى فى حياة ابنه الجديدة ، فى طلب العلم ، فيخدع البواب بدخوله معه حافيا بدون حق !

٢ — سرنا غير قليل حول الجامع ، حتى وصلنا إلى باب الميضأة ، وهناك غسلت رجلى ودخلنا المسجد، قاصدين إلى المكان المختار لنا فيه ، عند العمود ، أو الاسطوانة الثانية أمام باب «سيدى عبد المتعال » حيث قضيت عشرة أعوام . كان هذا المكان طيلة هذه السنوات العشر معروفا ، يقصد الينا فيه من أراد أن يستدل على « أولاد كفر هوزرين». كان خلفنا تحت الدكة « أولاد مليج »وتحت شباك «سيدى عبد العال» يجلس (المرحوم) الشيخ « أحمد عجور » ومن حوله من القراء ، وكان مقرئا مشهوراً ، خلف والده الشيخ يوسف وكيل المقرأة ، وعن يميننا عمود المرحوم الشيخ قطب التلاوى وبجواره « أولاد تلا »وعن يسارنا بعض طلبة المنوفية ، وفى جهتهم كانت تجلس سيدة لا نعرف منها إلا صوتها ، تسمع القرآن بالقراءات السبع ، وكانت « تعيد المذهب » على الشيخ محمد الفقى وتطالع دروسها مع بعض كبار طلبة الشيخ من أهل المنوفية ، رحم الله الأموات منهم وبارك فى الأحياء !

٣ — وصل هذا الطالب إلى مقره ، فرأى من الطلاب

جماعات متناثرة يلتف بعضها حول بعض أحيانا، ثم أخذ يتفرس الوجوه وينظر بين القاعدين، علّه يجد وجهاً كوجه « الفقيه » فى الـكُتّاب ، أو يجد العصا و « الفلقة » ، ويذكر ماتوعده به « المزارع » فلا يجد من ذلك شيئاً ، وقد كاد يعتقد أن كل ماقاله هذا الرجل فى تصوير الجامع لم يكن إلا تهويلا ومبالغة ، لولا مارآه من المقارع بأيدى الخدم ، على الأبواب وفى الميضأة وبجانب المزارات وخارجها . هذه المقارع قطع « الجريد » الغليظة تشق مرة أو مرتين ، لتصوت إذا قرعت، ولذلك سميت الواحدة « مقرعة » ، وهى من فصيلة الجريد الذى كان يتخذه الفقيه أداة للتعذيب فى الـكتاب .

وقد رأى كل من بالجامع يحمل كتباً غير المصحف ، وفى يده كراسات أو « ملازم » أو أوراق من هذه الـكتب ، ولم يلبث أن وجد بأيدى إخوانه الذين معه أوراقا من هذا النوع أخذوا يقرءون فيها ، وقد جلسوا فى حلقة ، والشيخ ابو الفتوح يلفظ كلاما كأنه تعليق على ما يقرءون ، وإنه ليحلف بالله ـ وهو لم يعتد القسم ـ أنه لم يعرف ولم يذكر أية جملة مما قاله هذا الأستاذ الصغير ، وكل مايتصوره الآن أن كان المتكلم يتبع هذه الجمل من التعليق بنقرأ وضرب بيده اليمنى على اليسرى كأنما يوقع لحناً أو نغماً خاصاً وقد دهش لما لحظ أن هذه الحركات عامة عند كثير من الشيوخ فى تدريسهم .

هذا ولا يزال يرن فى أذنيه ذلك الصوت الذى كان يدوّى فى الجامع كطنين النحل ، فلا يميز صوتا من آخر ، ويستمر كذلك مادام الجامع ممتلئا بالطلبة ، إلا إذا جاء « الميقاتى » فى ابتداء أوقات الصلوات الخمس ، فوقف إلى جانب الصحن ورفع رأسه متجها إلى المؤذن الجالس على المئذنة ، ونادى بنغمة خاصة وصوت مستطيل « الصـــلاة ! » فعند ذلك فقط يسكت هذا الطنين المتواصل لحظة قصيرة ثم يعود .

٤ — أصبحنا بالجامع فى حلقة قوامها تسعة طلاب أو أكثر أمام شيخ يدعى « ابرهيم بصار » رحمه الله ، ولست أنسى ، بل إنى لا أزال أحفظ منه قوله « قال أصلها قوَل ، تحركت الواو وانفتح ما قبلها قلبت ألفا فصار قال » كان يرددها بنغماته الخاصة عندما بدأ يقرأ شرح ابن قاسم الغزى المبدوء بقوله : قال الشيخ الإمام العالم العلامة الخ .

كان هذا أول درس حضرته ، فكنت أعجب كيف ألقى الله فى روع الشيخ هذا الكلام ، ومن أين أتى به ، وكيف كان حريصا على تكراره والتسآل فيه ؟ ! فكان يقول سائلا : قال أصلها إيه ؟ — قوَل . جرى إيه ؟ — تحركت الواو وانفتح ما قبلها . فجرى لها إيه ؟ — قلبت ألفا . فصارت إيه ؟ — قال . وعندئذ أدركت أن مهمتنا فى الجامع — تقريبا — أن نقرأ فى الكتاب ،

ونقول كلاما من « علم الغيب » مثل هؤلاء الناس ! ولكنى علمت بعدئذ أن ما قاله الشيخ ليس من عنده ، وإنما هو نقل عن حاشية البرماوى على الشرح المذكور .

٥ — لحظت بعد عصر اليوم بالجامع استعدادا غير مألوف تحت الجزء القبلى من الدكة ، حيث فرشت البسط الفخمة ، ونصبت الماثلات (الشمعدانات) الضخمة ، وعلقت ثريات (نجف) متلألئة ، وأبعد الطلبة عن هذا المكان . لماذا كل هذا ؟ إن المشيخة تحتفل ابتهاجا بميلاد حضرة صاحب السمو الأمير محمد عبد المنعم ولى عهد الديار المصرية إذ ذاك .

وللمشيخة عادة بإقامة حفلات كثيرة فى هذا المكان ، لمناسبات شتى ، واحتفالا بليال وأيام إسلامية مقدسة ، كالمعراج والمولد النبوى وغيرهما على النحو الآتى : إذا صليت العشاء ، توافد العلماء والوجوه والأعيان والحكام والجمهور ، وتزاحم الطلبة حول هذا المكان ، وأخذ الشيخ « صالح » والمشدون يزجرونهم ليفسحوا الطريق للقادمين ، وارتفعت الأصوات من كل جانب ، وعلت الضوضاء حول الجالسين ، فلا يقطعها إلا جلوس أحد كبار العلماء على رأس الحلقة الملتئمة ، كأنه يلقى درسا ، ثم يقرأ القصة الشريفة ، قصة المولد النبوى . وكان مثل هذا الاحتفال مقصورا على الليالى الأربع الأخيرة من ليالى ١٢ من ربيع الأول ،

ولكن المغفور له الشيخ « ابراهيم الظواهرى » شيخ الجامع جعل الاحتفال بإحياء جميع هذه الليالى من أول الشهر .

أما فى ليالى عاشوراء ، والمعراج ، والنصف من شعبان ، وليلة القدر ، فيحتفل بقراءة فضائل تلك الليلة على النحو السابق.

وقد أضاف لمثل هذه الحفلات ، المرحوم الشيخ « ابراهيم الظواهرى » شيخ الجامع ، إحياء ليلة تتلى فيها مناقب السيد البدوى رضى الله عنه فى آخر كل سنة هجرية .

وقد كانت تقام مثل هذه الحفلات الدينية فى مساجد أخرى ، مثل مسجد سيدى « عز الرجال » وزاوية الشيخ « القصبى » . وكان يحضر فى الأخيرة المرحوم السيد حسين القصبى . وتمتاز حفلاتها بالمظاهر الارستقراطية ، وبقلة العدد ، وبالهدوء والاحترام ؛ ولذلك كنا نفضلها ، وقلما يفوتنا منها شرابها اللذيذ ، وأصناف الحلوى التى لم تكن تتمتع بها انظارنا ، بله حلوقنا .

في البيت

١ — قد شهدنا بالجامع مناظر عدة ، وسواء أطال النهار أم قصر ، فلنعد إلى البيت لنقابل أهله ، وليساومهم والدى فى أجره ، وليشرف على مضجعى هناك ، وليرتب لى أمورى قبل أن يعود إلى القرية .

يحيط بمدينة طنطا أو يدخل فى تكوينها بضع ضواح تدعى بالكفرات : منها غربا كفرة ستوتة وكفرة السجن وكفرة أبى النجا ، وفى شمالها كفرة اسكاروس وكفرة على أغا ، أما كفرة القرشى ، وفيها منزلنا ، فتمتد فى شرقها خلف سكة حديد دمياط ، من قنطرة سمنود (أو البدراوى) شمالا إلى ما يقرب من كفرة الجاز وكفرة الخادم جنوبا . وترى بيتنا ثانى منزل على يمين الداخل إلى الحارة الثانية من ناحية الكفرة البحرية ، وكانت تعرف بحـــارة « أبى شليب » . وبين البيت والجامع نحو ميل ، يقطعه الذاهب الى الجامع والآيب منه كل يوم .

قابلنا صاحب المنزل الشيخ أحمد صالح العليمى (رحمه الله) ، وكان شيخا لمقام سيدى عبد المتعال وتقاعد ، فحيانا تحية الكرام ، ورحب بنا أيما ترحيب ، وقد حاول والدى أن يقدم

له خمسة قروش ، فردها بإباء وشمم ، وأتبع الرد ببضع نكات ظريفة ، وكان رجلا فكها ، وكاد يعتبر تقديم هذا المبلغ إليه إهانة له ، خشية أن تكون أجرا المنزل فى الشهر ، كما دار بخلد والدى ، واستنكر أن يأخذ أجرا لمنزله ، لقرابة له كانت فى قريتنا ، فاكتفى والدى بأن يرسل له من القمح والذرة وغيرهما من الغلات ، ما اعتاد أن يرسله إليه أغنياء القرية فى مواسم الحصاد على « عادة » الريفيين .

لنترك قاعة رب البيت ولنذهب إلى قاعتنا ، لتناول العشاء ، وليتحدث والدى مع الشيخ أبى الفتوح فى الكتب والمصروفات وغيرهما .

كان والدى قد أعطانى نصف القرش ، فكلفنى شراء كراث للعشاء ، فاشتريت منه بفلس (مليم) وبقى معى أربعة ، وبعد تناول العشاء نمنا ثم أصبحنا ، سألنى والدى عن نصف القرش الذى أعطانيه ، فأخبرته أنى اشتريت منه كراثا بفلس ، وحاولت إخراج الباقى من جيبى فلم أجده ، وهنا أعلن والدى أن هذا كان اختبارا لى أظهرت به عدم الصلاحية لحمل النقود ، ولا لتولى شئونى المالية ، ولم ينفعنى اعتذارى آخر النهار بأن باقى نصف القرش لم يضع منه شىء ، لأنى وجدته فى السفرة (القوطة) فى فتات الخبز ! وكانت تجربة قاسية ، واختبارا غير منظور ، ففقدت بسببهما الثقة فى المقدرة على حمل النقود ، والاستقلال بشئونى

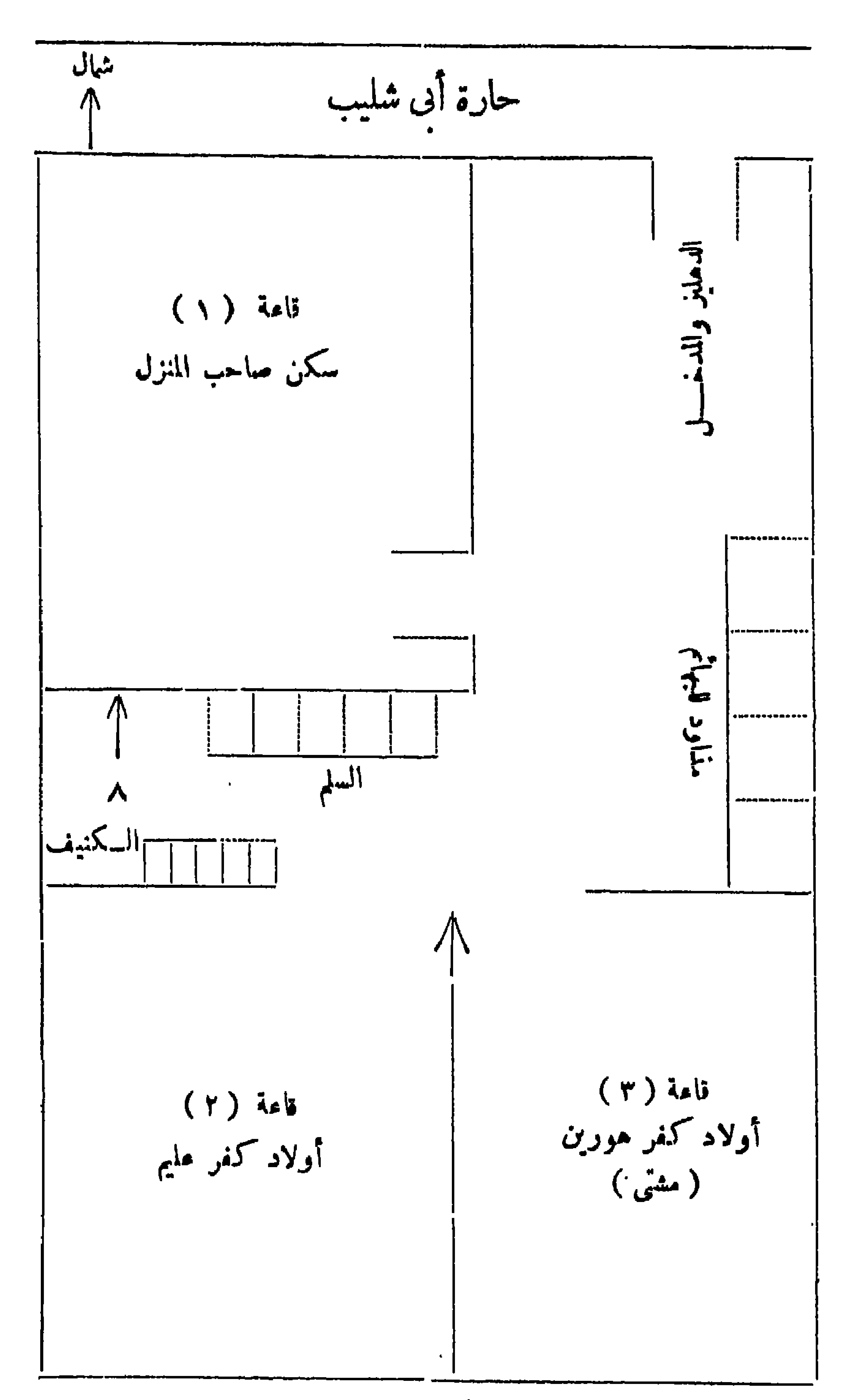
المالية ؛ وصرت تابعا فيها فوق تبعيتى الأدبية لقائدى ومقودى .
ولعلك الآن فى شوق إلى وصف المنزل وطريقة معيشتنا فيه فيما بعد

٢ — يتكون المنزل من طبقين ، الأول فيه ثلاث قاعات ومدخل وسلم ، وأخدود مسور تحت السلم يكون كنيفاً ؛ أما الطبق الثانى ففيه أربع غرف أو أربعة « مقاعد » والمقعد الغرفة العليا فى عرف الريفيين ومن إليهم مثل سكان هذه الضاحية . وكان صاحب المنزل يشتو فى إحدى القاعات ويصيف فى أحد المقاعد ، وكذلك كنا نعمل ، وكانت « سحارات » الخبز أوأصونة المتاع تتبادل معنا المسكن ، فتنزل صيفاً وتصعد شتاء .

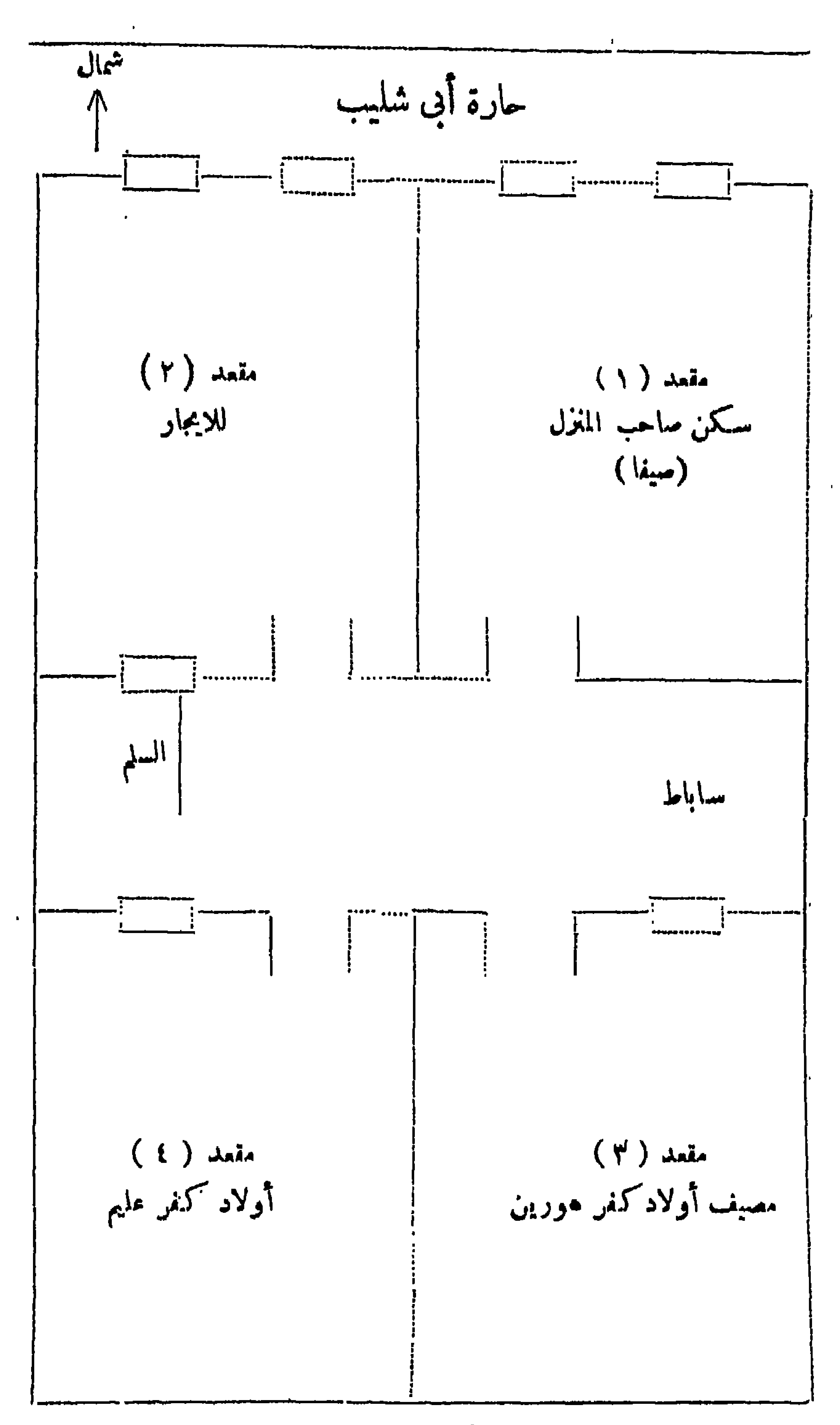
واذكر أنه فى خلال السنوات العشر التى قضيتها فى هذا المنزل بلغ عدد « أولاد كفر هورين » فى حجرتهم ثلاثة عشر طالبا ، ينامون فيها صفين متلاصقين « كالسردين »

أما الفرش فكان حصيراً من « الشريخ » ، علاه فى الفترة الأخيرة من حياتنا هناك فروة أو « سجادة » أعجمية كانت من مخلفات الأسرة عندنا ، من بقايا ماأحضره والدى رحمه الله معه من الحجاز . وكان لكل طالب غطاؤه ، ويختلف بين « بطانية » و « لحاف » أو « حمل » من الصوف .

وفى كل ركن من الأركان الثلاثة للغرفة ، كان يشد حبل إلى



الطابق الأول من المنزل



الطابق الثانى من المنزل

مسمارين أو وتدين فى الحائط ، ويعرف «بالسيارة» ، تعلق عليه الملابس ، ملابس النوم نهاراً أو ملابس الخروج ليلا . أما مافضل من الملابس النظيفة فكان يودع الصوان أو « السحارة » وهى صندوق خشبى من صناديق البضائع كان يشترى بنحو ربع ريال ، ويعمل له باب وقفل ورف ، ليحجز بين الطعام واللباس والكتب ، وسائر المتاع الخفيف . ولم يتجاوز مصباحنا رقم ٥ ، كما كنا نستقى فى قلة كبيرة أو إبريق من الفخار ، نملؤه من جرة أو زير أهل المنزل .

وقد كان الطلبة يتناوبون تنظيف مسكنهم بالرش والكنس والتموين بالماء ، كما يتناوبون العمل فى شراء الطعام الذى يأتدمون به من خارج المنزل ، وفى قضاء بعض مصالح أهله . ولست أنسى ليالى كنا نعود إلى المقعد فى الربيع أو الصيف فنخلع نعالنا أمامه ونكشف عن ساقينا ونمر فيه مثنى وثلاث ، لنصيد البراغيث التى تتسلق سيقاننا كالجوارب فنفركها خارجه . أما نظافة المنزل عامة فنحن مسئولون عن العبث بها ، ومضطرون أحيانا إلى الخروج منه نحو « الجنابية » المجاورة لقضاء الحاجة فيها قبل النوم وفى الصباح إن تيسر ذلك .

٣ — أما صلة الطلاب بأهل المنزل فقد كانت صلة عائلية لبعضهم ، كما كانت تبنى على الحذر لبعض آخر ؛ ولم يكن يخفى

عليهم مايشوب سلوك بعض المجاورين ، فيعلنون ذلك لمن لهم الرقابه عليهم من كبار الطلاب . وقد لحظت فيمن كان معنا ، أن من حدثته نفسه بسلوك الطريق المعوجة ، كان عيشه ينقطع وتنبتّ صلته بالعلم وأهله .

ومع أن المجاورين أهل علم ، كان الفساد منتشراً بينهم ، لبعد بعضهم عن العمل بأحكام الشريعة التى كانوا يفنون أعمارهم فى دراستها .

وإنى أحمد الله على أن كنت موضع ثقة وأمانة من أهل منزلنا ، كما كان يثق بى الزائرون والزائرات من أهل القرية عند مبيتهم معنا ؛ وكان لسنى الصغيرة ، ونشأتى المحروسة ، وشدة الاستئمان ، أثر فى مثل هذا السلوك .

ولا يفوتنى أن أجعل مسك ختام هذا الموضوع كلمة ثناء وخير ، أخص بها آل هذا المنزل الصالحين ، من والدهم الكبير المرحوم الشيخ احمد إلى ابنه الوحيد الشيخ محمد واختيه العزيزتين زينب وفاطمة ، فقد عطفوا علىّ عطف الوالدين والأخوة ، وبسطوا علىّ جناح الرعاية والاكرام ، فاذا ذكرت فى الكتّاب امى فاطمة وامى السيدة فلن أنسى هذه الاسرة الكريمة ، فأحمل النسيم كل يوم تحياتى القلبية للاحياء منهم ، واستمطر الله شآبيب الرحمة والرضوان على قبور من سبقونا إلى ساحة الخلد .

إجازة

بدأ شهر ذى القعدة ينسلخ (ابريل سنة ١٨٩٩ م) وتناقل الطلبة أحاديث عيد الأضحى ، وأخذت الدروس يقل عدد طلابها وانفضت الحلقات حلقة بعد حلقة ، وكان بعض الشيوخ يجلس إلى عموده ولكن بدون دراسة ، بل يقطع وقته فى الحديث بدل الدرس ، حرصاً على جمهرة الطلبة الذين سافروا إلى بلادهم . وفى ذات يوم توجهنا للمنزل ، فأمرت بحزم متاعى وصرّ ملابسى وإذا بنا على ظهور الأتان ، فى طريقنا إلى البلد .

منذ شهر أو أكثر جلس الطالبان الكبيران معنا ، واخذ أحدهم يذرف الدمع ، والآخر يتمتم بكلمات ، علمت فيما بعد أنها حنين إلى الوطن ، وبكاء من الفراق ، فراق الوالدين ، وشكوى ألم الغربة ! لم أتمتع أنا بمثل هذا الشعور ، لأنهما ربما كانا ينعمان فى القرية بين والديهما وإخوتهما ، أما أنا فلا أدرك من الغربة والفراق ، إلا أنهما راحة من الكتّاب ، ومن تكاليف أوقات الفراغ فى المنزل والحقل ، بين ريّ وحشّ ، وحراسة للنحل ، وسقى للبهائم ، وحمل الصينية على رأسى للدوار ، وغير ذلك .

ولكن هل كنت أنا أقل المسافرين فرحا بهذه الرحلة ؟ !

لا ! لقد استغرقت السفرة أفكارى فى الطريق ومشاهداته ،

والقرى التى أمر بهـا ، وحفظ أسمائها الغريبة من سبرباى إلى شبرا قاص وشبرابيل ، والجعفرية ، ولو كنت اشتغلت باللغـة فى ذلك الوقت لكان لى نصيب من تحليل هذه الأسماء ومعرفة المصرى منها والعربى ، وغيرذلك ؛ ولم تع ذاكرتى إلى الآن من هذه السفرة ، إلا جزءاً من الطريق الزراعى قطعنا منه بريدا[1]، وأشرفنا على قرية « الجعفرية » قبيل غروب الشمس وترجلت عن أتانى ، أعبث بنبـات الفول « المـكسور » أى المحصود ، والذى تناثر فى الطريق ، من على ظهور الجمال عند نقله من الحقل إلى الجرين أو الجرُن . عجبا !! فول أخضر فى أول نظرة حين حللت بطنطا ، وفول يحصد فى آخر أول « عمالة » قضيتها فى الجامع !! لعل ذلك فأل حسن على طول العمر إلى أن ينال الإنسان علما ، ويحصل على ثمرة من جهاده أى ثمرة ؛ فبعض عيدان الفول يحمل ثمرة جيدة وبعضها قليل الثمر ، وآخر خال إلا من حبة أو ثنتين ، على حين يحمل المثمر جيداً أكثر من مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله فتاح عليم .

وصلت الدار بعد غربة شهرين ، لم أر فيهما وجه أمى ، ولا أقول وجه أبى ، لأن الأم كانت مصدر الحنان ، والأب مصدر

---

(١) من محفوظات المجاورة :

إن البريد من الفراسخ أربع والفرسخ فثلاث أميال ضعوا
والميل ألف أى من الباعات قل والباع أربع أذرع فتتبعوا

الحساب والمسئولية . كانت ، رحمها الله ، مشغولة بإعداد العشاء ، ورائحته ، عند المجاور ، تؤثر فى خياشيمه ، التى لم تتمتع بمثل هذه الرائحة عن قرب إلا فى الشوارع ، حين يمر بمطعم ، وشتان بين الرائحتين !! رائحة الطبيخ التجارى ، والطبيخ البيتى القروى ، المحلى بالدجاج واللحم و « التقلية » والمدسوس فى الفرن بعد خبز العيش الطرى !!

لندع هذه اللذة ، ولأتقدم بحقيبة الكتب (أو الخرج) أمام والدى ، فأجلس منه جلسة أيام « الكتاب » ، ولكنى لا أنتظر منه اليوم ضربا ، فإنى مجاور ، ولن يسألنى فى سماع متن ، أو حفظ ربع أو جزء !! إن الامتحان اليوم فى مقدار ما أخذنا من ابن قاسم والكفراوى ، وبعض أسئلة فى اعراب كلمات أو جمل ، أو بعض أحكام فقهية ، لم تكن من الصعوبة بمكان ! وهكذا كانت مقابلة والدى بعد وصولى إلى البلد فى المسامحات إلى ثلاث سنوات ، انقطع الامتحان بعدها ، اعترافا منه لوالدتى بأنى صرت أعلم منه !!

حمارتنا

يقول القارىء ما لهذا الطويلب يسوق إلينا حديث حمارتهم ، وماذا يريد أن يدلى به إلينا ، عن هذا الحيوان ؟ !

ولكن لا تعجل ! فهو يرى فى حمارته خير نموذج للتحمل والصبر والمثابرة . ألا تدرى أن الخليفة مروان كان يلقب بالحمار ؟ ! لهذا يرجوك فى الاستماع للحديث الذى علونه بالحمارة ولكنه يشمل سفره ونفقته ، ويصف فيه عملية خروجه من المنزل إلى طنطا ، هذه العملية التى كانت تتكرر فى السنة مرات .



لا تحسبن السفر الى طنطا كل مرة سيكون بالقطار كما

وصف لك فى أول رحلته ، فالعادة تفقد كل جديد جدته ، وكل لذيذ لذته ، والمثل العامى يقول : «لكل غربال جديد شدة»

دارت الآيام وكثر السفر ذهابا وجيئة ، وكما يقولون : « طال حبل العبادة » وكثرت المطالب ، وهرب المطلوب من الطالب ، واستقل بعيشته ونفقته ذلك الطالب ، فعليه أن يرتب أموره ، ويحزم متاعه ، ويمتطى مطيته ، ويبحث عمن يرافقه ، ليساعده فى الطريق ويرجع بالحمارة . فالسفر فى السكة الحديدية يستدعى أجرة القطار ،والحاجة اليها فى الإنفاق ملحة ، ويتطلب مطية الى المحطة ، والمطية التى تحمله ومتاعه ٤ أميال لا يبعد عليها أن تحمله أربعة أمثال هذه المسافة .

حزم المتاع ، وحاولت استعارة أتان فلان ، وهى أسوأ حالا من حمارتنا ، فاعتذر بمرض أتانه واضطررت لامتطاء حمارتنا ، وهممت بسرجها ووضع المتاع عليها ، من حقيبة الزاد وخرج الملابس والكتب ، ولحاف ومخدة ، وعباءة صوفية ، أرتديها نهارا ، وأزيد بها غطائى ليلا ، وقد أفترشها فى الجامع، إذا اشتدت رطوبة البلاط عن برودة الجو .

أين أنى ؟ أريد نفقه أو مصروفا ! أريد أجرة « المركب » أو « المعدية » أو المعبر ،عندالجعفرية ، فى طريقنا إلى طنطا هناك بحر شبين ، وعلىّ أن أعبره لقاء نصف قرش ! أريد مصروفى

طول « العمالة » وقد تربو على أشهر . جاء والدى ، فاستنكر عدم سفرى ، وتجاهل سبب عطلتى عن السفر . فيحتشد جمع من آل البيت والأقارب والأصدقاء المودعين، وتعقد الجلسة، ثم تتمخض عن ربع ريال أو خمسة قروش يدفعها أحد الحاضرين ، أو أضطر إلى أخذها من عمى « على الإمام » من ثمن الخبازى التى يزرعها شركة مناصفة بينه وبين أبى . بقى البحث عمن يحضر الحمارة لقد أجده ، وقد أعتمد على شخص صحب غيرى من المجاورين ، ليعود بها إلى البلد .

ها نحن أولاء أمام « وحسة» المعبر ، وعلى حمارتى أن تطفر أو تطمر من وإلى المركب ، وويل لى إذا لم تستطع ذلك ، لارتفاع النيل أو انخفاضه ! فكيف أحمل عنها المتاع وحدى ، وأضعه فى المعداة ، وبعد العبور ، كيف أعيده عليها ، فى الشط الآخر من هذا البحر ؟! وهنا قد ييأس عمى « بخيت المراكبى » وقد ازدحمت مركبه فيتركنى مرة أو مرتين يعبر فيها هذا الجدول ، لأن اليوم سوق فى البلد أو فى غيرها ، حتى يقيض الله من ينقذنى من هذا الموقف ، على معرفة أو غير معرفة . توسط المعبر اللجة ، وجاء عمى « بخيت » يطلب الأجرة ! ليس معى غير ربع الريال صحيحاً ، فاذا وصل إلى يده ، ادعى أن ليس معه بقيته ، أو يحجز أكثر من نصف القرش ! ولكنى قد اتخذت الاحتياط فحصلت على نصف قرش من النيكل

أدفعه إليه أجراً ، فقد يضعه فى جيبه ، وقد يقف ليذكر أنه محتاج إلى أجرتى وأجرة حمارتى وأجرة زوادتى !

تنتهى هذه المشكلة ، ونعبر هذا الجدول ، ونسرع إلى الطريق الزراعية . ويلاه ؟ بطء فى المنزل ، قبل إعداد المتاع ! وبطء أمام المعبر ! وبطء فى المعبر نفسه ، وبطء بعد العبور ! فالشمس قد علت ، وأخذت حرارة أشعتها تحرك حتى الهواء ، ولكنها لم تستطع أن تؤثر فى حمارتى ! حاه ! حـــاه ! حـــاه ! كل هذا زجر للحمارة ، ولكن فى غير مزدجر ! عصاى تنزل على رقبتها ، وقد أستدير فألهبها بها على ردافها ، ولكنها عصا ضعيفة قدت من عود قطن أو جريدة نخل قديمة ، فأعياها الضرب وتكسرت ، كما أعيتنى حركة اليدين والرجلين ! وألتفت حولى علنى أجد معينا أو عصا غليظة جامدة ، فلا أجد غير دموع تسعفنى ، وأصوات بكاء لا يسمعها أحد ، لأن المكان قد خلا حتى من الزراع الذين انصرفوا إلى الظل ! وبهذه السرعة أو هذا البطء أقطع المسافة بين البلد وطنطا فى ست أو سبع ساعات ، على حين يقطعها غيرى فى أقل من أربع !

وأيا كان ما قاسيت من حمارتنا الصابرة ، فقد شاطرتها دروس التحمل والصبر ، والتأنى والمثابرة ، فقد ثابرتُ وصبرت وأخيراً وصلت ، ولا بد من طنطا وإن طال السفر !

هـــــرب

استيقظنا صبيحة يوم ، وإذا بفراشى ، أثر بلل لا قبل لى بدفعه ! فأخذ سائر الطلاب ينهروننى على غير عادة ، ورأيت منهم روح التذمر والتعصب ، وقد كان الاضطهاد باديا فى أقوالهم وأفعالهم ، جامعا بين صغيرهم وكبيرهم ، لم يفرق بين عدوهم وصديقهم ! ليست هذه عادتهم ! ولكنها حملة لم تكن فى شدتها على قدر ما اعتبروه جريرة أو ذنبا ! لقد أجرمت كثيرا ، وأخطأت كثيرا ، ولامونى كثيرا ، ولكن كان اللوم خفيفا ، ولم يتعد « القيم » على ، فأرى روح الشر فى تعنيفهم ، وأكثر من اللوم فى تنديدهم ! فماذا أفعل ! إنهم أعلنوا على الحرب ، وواجهونى بالعداء واتحدوا على التنكيل بى ، وظنوا أن هذه الغلطة خير سبب يتذرعون به إلى إهانتى وإذلالى ، وإن كانت الإهانات قد تكررت من قبل سرا ، وظنوا أن ليس فى استطاعتى أن أبوح بما كان منى ومنهم ! !

ضاقت بى الدنيا على سعتها ، ففررت منهم لما خفتهم ، حتى إذا انصرفوا إلى الدرس ، دونى ، وحضرت الدرس الأول ، شارد الذهن ، عدت إلى المنزل ، على غير عادة ، ووضعت

الطنجير والملابس القذرة فى «خُرْج» جاءنى بالأمس مملوءاً خيراً، ثم وضعته على كتفى وأسلمت رجلىّ للطريق الزراعية إلى البلد ! ما هذا ؟ ! أجائع أنا حتى أهرب من طنطا إلى البلد ؟ ! أليس «الخرج» وما فيه دليلا على أن «الأرز والدجاج» لا يزال فى معدتى ؟ ! وكيف أختلق الأسباب لهذا الهرب ؟ ! لقد حار الغضبُ فى نفسى الأدلة علىّ ، حجّـة لى ! فلا أقل من أن يعتقد الوالد أن الذى ألجأنى إلى هذا الهرب أو هذا «الـكُفر» شىء عظيم ! ثم يعطينى العذر ، ويرسلنى ثانيا بعد التحقيق فى هذه القضية !

سرت لا على بركة الله ، بل فى حيرة وتردد ، وكان الفصل شتاء ، ونبهنى رذاذ المطر فى أول الطريق إلى العودة ، أو استئناف التفكير فى الأمر ، ولـكن لم يزدنى هطوله إلا إمعانا فى الهرب ، وإسراعاً فى المسير ؛ وهى عادتى فى التمادى إذا اشتدت المعارضة ، لأنى اعتدت أن أجعل المعارضة تشحذ من إرادتى ، خروجا على القولة المأثورة ، «الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل» ؛ ومع احترامى لهذا الأثر وصاحبه ، فإنى أفضل تربيـة الإرادة بالتمـادى — إلى حدّ مّـا — على التردد ، بالرجوع إلى ما قد لا يكون حقا ! !

كان علىّ أن أقطع ، سائراً على قدمى ، فى هذا الوابل المنهمر ، ستة عشر ميلا ؛ فلم يكد الطريق ينتصف حتى كانت الأرض

زلقة ، كأنما غطيت بالصابون ! فلا يضع الإنسان رجله فتثبت في مكانها ، مهما قدّر لها موضعها قبل الخطو .

ولقد تلاقيت في منتصف الطريق وعروسا ريفية ، حملها أهلوها في هودج على جمل ، وتبعها بعض الفلاحين رجالا وركبانا . لم يرحم المطر والريح هودج العروس حتى عبثا به وأطبقاه عليها ، ولم يرحم الجمل الذي حمل الهودج ، حين كانت أرجله تنفرج انفراجا اضطراريا ، ولم يرحم الأتن وراكبيها ، ولم يعد للرحمة في نزوله وهطوله أثر في ملابسي و « خُرجي » وما احتوى من حذاء خلعته ، وملابس أودعته إياه . ألهتني هذه العروس وأهلها ، وعبث المطر بهم ، عن التفكير في باقي الطريق ، وفيما بعد الطريق من ملاقاة والدي — وقتا مّا استغرق ربع الطريق ؛ وقد سررت للقاء هذه القافلة والاستئناس بها ، حتى فاجأتني باتجاه آخر ليس من طريقي ، فتصببت في هذا الشتاء عرقا ، جاء على بقية شعاري الذي لم يصله ماء المطر ، فصرت غريقا في ثيابي المبللة ، شعارا ودثارا .

وصلت إلى البلد قبيل العصر ، وكان الجو قد انقشع سحابه ، وتسللت إلى الدار أسترق الخطا .

قابلتني الوالدة رحمها الله مقابلة الأم ، فأسرعت الى تغيير ملابسي ، وبادرت بتقديم طاس من البيض المقلي غداء لي !

أخذت ألتهم طعامى راجيا ألا يقطع أبى علىّ هذه الأكلة ، وقد أجاب الله دعائى ! احتبس المطرُ والدى فى كوخ كان يجلس فيه بعض أعيان القرية ، ولم يزحزحه عن مجلسه الا سقوط الخبر فى أذنه ، فأسرع الى البيت يستطلع الخبر ! حالت الأم بينى وبينه ، قاصة كل ما حكيت لها ،وقد تعودوا منى أو عودونى عدم الكذب ، معتذرة فى غير طائل ، فلم يمنعه ذلك من أن يقسم أن « أعود من حيث جئت ! » أراد بيمينه ـ ولم يعتد غير الصدق ـ غدا صباحا ، وأنا أتوهم أنه الآن ! وكيف ذلك ونحن قبيل المغرب والوقت شتاء ، وليس فى الاستطاعة أن أعود فى اليوم نفسه ماشيا إلى طنطا ؟

بت ليلتها ، وعدت إلى طنطا كما جئت فى صباح اليوم التالى. وإذا كان الوالد لم يقم لهذا العمل وزنا فقد كان احتجاجا عمليا فعليا ، تنفس بعد قليل عن استقلالى أو افتراق الرفاق .

استقلال « أو » افتراق الرفاق

مكث الرفاق الأربعة (أنظر صفحة ١٦) سنتين كاملتين ، تتلاقى بالمنزل أيديهم فى تلك السُّفرة ذات العروة أو الأذن الواحدة ، وكانت « قوطة » من الخوص ، صنعها والد أحدهم ليضع فيها ابنه الطعام وقت الأكل . فى هذا « المقطف » الصغير كان كل واحد منهم يضع قليلا من خبزه ، مع الاشتراك فى الإدام أو فى ثمنه .

وقد سوّت الصحبة بين هؤلاء الرفاق ، لاجتماعهم على الطعام فى المنزل ليلا وفى الجامع نهارا ، وجمع النقود اللازمة لمصرفهم جملة فى كل أسبوع أو شهر ؛ على أن زاد كل منهم كان يختلف من حيث الجودة والصناعة ، والكمية والتركيب ، كما كانت « الزيارات » التى يتحفهم بها ذووهم تختلف كذلك كمية وصنفا ، وتتقارب أو تتباعد فتراتها كذلك ؛ لاختلاف حالهم فى اليسار والإعسار ، والإنفاق والتقتير .

ولم يفت هذا الصبي — وهو أصغرهم — أن يلحظ ما كان من تباطؤ بعضهم وتواكله عن احضار نصيبه من الخبز ، وأن يدرك أن الصغار منهم يتحملون من الزاد والتفقات أكثر مما يأكلون ومما يستحقون ، فلم تكن النفقة متكافئة مع حاجة كل

منهم ؛ كما كانوا يُستخدمون ويُسخَّرون بإسراف وعنف لمصلحة غيرهم ؛ وكان هذا مبدأ تغير النفوس وتنافر القلوب ، فأخذ الانحلال يدب إلى روح الاجتماع عند هذه الصحبة .

وصارت هذه المعيشة الاجتماعية — على دقتها وملاءمتها الظاهرية — مثار تنافس وتشاحن ، برىء حينا وغاشم أحيانا ، سرا وجهرا ، فلم تدم أكثر من هاتين السنتين ، إذ بدأت بعدهما وفود الطلبة تتوارد من القرية ، حتى بلغ عددهم فى هذا المسكن ثلاثة عشر طالبا (صفحة ٣٠) . أخذ الصغير يكبر ، والخاضع يشعر بثقل وطأة الاستعباد ، ويحاول التخلص من ربقة الاستبداد ؛ ومَثل هذه الجماعة الصغيرة فى تنافرها وحركاتها مَثل الأمم الصغيرة التى ترعى شؤنها دولة قوية ؛ فقد يظن المشرف أن القوة التى يستمدها من اشرافه لن يصيبها الوهن ، ولن تصير إلى الضعف أو الزوال ! ولكن : أليس الصغير والكبير ، أو الولى والمولى عليه ، كفتىْ ميزان فى يد القدر يعتورهما النقصان والرجحان ؟ !

بقى هذا الطالب هدفا للوم من يقوده ، واضطهاد وغبن الرفيقين الآخرين ، وكثرت الفتن والشكايات بحق أو بغير حق ، بل بقلب الحقائق ، كل ذلك والفتى الصغير عاجز عن المقاومة ، بل عن بث شكواه ، اللهم إلا ما كان من هربه والفرار

من هذه الجماعة ، ليكون ذلك إعلانا لاستيائه ، وفاتحة لخروجه على من لا يرحمونه .

لم يكف وليّه أو مقوده ما قام به من خدمته ، مخلصا له ، متحملا أذى كثيراً ، فى النفس والمال ، والصحة والنفقة . هو لا يبصر ما يعمله الرفيقان الآخران من ظلم فى قسمة الأكل والخبز ، ولا يعلم ما ينوء به من مطاردتهما فى كل مكان ، وكثرت سعايتهما لديه ، وليس فى مقدور هذا الضعيف أن يحتج إلى واليه على ما يلقى منهما ، ولا أن يبث شكواه لوالده إذ ضغطه عليه فى الطاعة العمياء شديد .

لم تعد صحته تحتمل القيام من النوم بعد نصف الليل بساعة فى ليالى الشتاء ، والوقوف ساعتين على « باب الرخام » فى قر الشتاء وزمهريره فى المطر الهاطل والرياح اللافحة ؟ ويا ليت هذا الشقاء الدائم والسهر الطويل كانا فى تحصيل العلم ! بل كان مضطراً إلى القيام فى هذا الوقت وفى جوف الليل البهيم ، ليتوجه مع مقوده إلى الكنيف أو « بيت الراحة » حيث يقضى فى المرحاض ساعة أو أكثر قبيل الفجر . وويل له إذا أخذه النوم وهو واقف فى انتظاره فى طرقات المراحيض المبلطة ! وكيف له ألا ينام وهو لم ينم فى الليلة أكثر من أربع ساعات ، وهو صغير ، والنهار كله شقاء ودراسة ؟ .

أما سيرنا فى الطريق ليلا ، فى وحل الشتاء ، تحت رذاذ المطر

ووابله ، وهو واضع يده على كتفى يدفعها إلى الأمام ويجذبها للوراء ، حينما يحس تقدم الرفيقين أو تأخرهما وهو لا يرغب فى السير معهما ، بل يريد أن يتقدم عليهما أو يتأخر لئلا يجمعهما الطريق بنا ! وأما عثورى فى الظلماء ، ليله الشتاء فى حلكة الطرق الضيقة والسحاب ، أو ديجور الأرض والسماء ، — فكان كل ذلك يعتبر جريمة لا تغتفر ، ولا أفلت من عقاب عليها باللكم واللكز ، مما ترك أثرا فى أسنانى للآن .

وكيف أعاقب على سرقة حذائه الذى كان معى ، ونحن معا فى درس واحد ، وقد اعتدت حمله سنتين متواليتين ! والحسنات فى نظره لا يذهبن هذه السيئة !

هذه الحوادث وغيرها حملتنى على البدء فى النفور ، وعمل ما يزيح عن عاتقى نير هذا الظلم ، والتخلص من تلك القسوة ، بلا مبرر .

أما المعركة الأخيرة ، فكانت فى الجامع ، حيث طلب الكبير منى شيئا كان معى فرفضت إعطاءه ، وحاول أخذه عنوة ، وقام إلىّ فأمسك بإصبعى الخنصر ولواه حتى كاد ينكسر ، فصرخت : آه يا صباعى ، فسكت الجامع لهذه الصرخة ، وسرعان ما اقتادنا الملاحظون أو الخدم إلى حيث عرضت القضية ، وشرحت الواقعة وانتهت بإدانته ، واسترضانى

الشيخ « صالح » يضربه بضع مقارع ! ويعلم الله أنى من ذلك الوقت والألم يحز فى قلبى لعقوبته مع ظلمه ، ولا أزال أذكر أنه كان يضرب بالمقرعة وما دفع بيده أو دافع عن نفسه ، لأنه لم يبصر ما الرجل فاعل به !

اجتمع الرفاق الثلاثة وكتبوا لوالدى خطابا وصفوا به ما كان ، « فصرخ صرخة عظيمة وسكت الجامع ، وقالوا جرى إيه ! » . ويظهر أنهم أسندوا الخصام لحرصهم على مصلحتى ، وإسدائهم النصائح إلى ، بالالتفات للدروس ، وعدم التردد على « باب الرخام » وبيع الترمس هناك . ولأقرر الآن — وأسفى شديد على من سبقنا منهم إلى الدار الآخرة — أن وجودى عند باب الرخام لم يكن إلا طلبا للاستجمام والراحة من المطالعة والدرس مع التفكير والتعقل ، وتخلصا من السآمة والملل ، وإن تبع ذلك صرف فلس أو فلسين فى طعام مستملح ، أو شىء يتفكه أو يتسلى به ؛ فقد اعتدت الغذاء الجيد ، ولم يكفنى ما أتناوله معهم شركة من طعام ناقص ، مع طول الدرس وطول النهار .

ومع وضوح ما بخطابهم من التلفيق لدى والدى ، كتب جوابا على هذا لا أزال أذكر خاتمته المؤثرة البليغة « والسلام عليهم ، لا عليك ، أجمعين » !

وقد كانوا يظنون أنه لن يتأخر عن الحضور بنفسه لطنطا

عقب وصول خطابهم . اجتنبنى زميلى أو ولي السابق ، واتخذ قريبا له قائداً بدلا منى ، من بعض المجاورين المستجدين ، واستمرت إهانته إياى ، حتى هدد أصحاب المنزل بالخروج منه إن لم أتركه أنا ، فرضوا بخروجه وتمسكوا ببقائى عندهم ، لما شاهدوا من ظلمى ولما علموا من اضطهادى ، فسكن خارج منزلهم مع قرابتهم القريبة له ، وعندئذ بدأت أشعر بالحياة الاستقلالية .

عتب أبوه على أهل المنزل لتلك القرابة ، ولكنهم لم يعتبروه تمسكا بالحق ، ولأنهم رأوا أن لا خير فى قريب ظالم يحول بينهم وبين منفعتهم بدون أن يستفيدوا من ورائه شيئا ، غير التحكم فى رقاب الناس !

لم يكن بد من أن يخاطبنى أبى فيما شكوا منه ، ولم تحوجنى عاطفة الوالدين إلى أن أرد اتهامهم إياى بالتفريط فى الدرس ، بالحجة والكلام ، وإن كنت غير قادر على ذلك ، بل كان الواقع والوقائع ، وكانت الاختبارات التى تعقد لنا مجتمعين ، وبحضور المرحوم الشيخ الرخاوى — خير برهان على أنهم ، سامحهم الله ، كانوا فى حكمهم غير منصفين !

دراسة صيفية

رحماك يارب ! فى الكُتّاب ينصرف الأولاد عصراً ، ويستبقينى الفقيه حتى المغرب ، وفى الجامع يسامح الطلبة صيفا ، ولكن لابد من أن أقضى هذه العطلة فى دراسة صيفيه .

هورين هى القرية المضاف إليها أو المشتق منها اسم قريتنا «كفر هورين» مسقط رأسى ! بينهما نحو ميل ، كتب الله علىّ أن أقطعه يومياً ذهابا وإيابا فى صيف سنة ١٩٠٠ مدة شهرين ونصف شهر ، مع ذلك الزميل الثالث الصغير ، الذى اختاره والدى للائتناس به فى الطريق ، وخدمة له ، لصداقة ، كانت ، بين والدَينا رحمهما الله تعالى .

رغب والدى فى تحسين خطى الكُتّابى ، الذى ظل يصفه صادقا بقوله «إنه كسلاسل الزفت» تحريفاً للقولة «كسلاسل الذهب» فبعث بى إلى مكتب المرحوم الشيخ «أحمد خضير» بهورين ؛ وكان من المتنورين ، حسن الخط ، يعرف طرفا من الحساب والإملاء . كان مكتبه هذا رمزاً للتعليم الحديث ، يفوق سائر الكتاتيب ، التى ماكان أحد من فقهائها يعرف شيئاً من المواد الحديثة التى أدخلت بعدئذ فيها .

كان المكتب يشغل حجرة بدار خضير ، فى داخل القرية ، ويجلس التلاميذ فيه على مقاعد من صناديق « الجاز » الفارغة ، وبه سبورة صغيرة يكتب عليها بالطباشير ، والكراسات فيه من فئة الفلس والفلسين ، والمداد صناعى حديث ، والأقلام من القصب الفارسى المعروف بالبسط ؛ وهذا كان منتهى الرقى فى هذه المكاتب . زرته بعد سنتين من هذه الرحلة ،فى الوقت الذى تسرب فيه الإصلاح إلى كثير من الكتاتيب فى القرى ، فوجدته فى بناء مستقل خارج القرية على حافة إحدى البركتين هناك وقد اتسع وزاد عدد تلاميذه ، وأعد به مقاعد خاصة .

تلقينا فيه شيئا من دروس الإملاء والخط والحساب ، وخبرنا طرق التعليم الحديثة . وانتهت الرحلة والصيف ، فتحسن خطى قليلا ، ولكن ذلك لم يعفنى من توبيخ والدى كلما نظر فى كتابة لى ؛ وكأن حرص والدى على تحسين خطى ، كان إرهاصا لما حدث بعد تسع سنوات (١٩٠٩م) عند دخولى دار العلوم كما سترى .

زواج

ما للجامع الأحمدى والزواج ؟ وما علاقة تاريخ التعليم به ؟ مهلا ! ألم يكن الزواج ، قديماً وحديثاً ، مانعاً من طلب العلم ؟ أو على الأقل عائقا عن تحصيله ؟ ! كيف يتزوج الطالب ويترك زوجه فى قريته ، ثم يغيب عنها شهراً أو عدة شهور ؟ ! إنه كان مرغماً على أن يتزوج وعلى أن يغيب ، وعلى أن يسافر . فلم تكن له إرادة مستقلة ، بل كانت إرادته من إرادة والده ، الذى لا مرد لحكمه ! وما دامت هناك إرادة ، فالزواج يساعد فى طلب العلم .

جلسات حول المائدة ، بين المغرب والعشاء فى أوقات الصيف طبعاً ، يعرض فيها الوالدان أسماء فتيات تصلح للزواج ، على ابنهما الصغير ، ويُذكر اسمُ واحدة منهن ، فيرد هذا الصبى من فوره — على غير عادة ، وبمنتهى الجرأة — قائلا : إنها خنفاء ! والأخنف فى عرف الفلاحين أو العوام ، من زادت عنده درجة الغنة ، ولو أن الخفيف منها يعتبر الآن ضربا من الجمال . طرب الوالدان لهذا الجواب ، الذى انتزعته الصدفة من بين شفتى ابنهما الصامت ، بل ملتزم الصمت عند الأسئلة الهامة أو المحرجة !

ولقد ذاع فى المنزل أن ابنة خالته تصلح زوجة ، وكانت

تتردد على خالتها فتجرى أحاديث ، وتصير وقائع تاريخية، لا تزال تتذكرها الأسرة .

ولكن كيف يدرى هذا الفتى ماذا تم ؟ إنه لا يدرك معنى الزوجية ، ولا يعلم حقيقتها . بل إنه فى عصر يوم من الإجازة إجازة عيد الأضحى ، عقب عودته من طنطا ، دُعى للزواج ! ! قادوه إلى منزل صهره ، فوجد هناك جماعة فى المندرة أو المنظرة جلس معهم ، وتم عقد الزواج ، وبعد المغرب رأى العروس تزف إلى دارهم ، فطُلب للدخول عليها ، وكانت ليلة تاريخية صبيانية ، لا يزال بعد أربعين سنة يذكر ما كان فيها من قول وفعل وحديث وكلام .

وفى صبيحة اليوم التالى أو « الصباحية » جلس يكتب وثيقة عقد زواجه بدلا من والده المأذون ، فسجل تاريخها كما يأتى :

الأحد ٣ من ذى الحجة ١٣١٨هـ الموافق ٢٤ من مارث ١٩٠١م

ليموت شهيدا

انتشر الوباء فى صيف سنة ما ، فعطل وجوده العمل بالجامع عدة أشهر . وقد شغلنى أبى فيها كعادته ، بزراعة فدان واحد من الذرة الشامية ، سمدته بكل مافى الزريبة من سماد ، وخللته خلا واسعا ، جعل ذلك غلته آخر العام مضرب الأمثال فى القرية ، إذ كانت ضعف غلة فدانين ونصف كان يزرعها ثلاثة من أقوياء الزراع الفلاحين المحترفين . وعلى اثر تكليف كلفته فى المديرية أصابتنى عين من حسود مشهور ، أو لإهمال فى النوم بطنطا أصبت بمرض استمر أشهرا ، ولست أعرف بالتحقيق كنهه ، غير أنى أذكر أن علاجه كان بمنعى من الطعام إلا اللبن المغلى والخبز العادم (الذى لاملح فيه) .

مضت أشهر العطلة الوبائية ، ولم يبق من جسمى إلا عظام كساها المرض جلداً رقيقاً حساسا ، تؤلمه اللنسة ، ويؤذيه المس. كان طعامى الخبز بلا إدام ، واللبن منزوعة رغوته وقشدته ؛ فهل أبقى فى القرية ، والجامع بدأ يشتغل؟! يجب أن أسافر إلى طنطا!

— كيف يسافر وهو بهذه الحالة ، وعلى هذا الضعف ؟

— ليموت هناك شهيداً ، فى طلب العلم ، مادام قد قدر له الموت!

حملت إلى طنطا ، وقد خلا زادى حتى من الجبن ، واقتصر على لقيمات من خبز القمح الخاص الملدن الخالى من الملح ، كنت أثردها فى مرق الفول النابت، واستمرت الحال كذلك شهرا أو نحوه .

فرغ الخبز فطلبت غيره ، فبعثوا إلىّ « بزوادة » أخرى حملها إلىّ مزارعنا المحبوب . فما إن وصل إلى البيت وأسلمنى « الخرج » لأفرغ مافيه حتى عثرت على رغيفين من دقيق الذرة كانا كشطور (ساندوتش) قد حشى بينهما قطعة من الجبن الأصفر العتيق الذى لا يقل عمره عن عشر سنوات .

وافرحتاه اطعام ماذقته شهورا ، وأحب شىء إلى الإنسان مامنعا ! التهمت هذين الرغيفين بما فيهما ، وأسرعت إلى المزارع فناولته نصف قرش ليشترى بنصفه رغيفا وبالنصف الآخر حلوى طحينيه ، متضرعا إليه ألا يخبر والدى بما أكلت، لخروجه على الطعام المرسوم Régime إلى المحرم على . كان من أوضح أعراض المرض أن أتردد على بيت الخلاء مرارا فى الساعة ، ولكن ما كاد هذان الرغيفان يصلان إلى جوفى حتى نسيت التردداد إلى بيت الخلاء نحو ٤٨ ساعة ، عادت بعدها علائم الصحة تسرى إلى جسمى رويدا رويدا ، وسبحان من يحيى العظام وهى رميم .

القسم الثانى

دولة العلم بالجامع الأحمدى

إذا كنا قد أنشأنا للكتّاب دولة هى صبيانه ومعلموه ، أفلا يكون للعلم دولة ، رعيتها الطلبة أو المجاورون ، وعمالها المشيوخاء أو العلماء ، ورأسها شيخ الجامع ؟ ! أما إقليمها فالجامع وملحقاته ، وجنودها الجندى أو المشد على رأس الملاحظين والخدم جميعاً . ويتبع هذه الدولة ، عدا هؤلاء ، عمال إداريون من كتبة وأنصاف كتبة . وليس يهمنا من رجال هذه الدولة إلا من له صلة بالتعليم ؛ أما النظام والإدارة فليسا من موضوعنا مباشرة .

ونريد بملحقات الجامع بعض الزوايا والمساجد الصغيرة القريبة من الجامع ، والتى كانت تتخذ مكانا إضافياً للدراسة لبعض العلماء غير المرخصين أو المتعالمين ، مثل جامع البهى ، وزاوية القصبى وغيرهما مما سيأتى ذكره عرضاً أو قصدا .

ومسجد البهى هذا ، قلما كانت تنقطع منه الدروس طول النهار ، وهو مسجد كبير ذكر المرحوم على مبارك باشا فى خططه أنه يسمى « مسجد البوصة » وهو جامع عتيق ، يقال إنه من زمن الصحابة . وله منارة وبابان ، ويقيم به جملة من طلاب العلم ، وفيه درس دائم ، وفيه ضريح الشيخ « محمد البهى » .

المجاورون

هم طلبة العلم بالجامع ، كالذين كانوا يجاورون « بيت الله » بمكة . وتتفاوت أسنانهم بين العاشرة والأربعين أو الخمسين ، إذ كان الطالب يفِد على الجامع مختاراً بلا قيد ولا شرط ، فيختلف إلى من يشاء من العلماء ، ويتلقى عنهم من الكتب ما يريد ، ويبقى فيه ما شاء الله أن يبقى ؛ فإن ساعدته معيشته على الاستمرار فى طلب العلم سار فى طريقه ، حتى ينال شهادة العالمية أو يقضى نحبه ، وإلا انقطع عنه فعاش فى بلده أو قريته ، بعد إلمامه بشىء يسير من العلم ، وخبرة بالحياة ، اكتسبها من الغربة عن بلده وأهله .

والمجاورون فى طنطا — كانوا — يمتازون إذا ساروا فى الطريق بمحافظهم التى يتأبطونها ذهاباً وجيئة ، ومناديلهم التى فى أيديهم عند ذهابهم إلى الجامع صباحاً ، وقد عقدت على رغيفين أو ثلاثة من رقيق الخبز ، وقبضة من القُرص وقطعة من الجبن أو المخلل . أما أحذيتهم فهى النعال المعروفة « بالمركوب » الأحمر وعمائمهم تعلو رءوسهم وتكبرها ، وهى ملفوفة على غير نظام . ولهم مسحة خاصة ، أو سحنة يعرفها « ابن البلد » ، فيتبعهم صغار الأولاد وشبانهم أحياناً بنداءات تهكمية ، أهمها وأشهرها :

يامجاور ! عمتك دابت ! م الطرشى والفول النابت ! م السلطة والفول النابت !

ومع أنهم غرباء يستحقون الرعاية ، وطلبة علم يُمنحون الاحترام ، كانوا مثار دعابة واستخفاف من أهل طنطا ! إذا مروا بهم رموهم ببذىء الكلام ، وقد ينادونهم من الخلف بندائهم المعروف فى الجامع « سْ سْ سْ » ، فإذا التفت أحدهم بحكم العادة لم يسمع جواباً إلا صوتاً يشبه « الريح » الخارج من « أحد السبيلين » . وعندما مر أحدهم بقيصرية (قيسارية) الحلوانية فى الغسق ، وجد عمامته قد ارتفعت عن رأسه ، وصارت معلقة فى الهواء بين السماء والإرض ، فلا تجذبها الأرض ولا ترفعها السماء ؛ وذلك لأن خبيثاً فى النافذة قد اختطفها بسلكة حديدية لا ترى ، فتجتمع المارة تطلب من إله السماء أن ينزلها إلى الأرض وإذا بها تسقط فيتلقفها صاحبها ويجرى بها فرحاً مسروراً . ولست أنسى ذلك الطفل المدلل من أولاد الأغنياء بطنطا وهو « ع . المنشاوى » يقود كلباً ذئبياً طويل الجسم مرتفع القامة ، ثم يطلقه على المجاورين المارين فى الطريق ، حتى اضطر أحدنا إلى الالتجاء لترعة الجعفرية ، فخاضها بملابسه حتى وصل الماء إلى سرته ! أما ما كانوا يلقونه من قارص الشتائم عند شراء لوازمهم اليوميه ، وما يعترضهم من إهانات شتى فى

طريقهم ، فقد كانوا يقابلونها أحياناً بالإعراض ، وتارة بلعنة أبي من يتعدى عليهم . وقد كان المجاورون يقابلون تلك الإهانة بالصفح الجميل،راضين بها متحملين ما يلاقون ، عالمين بأن الثواب على قدر المشقة ، وأن ذلك هين فى سبيل طلب العلم .

والمجتهدون منهم يقضون نهارهم فى الجامع ، فيفطرون فيه على لجة (تصبيرة) ويتناولون غداءهم فى الضحى . يتنقلون بين الدروس المختلفة ، كما تختلف النحلة إلى الأزهار تمتص رحيقها ؛ فإذا أقبل الليل أووا إلى مضاجعهم فى منازلهم ، بعد تناول العشاء هناك إن لم يكونوا تعشوا فى الجامع .

ولكل طالب مستجد عند دخوله الجامع أن يقدم «انتسابه» إلى شيخ مديريته ، وبعد اختباره فى القرآن الكريم على يد نقيب الشيخ ، يقيد اسمه فى سجلات المشيخة ، ثم هو حر بعد ذلك فى اختيار الشيخ والكتاب والدرس ، مع المواظبة أو عدمها . والمشيخة لا تسأل عن الطلاب إلا عند « حصرهم » أو « فرزهم » أو « عدّهم » بالنداء عليهم قبيل آخر العام أو قبيل مسامحة الصيف مرة فى السنة ، وقلما تتكرر فى العام الدراسى .

اليوم عطلت الدراسة فى الجامع ، وذهب الطلاب جميعاً إلى جامع «البهى» والتفوا حول دكة عالية ، يستمعون إلى الشيخ «صالح» رحمه الله ، وهو ينادي أسماء الطلبة بصوته الجهورى العالى ، مبتدئا

من السنوات القديمة ، وكلما فرغ من سنة انتقل إلى أخرى . إنه صادف شخصاً أجاب عن نداء اسم من الأسماء فشك فى شخصيته ، وأخذ يسأله : من أى بلد ، وعلى من تحضر ، ومن معك من أولاد بلدك ؟ إلى غير ذلك من الأسئلة ، فإذا اقتنع بأنه صاحب الإسم تركه ، وإلا «شطب» اسمه من السجل أو حذفه ، فلا يقبض أو يصرف صاحبه حقه فى صندوق النذور ، ولا يأخذ جرايته ولا يعود طالباً بالجامع ثانية ، إلا إذا جدد انتسابه فى أوائل العام المقبل .

والمجاورون على ثلاث درجات تبتدىء بالثالثة وتنتهى بالأولى وبينهما الثانية . وليس لطلاب الدرجه الثالثة أى امتياز ، عدا أنهم يستحقون فى « الصندوق» صندوق النذور بعد المواظبة على الحضور سنتين متواليتين . أما الدرجة الثانية فيمنح طلابها خبزاً جارياً أو «جراية » أقله رغيفان فى اليوم ، ويضاعف نصيبهم من الصندوق . ويأخذ طلاب الدرجة الأولى من الصندوق ثلاثة أنصبة ، ويستحقون فى « جرايات » أرقى ، ويسكنون « خلوة » من المساكن التى بالجامع .

ولطلاب العلم جميعاً ميزات أخرى فى القوانين ، فيعفون من « خفر النيل » أيام الفيضان ، ومن الخدمة العسكرية ، بعد امتحان فى الحالة الثانيـة . وللمجاورين فى اجتماعهم بالجامع

مواقف خصام ومشاجرة ، يستدعيها التزاحم على أمكنة الدروس والمناقشه فى القوة والشجاعة . وكما أن « الصعايدة » فى الأزهر كانت لهم المنزلة الأولى فى ذلك ، كذلك كان « البحاروة » أو طلبة مديرية البحيرة فى الجامع . وكانت لهم سمات جسمية تدل على الفتوة ، وملابس خاصة تميزهم ، أهمها « اللبدة » الرومية البيضاء المطوية على شكل القبعة . كانوا أقوياء الأجسام ، شرسى الطباع ، إذا أعلنوا العداء على جماعة فالويل لهم ، لما عرف من سطوتهم ؛ وهم شباب فى الغالب لأنهم لايستمرون فى طلب العلم كثيراً ، وكل من فى الجامع يحسب حسابهم ، إلا «أولاد مليج» الذين كانوا خلفنا تحت طرف الدكه القبلى ، إذ كانوا كثرة مجتمعة يخشى بأسها ، فهم ينتصفون المسائة ، وفيهم عدد من الشباب لا يهاب خوض معارك الطلبة ! ولست أنسى يوماً وقف فيه الطالب محمد أبو جلاله (رحمه الله) وبيده « نبّوت » أو عصا طويلة من خشب الشوم طولها خمسة أذرع ، وهو يدور بها فى دائرة كان مركزها ، فلم يقف أحد فى طريقه ، وانفض المقاتلون من حوله ؛ وكان شابا مفتول العضل ،لم تمح من جسمه آثار الريف والفلاحة ، ولم تنعمه أو تخضد شوكته آثار العلم والدرس ، فكان يشبه فى ذلك كله « البحاروة » .

هذا ، ومن انقطع من المجاورين عن طلب العلم وذهب

إلى قريته ، كان معروفاً فيها فيستفتى فى مسائل علمية ، فى الطهارة والنجاسة ، والنكاح والطلاق ، ويكون فى الغالب مرجع العامة فى القرية ، وإن كان من الجاهلين .

وقد يدعو الغرور كثيرا منهم إلى إساءة سيره وسوء سيرته، مما دعا بعضهم لأن يقول « شيطان رجيم ولا (خير من) مجاور قديم » ، وقد يعارض المثل الفرنسى Cherchez la femme ذلك المثل « ابحث عن المجاور فى القرية » .

كان المجاورون القاعدون فى القرى ، وهم أكثر علما وأوسع حيلة من فقيه الكتاب ، يتزعمون شئون القرية خيرها وشرها . فمنهم من يفرق بين المرء وزوجه ، ومنهم من يتولى إدارة أموال بعض الأغنياء ، أو يسيطر على عمدته فيوجهه حيث يريد . ومنهم من يملك زمام البلد ، فلا تجهز عروس إلا عن يده ، ولا يكتب عقد بيع أو شراء إلا بحضوره ، وكثير من أمثال هؤلاء كان حظهم فى تحصيل العلم ضئيلا ، لأنهم كانوا يقضون أوقاتهم وهم مجاورون فى استقبال الزائرين والفلاحين ، وملازمتهم فى قضاء حاجتهم من المدينة ، فكان لذلك أثر فى نشاطهم وعقليتهم وخبرتهم واجتماعيتهم .

غذاء الطلبة

يا مجاور ! عمتك دابت !
م الطرشى ! والفول النابت !
م السلطة ! « « !

١ — أمامنا الآن مشنة من الخبز الرقيق اللدن أو المُلدن ، قد خلط قمحه بقليل أو كثير من دقيق الذرة ، وبجانبها مِلقاة من القرص أو « البنين » و « القراقيش » ، وهو صنف من الفرنىّ المتخذ من دقيق القمح المعجون بالسمن واللبن أو بأحدهما فقط مع قليل من الآخر .

وهذه ثلاثون قطعة من الجبن الأبيض ، قددتها أم المجاور لتمكث طويلا بدون فساد محتفظة بمادتها ، ولتتحمل النقل ، وليمكن حفظها فى سحارة الطالب دون الحاجة إلى وعاء ؛ وأهم من هذا كله ، لتكون أطول عمرا وأكثر اقتصادا ، إذ يأخذ المجاور منها بمقدم أسنانه أقل قدر يذوب مع لقمة الخبز المصحوبة بورقة الفجل أو الكرات ، أو يغمس اللقمة فى ماء وضعت فيه قطعة الجبن !

أما سمعت باقتصاد المجاورين وشحهم على أنفسهم ، حين يقولون إن المجاور « يغمس من ظل الجبنة ! » ؟ وهل

سمعت المحاورة التى كانت بين مجاورين يتنافسان فى الاقتصاد ، إذ قال أحدهما : إنى أعلق الجبنة وآتدم من ظلها . فقال له الآخر : إنك لمبذر اكيف تعرضها للهواء فالفناء ؟ أنا أكثرمنك اقتصادا ، لأنى أغطيها بطبق زجاجى ، وأغمس اللقمة من الظاهر ! وتلك محلبة أو كراز قد ملىء جبنا عتيقا أصفر ، مضى على تعتيقه فى دنانه أو بلاصيه أربع أو خمس أو ست سنوات ، وفيه « المش » الأصفر اللذيذ ، ليزاوج الطالب بينه وبين الجبن الأبيض ، أو ليأكل منه فى البيت ، ويحمل الجاف المقدد معه فى الجامع عند الغداء ، أو فى لجة الصباح مع القرص التى يفطر بها .

ولكن ذلك الطالب الفقير الذى عدم أهله هذا الصنف من الجبن ، قد تملأ أمه هذه المحلبة بمخلل الخيار القديم البالى ، لأنه إدام أسرته . أما فى موسم تخليل الخيـار أو اللفت ، فقد يتساوى الغنى والفقير من المجاورين فى حمل محلبة أو حق (بجمع) من الصفيح مملوء بهذا المخلل الحديث .

ذلك هو زاد الطالب أو « زوادته » فى العمالة المقبلة .

جلس الوالدان أمام هذه الأشياء ومعهما حقيبة و « خُرج » وأخذا يرتبان كل شىء فى محله من هاتين « العبوتين » بعد أن وضعا معهما صرة من الملابس النظيفة ، مطبقة فى منديل على غير نظام . لاحظ أنهما يضعان الجبن فى مكان مستور ، حتى لا يعثر

به الشرطى الذى يجمع « المكس » أو « عوائد الدخولية » عند مدخل مدينة طنطا فى ذلك العهد .

٢ – فليحمل الطالب فى جيبه أو منديله ، مع رغيفى الخبز اللذين أعدهما لغدائه ، أربع قرص مع قليل من الملح أو «الدقة» أو قطعة جبن مقدد ، يتبلغ بها بعد صلاة الصبح إلى حين تناول الغداء فى الضحى أو قبيل الظهر ، وذلك إفطاره. أما فى الغداء فقد يأتدم بجبنه ، أو يشترى قرصين أو أربعة أقراص من « الطعمية » بفلسين ، وإذا أراد مرقا أصاب من الفول النابت بزيته أو المدمس بزيته أو الكامخ (السلطة) أو « مخلل الطرشى » بفلس ونصف أو فلسين ونصف . وقد يضيف إلى ذلك كله حزمة من الكراث أو الفجل ، أو نصف رطل من الفول الأخضر ، بربع فلس أو نصفه أو بهما معا ، يجمع بينها وبين غيرها من الإدام .

وقد يشترك اثنان أو أكثر من المجاورين فى غدوة واحدة ، فيجمعون بين صنفين أو ثلاثة أو أربعة من الإدام ، وقد يثردون الفول النابت بالطعمية فتزيد فى دسمه ، أو يخلطونه والمدمس بالكامخ (السلاطة) وهنا تعلو وجوههم علائم البشر لتعدد الأصناف ويفتن كل منهم فى المزاوجة بين هذا الصنف وذلك ، ويتذوق أيها ألذ ، هذا مع ذاك ، أو ذلك مع تلك ! وقلما تخلو وجبة عند المجاورين من الفجل أو الكراث ، ولذلك يكثر باعتهما

حول الجامع ، وتشاهد حقولها حول مدينة طنطا تشغل مساحة واسعة ، يخب فيها القطار ، أو تقطعها على ظهر الدابة فى زمن طويل .

٣ — إذا انتشر ذهب الأصيل فى الأفق ، حل وقت العشاء للمجاورين ، فيبادرون إليه استعدادا لدرس المغرب ؛ وهو فى كمّه وكيفه لا يزيد عن الغداء ، بل يكون خاليا من الدسم ، فليس فيه مدمس أو نابت ؛ وربما حمل المجاور معه إلى منزله مرة أو مرتين فى الأسبوع ، سمكة مقلية أو مشوية ، أو سمكة مملحة من « الرنجه » أو بعض « السردين » أو قطعة من « التونة » أو قليلا من الزيتون الأسود ، ببضع ملليمات ، إذا كان من الأغنياء المتنورين . أما الحلوى الطحينية فقد تكون إداما منفردا يشترى المجاور منها بما لا يزيد عن فلسين اثنين .

ولكن هذا الطالب قد أخرج من سحارته كرات صغيرة أخذ يأتدم بها ، فما هى ؟ إنها بيضات صلقت وقددت فى الفرن حتى صارت فى جرم الملح أو « الصفار » ، وقد كسى بغلالة رقيقة من الزلال الذى اصفر أو اسمر بعد أن كان أبيض ؛ ولقد أعجبت بهذه الطريقة فى حفظ البيض شهورا ، ولم أسمع عنها فى باب حفظ الأغذية !

هذا هو قوام غذاء المجاورين ، وهو غذاء أولى رخيص ،

يحتوى كثيراً من العناصر العاملة فى تغذية الجسم ؛ ولهذا يزول العجب من بقاء المجاورين أصحاء مع انعدام وسائل الصحة ، وما يظهر من « سوء » التغذية [١] .

ومن المهم هنا أن نشير إلى الشهية التى يتناول بها المجاورون طعامهم هذا ، فإنى لا أزال أذكر الطعم اللذيذ ، والشهية القوية

---

(١) بينا أفكر فى ذلك إذ عثرت اعتباطا على مقال عنوانه « أطعمتنا القومية » للدكتور على حسن الإخصائى فى الأغذية والأستاذ بكلية الطب ص ١٣٠ فى تقويم الهلال سنة ١٩٣٨ ذكر فيها ما خلاصته ، وهى ألصق بموضوعنا :

الطعمية : تصنع من الفول والخضر والبهار وتقلى فى الزيت . وهى سهلة الهضم يستفيد الجسم من عناصرها الغذائية كثيراً ، هذا فوق أنها شهية ، مغرية ، طيبة المذاق ، رخيصة الثمن .

يحتوى الفول على كمية من الزلال والنشويات ، وتحتوى الخضر على الفيتامين والأملاح المعدنية والسليلوز .

المدمس : يسمى « مسمار البطن » لبقائه مدة طويلة فى المعدة . وهو بطىء الهضم لسببين : (١) يبقى فى النار مدة طويلة ، فيتجمد زلاله ويصير هضمه صعبا (٢) وجود الغلاف يحول دون تحلل المادة الزلالية والنشوية تماما . ولذلك يحسن قشره عند أكلة لضعاف المعدة .

ويزيد فى قيمته الغذائية اضافة الزيت أو السمن اليه ، وأكله مع البصل الأخضر أو غيره من الخضر المصبحة (الطازجة) ، وإذا عصر عليه الليمون زادت الفيتامينات .

النابت : أسهل الأطعمة الفولية هضما ، لأنه يؤكل مقشورا ، ولأن شرابه يحتوى عناصره مبسطة ، والكمون (أو الزعتر) يجعله شهيا .

الفجل والكرات (وغيرهما) : لهذه الخضر مزية غذائية ، لاحتوائها على الفيتامينات والأملاح المعدنية ، ولوجود الألياف التى لا تهضم فتتجمع بكمية كبيرة فى الأمعاء الغليظة ، فتنبهها إلى الحركة ، وتساعد على طردها . ا هـ

لفتات الخبز و«فراويته» وقد ذر عليها «برادة» الجبن أو شيء من «الدقة» ، وهي تذوب فى اللعاب كأنها الرحيق المختوم ! وطالما يخطر ببالى تلك اللقيمات الجافة ، وقد كفنت فى ورقة مجلة ، فزادها الجوع عذوبة وشهية ! أما طعمية «تل الحدادين» المحشوة «بالتقلية» فقد فاق طعمها طعم السكفته .

٤ — على هـــذا النحو يستمر أكل المجاور أسبوعا أو أسبوعين أو شهراً ، لا يذوق الطبيخ ، إلا إذا طاف عليه طائف من الفلاحين يزور طنطا فى سوق «الاثنين» أو جاء لشهود قضية فى المحكمة ، أو لتجهيز عروس ، فإن أمه تحمّله إلى ابنها طنجيراً من الأرز أو الفريك ، وقد علاه دجاجة أو زوج من الحمام ، أو فطائر ثلاثاً من المرقق (المشلتت) أو عشرا من خبز الملكة ، أو الفطير الدمسى (الدمّاسى) وندر أن يحتوى هذا الطنجير على طبيخ أنضج «بالتقلية» مع اللحم .

أما إذا أبطأ عليه هذا الزائر البشير، فقد يشترك مع إخوانه فى طبخة رجلة أو ملوخيه ، عليها رطل لحم أو ربع رطل من الدهن ، بحيث لا تزيد نفقاتها على بضعة قروش ، يدخل فيها ثمن أقة من الخشب الرومى للوقود بثلاثة فلوس، إذا لم يستطيعوا الاحتطاب على الجسور والشواطىء ، وجمع الوقود الكافى للطبخ.

٥ — وقد تسوى هذه الطبخة ليلة عاشوراء أو المعراج

أو نصف شعبان ، إذا لم يسعفهم أهلوهم بنجدة من القرية . وقد يحمل الواحد منهم قليلا من فتات الخبز يثرد بها فى مسمط «السكوارع» أو يثرد فى شق رغيف عليه قطعة كرش أو كارع ، بقرش أو نصفه . وقد يحمل معه رغيفين إلى مطعم يتناول فيه صحناً من الخضر بثلاثين فضة (ثلاثة أرباع القرش) إلا إذا رفض الطاهى أن يعطيه الطبيخ بدون خبز ، فيضطر إلى دفع القرش كله وعوضه على الله .

٦ — هذا هو نظام الطعام عند عامة الطلبة من الدرجة الثالثة ويمتاز طلاب الدرجتين الثانية والأولى بأن لديهم راتباً من الخبز الطرى المصبح «الطازج» وهو خبز «الجراية» يصرف لهم ضحى كل يوم ، وقد يرفع نفقات الإدام أو يخفضه عند بعض المقترين ولو من الأغنياء .

ولست أنسى المجاورين وهم يتغامزون على الشيخ على ا. . . وهو يأتدم « بالمش » المتجمد فى سلطانية كبيرة وحزمتين من السكرات بنصف مليم ، مع أنه كان من العلماء الأغنياء المثرين ؛ وكذلك إعجابهم بالشيخ ز . حماد وهو يضع الطعمية فى مشطور الخبز (سندويتش) ويمسكه بأطراف أصابعه البضة النظيفة .

٧ — ويهمنا أن نذكر كيف كان يتفكه الطلبة ! هذا بائع الجميز وقف بحماره أمام باب الرخام ، فتسامع الطلبة برخص

سعره ، وهم خارجون وداخلون فى طلب الادام من باعة البقول والفجل والكراث ، والمأكولات من الفول والطعمية وغيرها ، فلا يفوتهم التفكه بمليم أو نصفه من هذا الجميز المصبح !
وذاك مجاور وقف أمام « طبلية » صف عليها البطيخ مشققاً ، كل شطبة بفلس أو نصفه ، فيأكل واحدة أو اثنتين يدفع ثمنها ثم ينصرف . أما ذلك الرجل الشامى فأمامه صينية من الفالوذج الغليظ أو المتجمد ، قد قسمه فصوصاً ولوّنه بألوان جذابة ، ووضع بجانبه قمقما معدنيا ملىء بماء عطر ، ليذر منه على مهلبيته .
كنت أجرأ من غيرى على الوقوف أمام مثل هذا الرجل . دفعت إليه بفلس فقدم لى قطعة فى سلطانية صغيرة بعد أن رش عليها من الماء العطر ، ثم ناولني ملعقة صغيرة . مر علىّ زميل ، فعزمت عليه أن يقاسمنى الحلوى فعرج علىّ وطلبت من الشامى ملعقة ثانية فقدمها . ولسوء الحظ أن مر زميل ثان فعرج علىّ ؛ ولما طلبت ملعقة ثالثة اغتاظ الشامى وناولنى الملعقة قائلا « كام حمار بمليم ؟ ! » فابتلعنا هذه السبة مع تلك الحلوى التى كانت تنزلق فى حلوقنا انزلاق الدرهم إلى صرة البخيل .

وقل من المجاورين من كانت تحمله رجـــلاه أمام دكان الفاكهى ليصيب منه شيئا ، وكان لهم فى صينيات الفاكهى المتجول ما يرغبون من نصف رطل من البلح أو العنب ونحوهما

٨ – آن أن نطوف فى أنحاء الجامع لنرى كيف كان الطلبة يستقون ، أو كيف كانوا يشربون . انظر إلى هذه القرب الموكوءة والمستندة إلى سياج (درابزين) ، الايوان الشمالى عند الحنفية الصغيرة . تأمل هذا الرجل الذى جلس على حافة صحن هذه الحنفية ، وقد أمسك بيمينه فم القربة بعد أن فك وكاءها وألقاها على البلاط ثم أمسك بيساره بضعة كيزان من الصفيح ! ووقف أمامه عدد عديد من الطلبة ، يتزاحمون على نيل كوز ماء يشربونه . هذا هو « عمك احمد » السقاء المأجور « المقيم » وأولئك هم المستقون » يكثرون وقت الضحى وعند الظهر ، ويقلون فى الشتاء وقبيل الأكلات . وكلما فرغت قربة جىء بغيرها ، من القرب التى تملأ باستمرار ، ويحملها سقاءون آخرون إلى هذا المكان .

جاء « فرحات » السقاء المتنقل ، بقربته الخاوية ، فعلقها على مسمار وحمل أخرى مملوءة موكوءة ، وهرول بها نحو باب المقام ! إنه يحمل فى يده بضعة كيزان كذلك ليسق الطلبة فى الجامع ، كى يخفف العبء عن ذلك السقاء المقيم ، ويريح بعض الطلبة من المجىء هنا للاستقاء ! وقد اختار باب المقام ليصيب نصيبا من « نفحات » الزوار وفلوس المتصدقين . يضايق مثل هذا السقاء أن يلتف المجاورون حوله لئلا يشربوا قربته بدون

أن ينتفع بشيء من زوار السيد ، ويرفض أن يعطى واحدا من الطلبة كوزا يحمله لأخ كفيف أو طالب كبير ، إلا إذا نفحه بقرصة أو لقمة، أو كان معه من المحسنين المتصدقين . وفى الجامع من مثل هذا السقاء عدد غير قليل .

على رأس هؤلاء السقائين شيخهم الشيخ « محمد السبيلجى » رحمه الله . كنا نراقبه حينما يمر ضباحا وهو يطوف بالمزارات عليه جبة حريرية وقفطان أبيض كتانى مهفهف ، وعمامة بيضاء من طراز عمامة السيد « حسين القصبى »[1] رحمه الله . كم قربة حمل فى سالف زمانه ، حتى وصل إلى هذه المرتبة ؟ ! تعال معى ظهرا إلى شباك الصهريج الكبير ، لنشرب منه كوز ماء بارد ، ونتمتع بمنظر هذا الشيخ فى داخل الصهريج يراقب الواردين ، وقد ارتدى جلبابا أبيض وطاقية رقيقة من الكتان .

إنك تراه فلا تظن إلا أنه من « هيئة كبار العلماء » وبخاصة حينما يتوسط الاحتفالات ويستقبل أعيان المحتفلين ، كأنه من رجال البلاط بالجامع ، وسبحان مقسم الحظوظ !

---

(١) يقال إنه كان لديه شخص خاص للعمامة يقوم بلفها لقاء أجر شهرى

منازه الطلبة ووسائل الترفيه عندهم

أشعر بأن هـذا العنوان ــ على طوله ــ ليس شاملا ، فإنى أريد به وصف حال المجاورين « خارج الجامع » ، فقـد يكونون فى عمل ، غير الدراسة طبعا ، وقد يكونون فى راحة أو يندمجون مع جماهير الناس فيما يتمتعون به .

١ ــ إذا زرت الجامع ضحى يوم الخميس ، رأيت عدد الطلبة فيه قليلا ، لانصراف المجاورين القريبة بلادهم إليها بعد درس الصباح ، ولم يبق إلا المقيمون القاطنون فى طنطا ؛ بعضهم فى درس الضحى نادراً ، وبعض يطالع دروس يوم السبت ثم يفطر ويغادر الجامع إلى المنزل ، أو ينتظر فيه قريبا أو زائراً قادما بالسكة الحديدية ، وبعضهم يهم بمغادرة الجامع إلى المنزل ليفطر فيه ، فالدراسة معطلة من ظهر الخميس إلى فجر السبت عادة .

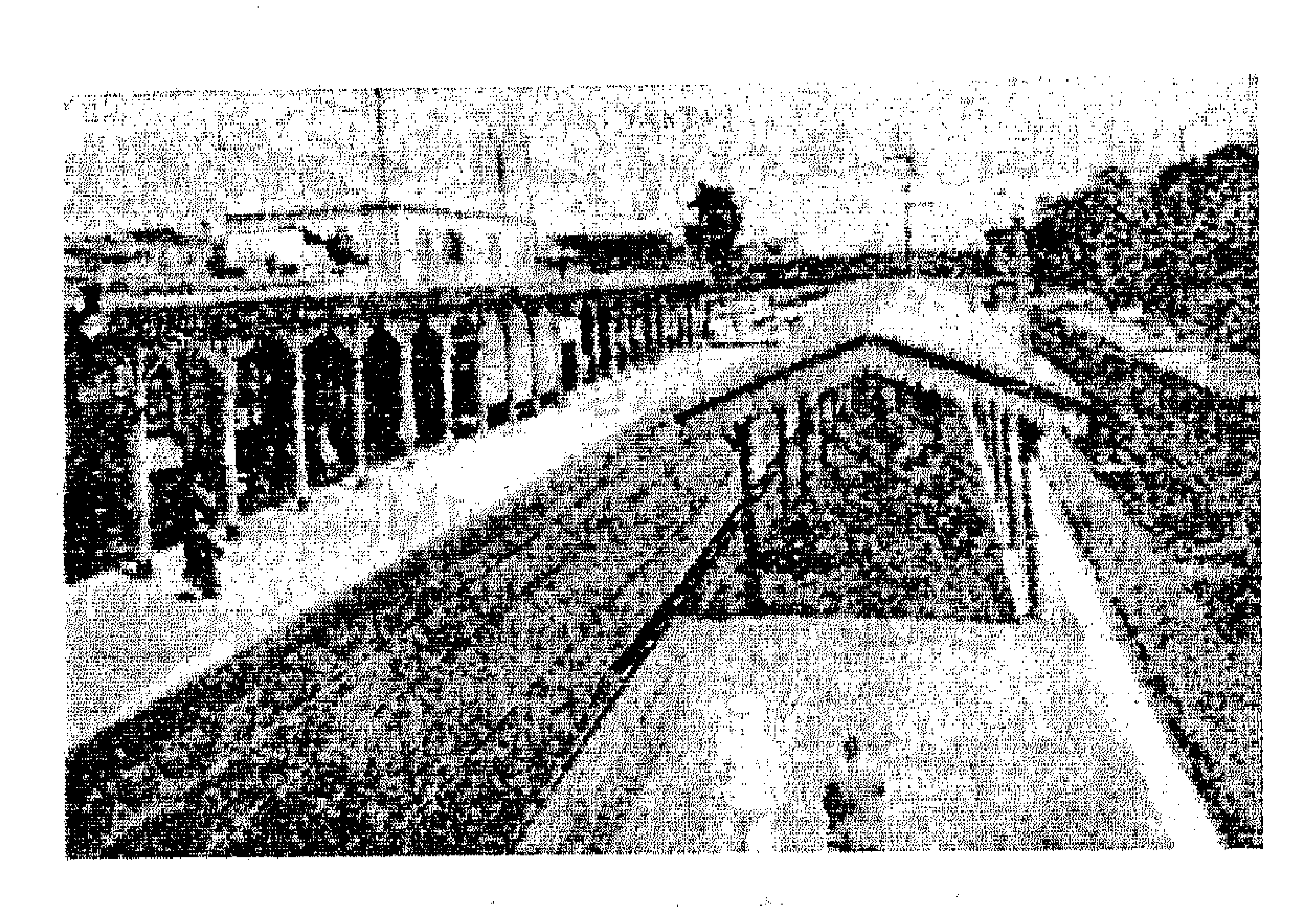
فتش عن الطلبة فى هـذا الوقت ، وقت الفراغ ، تجد منهم من حمل ملابسه القذرة مع قطعة من الصابون والزرقة (الزهرة) وقطعة من المسد بفلس واحد ، وطشت من الصفيح أو بدونه ، قاصدا ترعة الجعفرية ليغسل فيها تلك الملابس ، فى الطست أو على حجر أبيض فى مصلى هناك ، قبل أو بعد أن يستحم بالماء والطين أو الماء والصابون والمسد .

ثم ينشر الملابس هناك على تكعيبة الكرم فى جنينة «العجيزى» وينتظر جفافها ، أو يحملها فى هذا الطسيت إلى البيت حيث ينشرها على حبله . وندر من الطلاب من كان يستأجر الغسالة لغسل ملابسه ، وكثر منهم من كان يجمعها لترسل إلى قريته فتغسل وتعود نظيفة ، مع شىء من الخبز والقرص والطبيخ وغيرها ، يحملها إليه قريب أو زائر . أما فى عصر الخميس فقد ينهمك فريق صغير من الطلبة فى إعداد طبخة رجلة أو ملوخية أو فول نابت أو نحوها .

وقد ينتشر بعض الطلبة ضحى أو ظهر الخميس أو صباح الجمعة فى مداخل المدينة ، يرقبون قدوم مسافر من قريتهم على ميعاد أوعلى غير ميعاد . والويل لى ولكل طالب مثلى ، إذا خرج إلى قنطرة سمنود القريبة من المنزل للتنزه ،ففاجأه أبوه قادما على غير ميعاد ، أو رآه قريب أو زائر فأخبر الوالد بملاقاتى على هذه القنطرة . إنه يريدنى على أن ألزم الجامع ولا أعرف البيت إلا فى الليل ، أو ساعة من النهار ، لأخرج منه مع مقودى ساعة الاستحمام فى الترعة لتغيير ملابسى ؛ على أنه كان يحرم على ذلك ، ويرى أن أستحم فى «الحمام» كل أسبوعين أو كل شهر مرة .

وكما كانت قنطرة سمنود من خير منازه الطلبة نهاراً ، فقد كان جسر محطة السكة الحديدية خيراً منها ، وذلك لوجود ملتقى

السكك الحديدية من شتى الأقاليم هناك ، ولتوارد القطُر فى فترة الظهر والعصر ؛ ولـكنها كانت ملهاة للطلاب فى غير يوم الخميس ، وفى الليل أيضاً حين كانت الإضاءة فى المحطة خيراً منها فى المدينة .



محطة السكك الحديدية القديمة بطنطا

وكان ورود القطارات السريعة ليلا ، وهى تتسلل إلى المحطة وتنساب « انسياب الرقطاء فوق الرغام » بأنوارها المتلألئة ، من المناظر التى تسرى عن نفس المجاور الذى يستضىء بقناديل الزيت فى الجامع . ولقد سمعت من طالب أنه صادف على هذا الجسر ، ذات ليلة ، امرأة متنكرة فى زى رجل ؛ ولما كشفت له عن أمرها أخذته رعدة لم تفارقه حتى عاد إلينا بالجامع . وليس ذلك بعجيب فى وقت كانت فيه الحشمة ملازمة لحجاب النساء ! ولقد بقى هذا

الجسر زمناً طويلا حتى أزيل بعد حادثة المولد سنة١٩٢٨م حين قتل هناك مئات من الموالدية ، وقد استبدل به الآن نفق عظيم جديد .

ولمن يُدعى من الطلبة لانتظار أبيه أو أخيه على قارعة الطريق أو فى المنزل ، فى بحر الأسبوع ، فرصة يغادر فيها الجامع قليلا أو كثيراً . وكان غياب الطالب المجـــد أو الحريص أبوه على مواظبته أو خروجه من الجامع ، يعد تفريطا فى طلب العلم ، فمن يُعنى بمقابلة الزائرين وملازمتهم فى قضاء لوازمهم لا يرجى خيره لضياع وقته بعيداً عن العلم ، وإن اتسعت معلوماته العامه أو الاجتماعية .

أما فى أيام الشتاء حين يكثر قصب السكر ، وفى أواخره حين يظهر الخس ، فللمجاورين المبـــذرين أو الأغنياء فرصة خروجهم إلى الحقول للنزهة وتناول شىء منها ، ولا يكاد يعدو ذلك مرة فى الاسبوع .

وقبيل مولد السيد البدوى تسنح للمجاورين خير فرصة يتنزهون فيها ، إذ يوجد يوم الأربعاء من كل أسبوع موَيلد أو « زيارة » لأحد الأولياء ، من أتباع السيد ، فى قرية قريبة من طنطا ، مثل نفيا واخنا وفيشا ، ومحلة الجوهرية ، كما سترى فى باب « الموالد » .

وكانت مباريات كرة القدم بالمدرسة الأميرية مرتاداً لبعض الطلبة المتصلين بالتلاميذ .

٢ — فى أوائل القرن العشرين كانت الموسيقى قليلة الذيوع بمصر ، وكذلك كان المغنون قليلا . وندرت الحفلات العامة للغناء والموسيقى ، ندرة كادت تجعلها فى حكم العدم . وكان للمقرئين والمطربين المشهورين منزلة تجعلهم قبلة الأنظار ومحط الرحال ، فقد كان الناس فى القاهرة يركبون المطايا (الحمير والبغال) من القلعة إلى بلاق ، ومن مصر العتيقة إلى الحسينية مثلا ، وفى المدن الأخرى يخترقونها من أقصى الشمال إلى نهايتها الجنوبية، يرحلون فى سبيل سماع واحد من أولئك المقرئين أو المغنين . ومع أن المذياع يسمعنا الآن صوت الشيخ على محمود كثيراً ، فلا يزال كثير من المستمعين أو « السّميعة » يهرعون إلى مقام الحسين لسماع القرآن والمولد النبوى الشريف وغيرهما منه . وكثير من الناس يذكرون ليالى المشايخ أحمد ندا ، واسماعيل سكر ، والشيخ صادق وكذلك ليالى الشيخ يوسف وعبده الحمولى ومحمد عثمان وألمظ ، ومن على شاكلتهم .

لذلك اعتاد الناس فى أفراحهم دعوة الأصدقاء والأصحاب إلى حفلات طرب يحتفلون فيها بالموسيقى والغناء ، أو تلاوة القرآن الكريم وقصة المولد النبوى الشريف ، مع بعض قصائد

المديح . ولكثرة تزاحم الناس وإقبالهم على السماع كانت الشرطة تتولى حفظ النظام فى هذه الحفلات .

وقد كان اثنان من الرفاق مقرئين ، أحدهما حسن الصوت أو أقرب إلى أن يكون كذلك ، يدعى لإحياء ليالى المآتم والأفراح بتلاوة القرآن والقصة النبوية ، والآخر كان ابن أحد فقهاء القرية ، وكلاهما يقرأ القراءات السبع ، ويشتغلان بالقراءة على « القاعد » أى التلاوة مع النغم ، وكان يهمهما سماع المطربين للنقل عنهم ومحاكاتهم فى التطريب .

لهذا كله ، ولما جبل عليه المجاورون من السعى وراء كل منفعة مجانية ، كان لهم نصيب ضئيل من مقاعد هذه الحفلات ، وحظ وفير من الوقوف فى الشوارع والحارات ، حول سرادق أو منزل عين من أعيان طنطا ، أقيمت فيه حفلة من حفلات الطرب ، أو قراءة القرآن ، أو القصة النبوية .

وكان المدعوون إلى هذه الحفلات يرون حضورها تكليفا فلا يمكثون فيها إلا قليلا ، ثم تخلو الأمكنة لهؤلاء المجاورين ولم يُدعوا، يمكثون فيها حتى مطلع الفجر ،ويزعم هؤلاء أن «الصييت» أو المطرب لا « ينجلى » إلا بعد نصف الليل ، فهم يلازمونه فى الشطر الأخير من الليل بحجة انتظار صلاة الصبح . من هنا كنت ترى أشباح المجاورين تتراءى أو تطارد فى هذه الحفلات

الجانيـة المحبوبة ، وكانت أخبارها تتنقل إلى آذانهم مثل أخبار الحرب أو أهم .

ولم يقتصر الترفيه عنهم على حفلات الطرب والقرآن والمولد بل تعدى إلى حفلات السمر المجونية التى كان يقيمها « أولاد البلد » فى الصاغة أو زقاق سيدى مسعود ، وحارة الزاوية ، أو لسماع المطربة ... المشهورة وهى تغنى : على رطل ونص ! ولست أدرى ماذا كان يحدو بنا إلى الوقوف أمام « تخت مصطفى حليم » وتعرضنا لرش الماء فى وجوهنا ، والنظر والاستماع إلى المناظر والأصـوات المحرمة المنبعثة من داخل « التخت » أو الملهى والمرقص ؟!

ونختم هذا بالاشارة إلى حفلات « السباعى — الشاعر وغرام الطلبة بها ، وشدة أسفهم حين يسمعونه عند انتهاء « الوصلة » الأولى من الجلسة والاستراحة وهو يقول :

يا قهوجى لِمّ النقطه من زباينك !

واحذر من النكله وم الملـــيم !

الحالة الصحية

عجيب أن يعيشوا وأن يتمتعوا بالحياة ! وأعجب أن يعمروا وأن يتجاوزوا الستين والسبعين من العمر ! وغاية العجب أن ينيف كثير منهم على المائة أو يتجاوزها ! أولئك قوم عاشوا أسوأ معيشة ، ناموا أقصر مدة واشتغلوا أطول وقت ، وحرموا طيب الغذاء ، ولم يعرفوا من الفاكهة إلا ماقرءوا من وصفها ، إن كان أدب الوصف قد عثر بهم أو عثروا عليه فى شاهد من شواهد النحو والصرف أو البلاغة ! يقطعون النهار وطرفا من الليل جلوسا على حصير فوق بلاط ، بل قد يقضون ساعات من السَّحَر فوق الرخام فى قر الشتاء وزمهريره ؛ ثم هم لايرتدون فوق ملابسهم الرقيقة إلا أردية لاتدفىء من برد ، ولا تدفع من قُر . يرون فى الثوب الخلق شعار «الفتوح» ويتقربون الى شيوخهم ويستدرءون عطف الممتحنين بما يلبسون من رث الثياب وخشن الملابس .

ينامون فى حجر ضيقة فاسدة الهواء ، قليلة النظافة ، ملئت شقوق جدرانها «بالذهب» واتخذ براغيثها من ترابها مخبأ تخرج منه إذ اغمضت أعينهم فتمتص من دمائهم ماينفخ أجسامها ، وهم فى يومهم — من شدة تعب النهار — غارقون ! ألم تسمع بساكنى

حجرتنا وكانوا ثلاثة عشر ! إذا جاءوا إليها فى الربيع ليلا خلعوا نعالهم خارجها ، وشمروا عن سيقانهم فدخلوها ، وطافوا بأرجائها ثم أخذوا يخرجون منها وقد كسيت أرجلهم جوارب حمراء نسجت من البراغيث ؟ ! إنهم يفركون أو يدلكون سيقانهم بشدة ليخلعوا عنها هذه الكسوة ، ثم يترددون على الغرفة حتى يمسى فى استطاعتهم الدخول إليها والاستقرار بها ، كى يقضوا بها ساعات معدودة فى النوم !

هل رأيت أولئك الشيوخ وقد زرعوا أنفسهم فى أرض الجامع ليلا ، وأمسك كل واحد بوريقات من كتاب رديء الطبع صغير الكتابة دقيق الخط ، وهو لا يكاد يتبين الحروف على ضوء ذلك القنديل الزيتى ، المذبذب الذبالة ، إذ تلعب بها نسمات العشى فيخبو ضوءه تارة ويبص أخرى ! ؟

أما طعامهم فيشمل كل حرّيف ومغلظ ، وهو وإن احتوى المواد الغذائية ، فلا تكتسب منه أجسامهم إلا مناعة من كثرة ما حوى من جراثيم ، وما شمل من بويضات وديدان !

وإذا «زارهم الشيطان» ليلا أصبحوا إلى ترعة ضحلة للاستحمام فيها ، أو قصدوا إلى مغطس أو مستحم ، قد استبدل بما فيه من ماء ملح عرق مئات المستحمين ، وقد اختلط بجراثيم شتى ، فيغتسلون فيه متطهرين من الحدث الأكبر والأصغر ، والله يعلم

أنه ماء غـــير مطهر وإن زاد على قلتين !

أما إذا مرض أحدهم فقد يتداوى بماء « الطرشى » عملا بمذهب « وسن التداوى » ، وقد يستشفى بدعوات رجل صالح، أو يتمرغ فى مقام بعض الأولياء !

والحمد لله إذ كان شرابهم من ماء القرب ، وهى كثيرا ما تطلى بالقار ، وكثيرا ما يتحلل بعضه فى الماء فيعطيه طعما خاصا ، وقد جاء مطهرا صحيا غير مقصود !

أما مياه الحب (الزير) فى المنازل فقد تكون آسنة أو غير مروقة ؛ ولا تنس مياه الحنفيات المالحة ، ومياه المراحيض المكشوفة الممزوجة بما تناثر من جص ودهاكة ، وما يسبح فيها من حشرات وديدان ، وهذا قبل أن تعمم الحنفيات ! وتغطى الخزانات !

ألا ترى معى أن شخصا يحيا هذه الحياة أربعين عاما أو أكثر أو أقل جدير بأن يهنأ بحياته العجيبة !؟!

المشيوخاء

المشايخ هم العلماء ، ويعرفون بالعمائم الكبيرة المتهدلة ، والملابس الواسعة ، وبخاصة « الفرجية » المتخذة من الجوخ ، ذات الأكمام العريضة الواسعة ، وبسيرهم الهادىء فى الطريق، مطرقى رءوسهم ، لا ينظرون يمنة ولا يسرة . وقلما ترى منهم شيخا كبيرا إلا وأثر « النشوق » فى سبابته وإبهامه وفى منخريه ، ظاهرا بلونه الأصفر ، وفى منديله كذلك . ولعلك رأيت — فى التمثيل — نابليون وهو يستنشق النشوق ، ويقولون إنه أخذ هذه العادة عن علماء الأزهر ، حينما جاء مع الحملة الفرنسية إلى مصر .

ومعيشة الغرباء منهم ، أو من لا بيوت لهم بطنطا ، لا تعلو كثيرا معيشة أغنياء الطلاب ، لأن مرتباتهم ضئيلة : ٢٥ قرشا للدرجة الثالثة ، ٥٠ قرشا للثانية ، ٧٥ قرشا للدرجة الأولى فى الشهر ، ومع ذلك قد يدخر بعضهم من هذا الراتب حصة فى بيت صغير يسكنه .

وكان التواد والتسامح يسود الأقدمين منهم ، فيرسل الشيخ الدماطى علبة النشوق ، إلى الشيخ الشبينى مع أحد الطلبة ، ثم يسأله ماذا قرر فى مسألة كذا ، بلا غضاضة ولا تكبر .

ويرى الشيخ زميله بجانب الأسطوانة المجاورة ، وقد زاد

عدد طلاب درسه على أضعاف من يحضرون عليه ، فلا يتأثر لذلك ، وإن وجد تحاسد أو تقاطع بين بعضهم فلا يصل إلى أعماق قلوبهم ؛ بل قد يأخذ شكلا هزليا أو تهكميا ظريفا مقبولا .

من ذلك ما رواه أحد الشيوخ ، أن عالما رأى جاره نائما بجوار أسطوانته ، فقال للطلاب من حوله ، بصوت مرتفع : الفتنة نائمة ، يريد التعريض بجاره العالم . فاستيقظ الشيخ النائم ، وقال « لعن الله من أيقظها » .

أما رابطتهم بالطلبة ، فكان لهم على المجاورين سلطان ، يفوق سلطان الوالد على ابنه ؛ فهم يحترمونهم ، ويقبلون أيديهم ، كلما قابلوهم فى الطريق ، وعقب كل درس ، وقد يحملون نعالهم ، ويقومون بخدمتهم ، تقربا إليهم ومحبة فيهم ، كما يحتملون منهم الشتم والضرب حتى بالحذاء الأحمر ، يتطلبون بذلك مرضاتهم ويعتبرون كل هذه الإهانات « علامة الفتوح » ويستبشرون به فى أيامهم ودروسهم . أما ما يراه الشيخ من رأى ، وما يعتقده من عقيدة ، فهو مقدس عند طلبته ، لا يعارضونه وإن خالف الواقع .

ويرتدى بعض العلماء الذين يمنحون « كُسْتا التشريف » فى بعض المناسبات والاحتفالات هذه الملابس الرسمية ليمتاز بها ، كما كانت الحال فى العصور القديمة .

وكما تختلف السادة العلماء فى صورهم وأشخاصهم وأصواتهم، كذلك يختلفون فى « لوازمهم » وأريد بها ما اعتادوه من قول وحركة أثناء تقريرهم أو شرحهم دروسهم ، وقد تدل تلك الألفاظ أو « اللازمة » على أن هذا الشيخ ريفى جاف الطبع أومدنى رقيق الألفاظ ، كما تنم مخارج حروفه على مديريته ، من شرقية أو بحيرية ؛ فترى هـذا يقول دائما وبين كل جملتين « يامولانا » يتغنى بهـا أو « ياسيدنا » أو « قال إيه ؟ » أو « ياويد » بمال « ياواد » محرف « ياولد » ، وكانت هذه « ثقيلة » و خفيفة ، تبعا لظل الشيخ ودرجة محبته فى نفوس تلاميذه .

هذا ولما كان المرحوم الشيخ مصطفى الجندى» ممن لازمتهم طويلا ، وقد احتل من نفسى منزلة ممتازة ، رأيت أن أترجم له كنموذج لخيار الشيوخ رحمهم الله .

الشيخ مصطفى الجندى

هيهات أن يأتى الزمان بمثله   إن الزمان بمثله لبخيل

كان للطلاب أن يختاروا أستاذهم ، فيفضلوه على غيره ، لعلمه أو لأدبه ، لطول درسه أو قصره ، لمواظبته أو عدم مواظبته .

وقد وجدنا فى هذا الشيخ صفات كثيرة اضطرتنا إلى ملازمته. وحضور بعض كتب المذهب عليه .

كان هذا الشيخ اجتماعيا ، خبيراً باساليب الحياة وشئونها ، وكان ذكيا ، وقد يجنى على المرء اجتهاده ، ولم يكن كغيره من الشيوخ الذين ينكبون على المذاكرة ويحبسون أنفسهم فى الجامع أو فى خلوة ، بل يكفيه المرور على الدرس سراعا ، وقد يجد من الطلاب سآمة فى بعض الأوقات ، فيستطرد من الدرس إلى حكايات تحمل فى طياتها كثيرا من الفكاهة والأدب ، والنصائح المنظومة والمنثورة ، فيقضى الدرس كله أو شطرا منه ، بناء على طلب الطلبة ، فى شأن من الشئون العامة ، فى ثوب أدبى ظريف ، وقد كان درس الفقه يوم الخميس ضحية هذا الميل من جانب الشيخ والطلبة جميعا .

مكثنا فى صحبته ست سنين أو أكثر ، حضرنا فيها ثلاثة الكتب الأولى من فقه الشافعى ، وقد سنحت لى فرص كثيرة فى الجلوس معه فى وقت السَّحَر ، قبيل الفجر ، حين أحضر له « كنكة قهوة » بنصف قرش يدفعه ، ثم يسرح بنا الحديث فى شئون خاصة وعامة ،فمكّن هذا الانفراد معه ، منزلته من نفسى وسَرَت إلى روحى موجة من روحه ، وقد أدهشنى منه تنبؤاته عن التعليم فى مصر ، وما سيحدث فيه من الانقلاب .

فكان يحدثنى فى سنة ١٩٠١م بما كان من نظم حديثة فى الكتاتيب وما سيكون فى المعاهد والمدارس ، وكانت نصائحه فى الحياة ، تشف عما قاسى فيها من ظروف أطاحت بمائة الفدان وآلتها البخارية الثابتة التى ورثها عن أبيه ، وكان أقطعها إياه اسماعيل باشا ، فلم تلبث فى حوزته بعد وفاة أبيه الشيخ محمد الجندى فى سنة ١٣١٢هـ (١٨٩٤م) أكثر من عشر سنوات .

وقد نسب ذلك كثير من الناس إلى اشتغاله بعلم الكيمياء . ولكنه أشار إلى سداد دين جلبه عليه سلوك ابنه .

وقد حمله ضياع ملكه ، على الهجرة من مصر ، إلى دمشق سنة ١٩١٤م بعد أن أسند إلى ابنه المرحوم الشيخ السيد وظيفة إدارة المكتبة الأحمدية ، وهى التى أسست على ماوقفه الشيخ الجندى الكبير ، من مجموعات الكتب الخطيه النادرة .

رحل إلى دمشق سنة ١٩١٤ م وأقام بها وتزوج وولد له ولد أسماه محمدا ، ثم توفى سنة ١٩٢٣ م [١]

وقد جلس فى الجامع الأموى بدمشق، وهناك وجد المغفور له الشيخ بدر الدين الموصلى البغدادى ، (والد رئيس جمهورية سوريا الآن ١٩٤٢) آخر عالم محدث ومفسر على ظهر الكرة فافرغ له مكانا فى دار الحديث بدمشق ، واتصل بالملك فيصل ، فأعطاه خمسمائة دينار من الذهب .

ومن عجب أن الشيخ ، فى خلال أحاديثه الاجتماعية ، كان يذكر علماء الشام والأتراك وعلماء الشرق عامة ، ويحكى عنهم حكايات، تدل على أنهم دون علماء الأزهر تبحرا فى العلم والفهم . ولست أنسى ماحكاه عن المصرى الذى رحل إلى الشام وادّعى أنه من علماء الأزهر ، فجلس فى حلقة ضمت علماء الشام منتظرا قدوم شيخ العلماء ، ثم أسرّ إلى من بجواره أن يرشده إلى شيخ العلماء حين قدومه ، فلما رآه من بُعد ، قام إليه واحتضنه قائلا ! ماشاء الله ! أهلا بنور العلم ! هكذا يكون الصلاح والتقوى : فلم يكن من الشيخ إلا أن قال : والله أعلم ، فلم يُلق المصرى درسا ، وبقى مقربا لدى الشيخ ، إلى أن صمم على العودة إلى

(١) هذا ماأملاه على ابنه ولكن علمت من البحث عن حياته بدمشق أنه فى شهر اب سنة ١٩١٩ هام على وجهه فلم يوقف له على أثر ، واختلفت الروايات فى موته .

مصر ، فهرعوا لتوديعه ، فوجه إلى علماء الشام السؤال الآتى : ماذا كانت تسمى السيدة « أم قويق » قبل أن تنجب السيد « قويق » ؟ وقد حار علماء الشام فى ذلك ومكثوا مدة يراجعون الكتب للبحث عن جواب هذا السؤال ، فكتبوا إلى مصر يستفتون ، فكان الجواب ، أن هذا الاسم يطلق على البومة ، وأزالوا الغشاوة التى وضعها المصرى على أعينهم .

أما حكاية التركى الذى كان يفسر الآية « والسماء ذات الحبك » فقال : السماء ماعلا وارتفع ؛ أما الحبك فشىء لانعرفه نحن ولا أنتم ؛ فهى حكاية مشهورة . ويظهر أن كان لذلك بعض الأثر فى رحلته إلى الشام حين ضاقت به مصر بما رحبت .

وقد أسعدنى الحظ بلقاء ابنه المرحوم الشيخ السيد الجندى أمين المكتبة الأحمدية فى اكتوبر سنة ١٩٣٩ رمضان سنة ١٣٥٨هـ فأملى على شيئا من شعره ، قاله بعد مغادرتى طنطا وقبل سفره إلى الشام . من ذلك قوله وهو ليس فى المرتبة الأولى :

هى المقادير لازيد ولا عمرو
مسترسلات على ما أوجب الأمر

تسعى وتطلب ماتعنيه من أمل
كأن عقلك ممزوج به خمر

فاطرح هموما وسلم، لاتعارضها
فالأمر لله إن برّ وإن بحر
أين الملوك إذا ماعسكروا ضربت
لهم طبول الهنا والليل معتكر
أين الشيوخ الألى والعلم حرفتهم
والدرس بجمعهم، للفضل قدنشروا
أين الذين مضوا والنوم فارقهم
خوفا من الله من نار لها جمر
الكل بادوا ببطن الأرض مرقدهم
والرب يسألهم عما به أمروا
فإن علمت بأن الحال هكذا لا
تفرح بدنيا إذا جاءتك ياعمر

وقوله فى نظام سنة ١٣٢٦ (١٩٠٩م)، ولم يكن راضيا عنه

أراك رعاك الله تصبو إلى العلا
بشكل نظام العلم فى طابع النحس
وتدخل فى أسر لأجل دراهم
توافيك للتعليم بالثمن البخس
ولاتنس يوما إن أتاك مفتش
يدير نظاما بالتفلحس والهلس

ذئاب أقاموا فى المساجد يبتغوا
تجمّع دنيا من قفا الوقف والحبس
سلام على الدنيا فقد شاب قرنها
وما الخير إلا فى التباعد عن رجس

وقال بيتين عند تشريف الخديو عباس مدينة طنطا فى رحلته الأخيرة سنة ١٩١٤ ، واجهه بهما ، وبعد سماعه لهما (غادر القطر فلم يرجع) طلب من الشيخ كتابة هذين البيتين فى ورقة ، وأنعم عليه بمبلغ عظيم من المال :

« عباس باشا » أتى بالعز مبتهجا
فأضحت طنطـا تزهو برؤياه
وقد دعاه أبو الفرحات ملتمسا
نور الرسول ، وبالإقبال حياه

وقال قصيدة وهو فى حالة أخذ، منها :

تقول لمن حلالا أو حراما ... فما فى الوقت من يرعى الذماما
وما التوفيق إلا من إله ... وليس النصح ينفع من تعامى
إذا أعطاك ربك لا تبالى ... فباب الله مفتوح دواما
فقم بالليل معتكفاً وصلى ... عسى مولاك يرفعك المقاما
فما الدنيا وإن متعت فيها ... حلالا كان ذلك أو حراما
سوى حلم يراه المرء ليلا ... فتقوى الله أفضل ما يسامى

وقد كنا نحفظ عن الشيخ (رحمه الله) أبياتا نراها تصور بعض خلقه وأفكاره وآرائه .

١ — منها رأيه فى الدنيا وتقلباتها ، وكان يتمثل فى ذلك بالأبيات :

إذا أقبلت كادت تقاد بشعرة ‌ ‌ ‌ ‌ وإن أدبرت كانت تقدُّ السلاسلا

إذا تم شيء بدا نقصه ‌ ‌ ‌ ‌ ترقب زوالا إذا قيل تم

٢ — وكان لا يثق بالناس ، لعلمه أن كل واحد يسعى وراء مصلحته ، ويرى أن من الكياسة سياستهم برفق ، ومداراتهم ، ومعاملتهم بحذر . ويتمثل فى ذلك بالمقطعات الآتية :

صحبت الأنام فألفيتهم ‌ ‌ ‌ ‌ وكلٌّ يميل إلى شهوته

وكلٌّ يريد رضا نفسه ‌ ‌ ‌ ‌ ويجلب ناراً إلى بُرمته

فلله در فتى عاقل ‌ ‌ ‌ ‌ يدارى الزمان على فطنته

فيلبس للدهر أثوابه ‌ ‌ ‌ ‌ ويرقص للقرد فى دولته

نصحت فلم أفلح وغشوا فأفلحوا

فأوقعنى نصحى بدار هوان

فإن عشت لم انصح ،وإن مت فالعنوا

ذوى النصح من بعدى، بكل لسان

ولما صار ود الناس غشا جزيت عن ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن اصطفيـــه لعلمى أنه بعض الأنام

خذ من الناس ماتيسر واترك من الخلق ماتعسر
إنمـا الناس كزجاج إن لم ترفق به تـكسر

قالوا الزمان تغير ، قلت ماصدقوا
إن الزمان على التحرير منقاس

. . . . . .

وما تغير إلا حالة الناس

٣ — ومن أظهر صفاته ترفعه عن الملق والدهان والمصانعة والمداجاة ، وهى منتشرة فى علماء هذا الزمان ، واعتزازه بنفسه وصونها عن الابتذال . مع أنه كان يعلم أن هذه الصفات نذير الحرمان ، وسمات التأخر . وكان يتمثـــل فى ذلك بقول الشافعى وغيره :

أمطرى لؤلؤا جبال سرنديـ ـب وفيضى آبار تـكرور تبرا
أنا إن عشت لست أعدم قوتا وإذا مت لست أعدم قبرا
همتى همة الملوك ونفسى نفس حر ترى المذلة كفرا

وليس اكتساب الفضل يانفس فاعلمى
بميراث آباء كرام ولا صهر

ولكن فتى الفتيان من راح واغتدى
وحصل علما بالتجلد والصبر
فإن نال علما عاش فى الناس سيدا
وإن مات قال الناس بالغ فى العذر

فلولا الضرورة ماجئتكم وعندالضرورة نأتى الكنيف

وكم من يد قبلتها لضرورة وكان بودى قطعها لو أمكننا

٤ — ومما كان يتمثل به فيما يختص بشخصه :

اذا أردت أن تعرف مقامك ، فانظر حيث أقامك .

خذ من علومى ولا تركن إلى عملى
اجن الثمار وخل العود للنار

وكنا نسمع منه :

إن البطالة والكسل أحلى مذاقا من عسل
إن لم تصدقنى فسل من كان مثلى فى الكسل

من عاشر الأشراف عاش مشرفا
ومعاشر الأنذال غير مشرف
انظر تر الجلد الحقير مقبلا
بالثغر لما صار جار المصحف

بهذا وأمثاله ، كان يجتذب نفوسنا ، ونرى فيه مثال الشيخ الكامل .

مشيخه الجامع الأحمدى

كان شيخ الجامع يتولى إدارته وتصريف شئونه بإرشاد الأزهر . وهو أكبر الشيوخ وأعلمهم ، وكثيراً ما كان يختار من بين علماء الأزهر الشريف . وفى السنوات العشر التى قضيتها بالجامع ١٨٩٩م — ١٩٠٨م ١٣١٦هـ — ١٣٢٦هـ كان شيخه هو الأستاذ الجليل المغفور له الشيخ ابراهيم الظواهرى ١٨٩٤م — ١٩٠٧م ١٣١٢هـ — ١٣٢٥هـ اختاره الجناب العالى من خيرة العلماء الصالحين بالأزهر الشريف ، ليتولى تنظيم إدارة الجامع ، فكانت أيامه خير أيامه ترتيباً ونظاماً وحيوية (قبل نظام سنة ١٣٢٦هـ) ؛ فقد كان للطلاب سجلات كالأزهر وللمساكن نظام كنظام أروقته ، ولطلبة كل جهة شيخ ، هم المرحومون السيد محمد عبد الرحيم للغربية ، والشيخ بيومى أبو ريا للمنوفية ، والشيخ السنتريسى للشرقية ، والشيخ مرسى على طبل للبحيرة . وفى زمنه تضاعف إيراد صندوق النذور بالمحافظة عليه ، وجمعت أشتات الكتب المتفرقة بالمكتبة الأحمدية سنة ١٨٩٨ م حتى بلغ عددها ٨٨٧٠ مجلد منها ٣٤١٥ مخطوط ، وبها مؤلفات بخطوط بعض المؤلفين ، أمثال العلامة الدردير والعطار وابن قاسم والزرقانى وغيرهم ؛ كما دخلت فى الجامع العلوم الحديثة ، مثل

الحساب والخط والجغرافيا ، وصار بحق يدعى الأزهر الثانى .

وبعد وفاته صدر الأمر بقانون النظام الحديث (١٣٢٦هـ - ١٩٠٧م) فامتحن الطلبة جميعا ، ورتبوا فى السنوات النظامية ، وروعيت مواعيد الدراسة بدقة ، وفصلت طرق المزارات عن الجامع بسياج خشبى غليظ ، لا يزال إلى الآن ، وكانت تغلق أبوابه وأبواب الجامع على الطلبة فى أوقات الدروس .

وفى هذه المدة تولى المشيخة المرحوم الشيخ محمد الرفاعى مدة قصيرة ، أعقبه المرحوم الشيخ محمد حسنين العدوى ، وفى زمنه أنشىء المعهد الأحمدى وتم افتتاحه فى ٢١ من شوال سنة ١٣٣١هـ (٢٢ من سبتمبر سنة ١٩١٣م) .

ومن أشهر مشايخ الجامع الأحمدى والمعهد :

١ — المرحوم الشيخ محمد أبو النجا : خلع المغفور له محمد على باشا عليه خلعة لا تزال عند ذريته .

٢ — المرحوم الشيخ محمد الطوخى .

٣ — « « محمد عماره .

٤ — « « السيد إمام القصبى .

٥ — « « محمد القصبى .

٦ — « « ابراهيم الظواهرى ١٨٩٤-١٩٠٧م

٧ — المرحوم الشيخ محمدالرفاعى : لمدة قصيرة .

٨ — المرحوم الشيخ محمد حسنين العدوى (انتقل مديرا عاما للأزهر والمعاهد الدينية).

٩ — الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى : للمرة الأولى (يناير سنة ١٩١٤ — أكتوبر ١٩٢٣م)

١٠ — المرحوم الشيخ عبد الغنى محمود : توفى وهو شيخ

١١ — « « محمد الأحمدى الظواهرى : ثانية (إلى أكتوبر سنة ١٩٢٩م) ونقل شيخا للأزهر.

١٢ — المرحوم الشيخ محمود الدينارى : سنة ١٩٣٤ .

١٣ — « « عبد المجيد الشاذلى .

١٤ — الشيخ محمد سليمان السرتى : ١٩٣٨

١٥ — « سليمان نوار : منتدبا .

١٦ — « ابراهيم الجبالى : ١٩٣٨ — ٩٤١ .

١٧ — « محمد عبد الفتاح العنانى .

١٨ — « احمد حميدة : سنة ١٩٤١ .

١٩ — الشيخ محمد عبد الله يوسف الجهنى من ٨/٢/١٩٤٣،

٢٠ — الشيخ الحسينى سلطان : الآن (١٩٤٧).

وقد رأينا أن نترجم فى المشيخة للشيخين الجليلين ، الشيخ ابراهيم الظواهرى وولده الشيخ محمد الأحمدى ، لوثيق صلتنا بهما ومعاصرتنا لهما .

الشيخ ابراهيم الظواهرى

تولى المشيخة (١٣١٢ هـ — ١٣٢٥ هـ ١٨٩٤ م — ١٩٠٧ م)

شجرة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، سيماها الصلاح والتقوى ، وشعارها عمل البر والخير. تلك هى أسرة «الظواهرى» وقد ترى وصفها واضحا فى نسبتها إلى « الظواهر » ظواهر مكة أى ضواحيها . وإن لم يكفك هذا فى الدلالة ـ وما أبلغه ـ فإن والد هذا الشيخ ابراهيم ، وهو ابراهيم الظواهرى الكبير، عاش من العمر ١٣٥ عاما حج فيها ٧٢ حجة وصام دهره مائة عام . وقد خلف أربعة ذكور ، هم ابراهيم وهو أكبرهم ، وسعيد وعبدالكريم ومحمد ، توفوا جميعا ماعدا الشيخ ابراهيم وكان زواجه بعد الستين من عمره وتوفى سنة ١٢٦٤ هـ ١٨٤٨ م

أما مترجمنا الشيخ إبراهيم إبراهيم الظواهرى فقد نشأ مولعا بحب القرآن الكريم فبعثه والده إلى الجامع الأحمدى سنة ١٢٤٨ هـ — ١٨٣٢ م أى قبل وفاته بستة عشر عاما حفظ فيها القرآن وطلب العلم . ولما توفى والده عاد إلى بلده المجفف مركز الصوالح (ههيا الآن) شرقية ، وأقام هنالك عشر سنوات جمع فيها ثروة قوامها ٤٠ فدانا من الأرض كوّن منها

مايسمى « كفر الشيخ الظواهرى » . ثم حُبب إليه العلم فعاد إلى الأزهر ، وانتظم فى سلك طلابه ، وحضر على كبار شيوخه كالخضرى والأشمونى والعروسى، رحمهم الله ؛ حتى أذن بالتدريس فى عهد الشيخ العروسى سنة ١٢٨٢ ﻫ (١٨٦٥ م) .

مكث الشيخ يدرس بالأزهر كبار المؤلفات فى علوم اللغة والدين، وكان شيخا لرواق « الشراقوة » إلى أن عين شيخا للجامع الأحمدى فى سنة ١٣١٢ ﻫ (٥ من أبريل سنة ١٨٩٤ م) فذهب إلى طنطا وبقى هناك ١٤ عاما ، أتم فيها كثيرا من الإصلاح فى الجامع كما سبق ، وأسس كثيرا من المؤسسات الخيرية بطنطا وفى ضيعته (كفر الشيخ الظواهرى) وضيعات أخرى شركة بينه وبين أولاد إخوته ، إلى أن اختاره الله لجواره فلقى ربه راضيا مرضيا فى يوم ٥ من أغسطس سنة ١٩٠٧ (٢٥ ج ٢ - ١٣٢٥ ﻫ) ودفن بمسجده الخاص به فى طنطا .

كان منزله بطنطا أضوأ منزل بها ليلا ، ومسقطا للعافين والسائلين نهارا ، فبابه الشمالى المطل على ترعة الجعفرية واسع المدخل ، على جانبيه حجرتان أو منظرتان تغصان بالزائرين من خيرة رجال الدين وأحوج رجال الدنيا فى الهزيع الأول من الليل ؛ وبابه الجنوبى المطل على شارع السباعى لا يقل اتساعا عن الباب الشمالى ، وعن يمين الداخل منه حجرة ينعقد فيها حضرة

السادة الشاذلية صباحا ومساء ، على يد مقدمهم « أخينا » الشيخ محمد الأحمدى ، أصغر أنجال الشيخ وفيما عدا ذلك فالمنزل عامر بالغادى والرائح من طلبة العلم والإحسان ، والمسافر والمقيم ، من الأقارب والواصلين .

وتجاه منزله بشارع « السباعى » بالكفرة الشرقية بنى الشيخ مسجدا خاصا فى سنة ١٩٠٦ أعد فيه مدفنه ومقامه . وقد وقف عليه ١٤ فدانا من أجود أطيانه بناحية العلاقة مركز ههيا شرقية ، وعقارا بطنطا . وبمسجده هذا تقام الشعائر الدينية ، وتؤدى فريضة الجمعة ، وتقام حضرة الاخوان الشاذلية صباحا ومساء . وله وقف على قراءة ربع القرآن كل يوم ، وربع دلائل الخيرات ، وعلى عالم يعلم الناس شئون دينهم ، وأحباس أخرى على خيرات توزع فى المواسم والأعياد .

وقد أسس الشيخ مساجد أخرى فى ضياعه وضياع أولاد إخوته ، تقام بها الشعائر الدينية ولها وقف خيرى يصرف ريعه على ذلك .

وعلى الرغم من كثرة هذه الخيرات والأحباس فقد ترك الشيخ حوالى ٢٥٠ فدان تركة مباركة طيبة .

وقد بارك الله للشيخ فى ماله وولده ، فترك ، غير المال وغير قلوب تفيض حبا واحتراما ، ثلاثة أبناء من أجلاء العلماء :

١ — أكبرهم المرحوم الشيخ محمد الشافعى : تخرج فى سنة ١٣١٥هـ ١٨٩٧م وتوفى سنة ١٩٤٠م بعد أن ربى كثيرا من العلماء والقضاة ، وكان شيخا لمعهد الإسكندرية ، وعضوا عاملا باحثا فى هيئة كبار العلماء ، فأخرج رسائل فى فنون كثيرة .

٢ — والمرحوم الشيخ محمد الحسينى : تخرج فى سنة ١٩٠٣م ١٣٢١هـ وتوفى سنة ١٩٤٥ وكان من خيرة العلماء الصالحين ، خرج كثيرا من العلماء والمربين ، والقضاة الشرعيين ، وانتدب للتفتيش فى المعاهد الدينية مرتين . وله أبحاث قيمة ومؤلفات عدة.

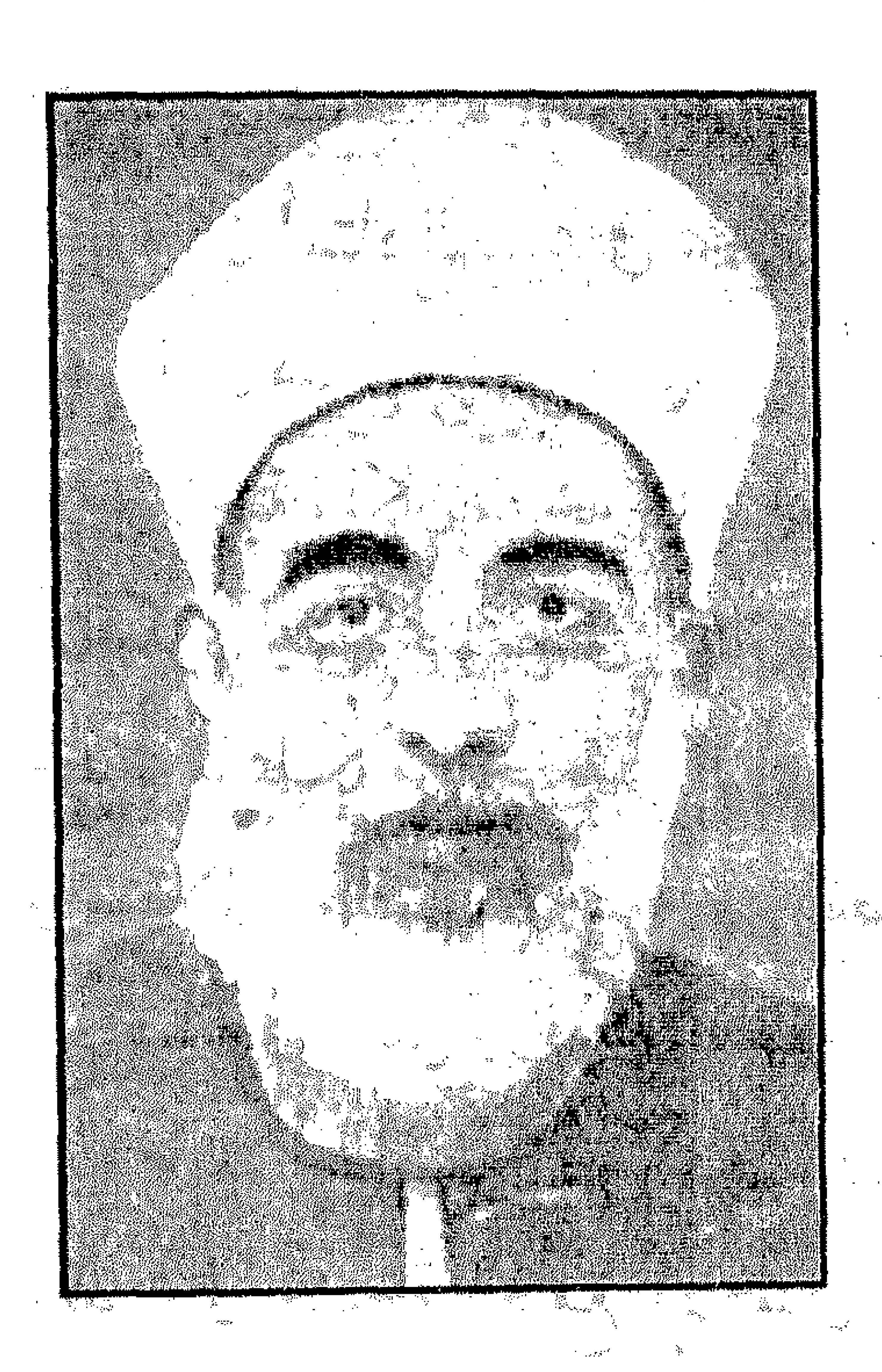
وكان أستاذ التفسير فى تخصص المادة بكلية أصول الدين ، وهو فوق هذا كله رجل اجتماعى ، لو قدر له تولى مناصب الدولة الإصلاحية ، لكان من خيرة المصلحين الاجتماعيين . ومن مميزاته أن فكره ليس محبوسا فى الدائرة العلمية ، بل ترى من خلال حديثه ما يملكه من حرية فى الرأى ، وطلاقة فى التفكير والبيان ، واستقلال فى الفهم ، لا يمنعه من نقض آراء القدماء والمحدثين ، مع دماثة فى الخلق ورقة فى العاطفة .

٣ — أما أصغر الأولاد فهو الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى وقد تولى مشيخة الجامع الأحمدى دفعتين . ولهذا نفرد له المقال التالى :

الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى

١٨٧٨ — ١٩٤٤

ولد سنة ١٨٧٨م ١٢٩٦هـ وقرأ القرآن بالأزهر الشريف، وحضر العلم على شيوخه، وفيه تخرج سنة ١٩٠٢م ١٣٢٠هـ إذ حاز شهادة العالمية من الدرجة الأولى مع الامتياز، وأثنت عليه لجنة الامتحان التى كان يرأسها مصلح الأزهر الشيخ محمد عبده.



ومما يعرف عن الشيخ الأحمدى أنه استقل فى دراسة الكتب العالية بنفسه، ولذلك نال شهادة العالمية صغيرا، وكان من هيئة كبار العلماء سنة ١٩٢١م وهو أصغر أعضائها سنا (٤٥ سنة).

وقد مكث مدرسا بالجامع الأحمدى إلى أواخر سنة ١٩١٣م

وقد ساعدنى الحظ بتلقى علم العروض عليه فى كتابه « المسلك الجديد » الذى ابتكره فى هذا العلم .

كما أنى درست عليه جزءا من كتاب « دلائل الاعجاز » وقد سلك فى تدريسه مسلكا غير ما ألفناه من سائر الشيوخ ، لأنه كان يطلع الطلاب على خفايا الكتاب ويوضح لهم مقاصد المؤلف ، وقد يصور لهم بالحس ما كان يرمى إليه المؤلف بالذوق .

وفى أثناء هذه المدة مرض والده (شيخ الجامع) فانتدب بدله وقتا قصيراً ، خرج فيه على المألوف من الإدارة : فأخذ يمر على الدروس ، ويصلح للطلاب جلستهم ، ويعلمهم كثيرا من أدب الاستماع والجلوس فى الدروس ، وينهاهم عن قرن النعال بالمحافظ أمامهم ، وسط حلقات الدروس ، ويمنع التشويش عليها ، ويحرم على الطلاب مغادرة الدرس فى أثناء إلقاء الشيخ ، ويمنع مرور العامة فى المسجد عند الدراسة ، إلى غير ذلك مما كان إرهاصا لاستعداده للتزعم والتمشيخ .

وقد توج هذا بتأليفه كتاب « العلم والعلماء ونظام التعليم » هذا الكتاب الذى قام له الأزهر وقعد ، حتى صودرت نسخه وأحرقت فى أيامها ، ثم لم تأت سنة ١٣٢٥ ﻫ حتى رأينا الأزهر ينظم من جديد ، على ضوء شعاع هذه النسخ المشتعلة نارها ، فحدد زمن الدراسة ، وحد من حرية الطالب فى الحضور والغياب

ونظمت الدروس ، ورتب كل شيء فى التدريس ، بعد ما كان فيه من فوضى .

لهذا لا تعجب إذا جاء أول ينـاير سنة ١٩١٤ م فوجدته شيخا للجامع الأحمدى إلى اكتوبر سنة ١٩٢٣ م حين نقل شيخا لمعهد أسيوط ، ومكث هناك خمس سنوات ، أعيد بعدها شيخا للجامع ثانية إلى أن عين شيخا للجامع الأزهر فى ٩ من اكتوبر سنة ١٩٢٩م وبقى بمشيخة الأزهر إلى أبريل سنة ١٩٣٥ م .

وهو الذى اقترح على الملك فؤاد مشروع التخصص القديم سنة ١٩٣٠ م وفى سنة ١٩٣٥ اعتلت صحته فاستقال من منصبه ، وظل مريضا حتى انتقل إلى جوار ربه ، فى مايو سنة ١٩٤٤ .

وكان الشيخ الأحمدى من خلفاء المرحوم الشيخ العقـاد شيخ الطريقة الشاذلية الفاسية ، اتصل به فى سنة ١٣١٨ هـ وسلك هذه الطريق ، وهدى الله به وعلى يديه كثيرا من عباده الأغنياء الضالين ، كانوا عصاة فصاروا طائعين . وكان الشيخ العقـاد إلى حين وفاته سنة ١٩٣٣م يتوسم الخير فى تلميذه النجيب ، وكثيرا ما كان يقدمه فى الحضرة الكبرى بعد صلاة الجمعة فى الجامع . ونحمد الله على أن كنا من تلاميذه فى الطريق ، وإن لم نستطع السير على منهاجه .

وكان من أخص صفاته تحمل الأذى ، والصبر على المكاره

شأنه فى ذلك شأن المقربين الأبرار ، . ولهذا رزقه الله توفيقا فى عمله ونجاحا فى حياته . وكانت تتلألأ فى وجهه أنوار العلم والصلاح والتقوى ، كما تجد فى حديثه عذوبة التواضع ، وفى عبارته ماينم عن مكارم أخلاقه وعالى صفاته . رحمه الله رحمة واسعة .

الجامع الاحمدى

١ ــ أصله ونشأته وصيته ومميزاته .

٢ ــ مكانه ووصفه .

٣ ــ مساكن الطلبة به (الخلاوى) .

٤ ــ دورة المياه .

٥ ــ السانية والساقية البحرية والصهاريج .

٦ ــ إضاءته قديما وحديثا .

٧ ــ المزارات التى به .

٨ ــ العبادات والأوراد والأذكار .

٩ ــ التموين والكتب والوراقون

١٠ ــ مشارب الشاى حوله .

١١ ــ السائلون والمعتفون .

١٢ ــ لصوص المساجد .

الجامع الأحمدى

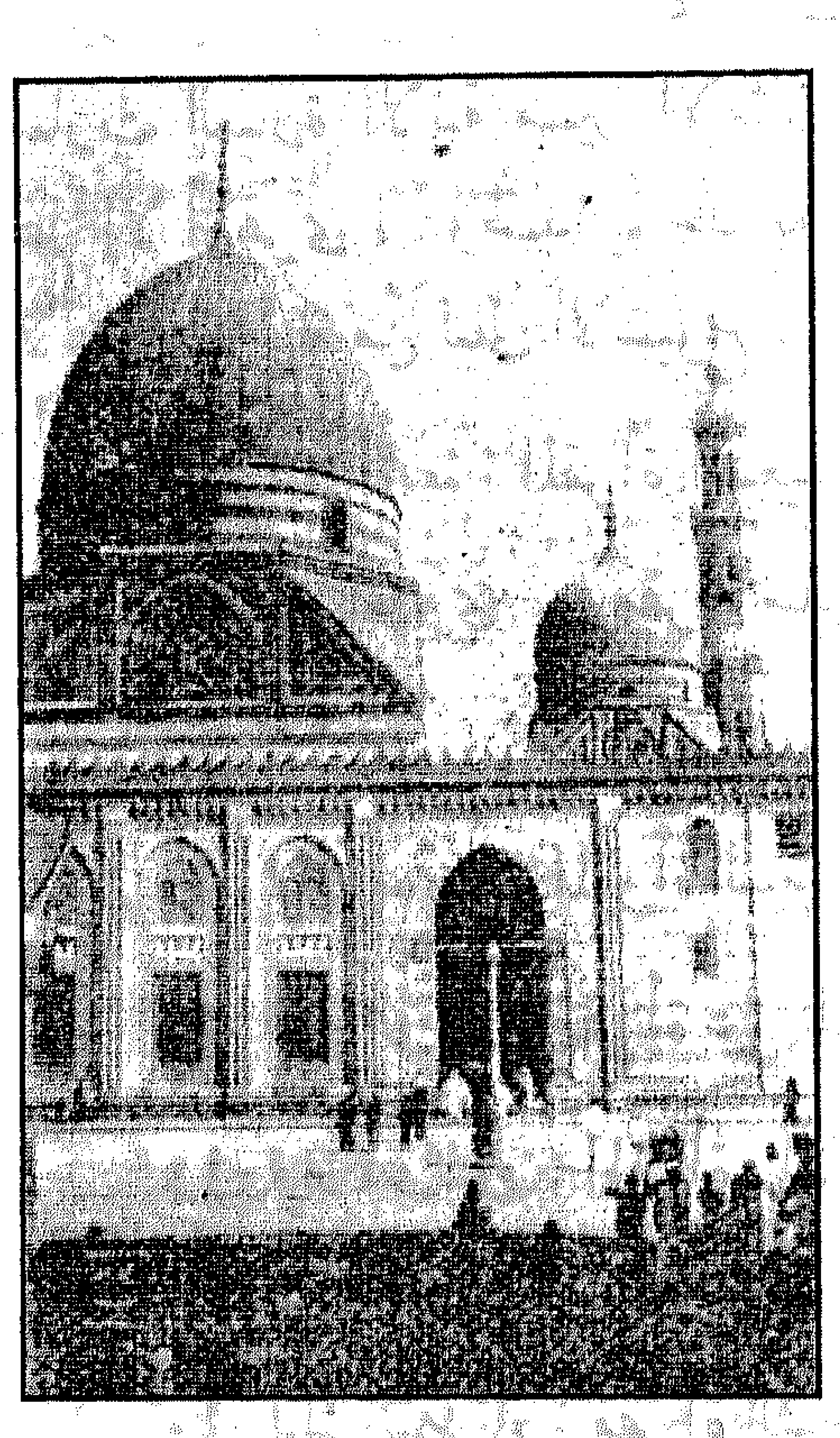
١ — الجامع هو المسجد الكبير الذى تصلى فيه الجمعة أو يجمع فيه الناس . والأحمدى نسبة إلى أحمد ، وهو سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه ، صاحب المقام المشهور به . وأصل نشأته «الزاوية» التى بناها سيدى عبد المتعال ، خليفته بجوار قبره سنة ٦٧٥ هـ و ١٢٧٦ م للعبادة . وكان يجتمع فيها المريدون التابعون للسيد وخليفته من بعده . وقد أخذ يتسع تبعا للزيادة المطردة فى زواره حتى صار من الجوامع الكبيرة ، واتسع صحنه لحلقات الذكر والوعظ والتدريس ، فأمه الزائرون والقاصدون من البلاد النائية ، وكانوا ينزلون بالقاعات التى أعدت لذلك على جوانب صحنه . وقد جاء فى بعض الوقفيات المؤرخة سنة ٨١٤ هـ أن الجامع كان به مجاورون .

وقد تناولته أيدى كثير من الملوك والامراء بالعناية ، حتى وصل إلى ما هو عليه الآن ، من الفخامة والشهرة . وتوالت زيارات الملوك له وتتابعت الوقفيات عليه ، مما يدل على استمراره مدرسة للتعليم الدينى بجانب أنه مسجد جامع .

من ذلك ما كان فى عهد والى مصر المرحوم على بك الكبير سنة ١١٨١ هـ ١٧٦٩ م إذ بنى الجامع والقبة المشيدة على الضريح ،

ووقف عليهما أوقافا طائلة جمة ، وزاد فيه مساكن للطلبة وقد بلغوا ٧٠٠ طالب ، أخذ عددهم يتزايد حتى وصل إلى ٢٠٠٠ طالب كما ذكر المرحوم علي مبارك باشا فى خططه ج ١٣ .

وكذلك أمر المغفور له عباس باشا الأول سنة ١٢٦٧ هـ و ١٨٥١م ببناء الجامع والقبة وملحقاتهما ورفع منارتيه الفخمتين رقد وصف لى بعض المعمرين أن « الخديو » حمل قصعة الملاط (المونه) على رأسه يوم وضع الحجر الأساسى فى الجامع وقال لمقدم الفعلة « سقنى ياسواق ! » فنادى عليه « هات المونه ياواد ! »



وقد استمرت فيه حركة البناء والتجديد إلى أيام الخديو اسماعيل وتمت فى عهد عباس الثانى كما يدل على ذلك ما كتب على الباب الكبير القبلى « أنشىء هذا المسجد المبارك فى عهد خديو مصر عباس باشا الأول سنة ١٢٦٧ هـ وقد تم تحسينه وتقوية مبانيه فى عهد خديو مصر عباس حلمى الثانى سنة ١٣٢٠هـ و١٩٠٢ م »

وقد طار صيت الجامع الأحمدى فى الآفاق لعدة أسباب :

الأول نسبته للسيد البدوى الذى يؤمه أفواج من الأقطار السحيقة والبلاد النائية لزيارة ضريحه والتبرك به .

الثانى : أنه (كان) من أكبر المعاهد العلمية الإسلامية بعد الأزهر ، يطلب فيه العلم آلاف من الطلاب .

الثالث : امتيازه بتخريج مشهورى قراء القرآن الكريم لتوافر القراء ولشدة العناية بالقرآن والقراءات فيه ، ولوجود كثير ممن يتقنون أوجه القراءات من العلماء وغيرهم ؛ ولذا سارت العبارة الآتية مسير الأمثال « ما قرآن إلا أحمدى ولا علم إلا أزهرى » . ولهذا يوجد به من المقارىء عدد كبير ، لاتخلو منها ليلة من ليالى الأسبوع :

ففى ليلة الجمعة : المقرأة السعيدية (نسبة إلى سعيد باشا) ومقرأة الشيخ العدوى ، ومقرأة سليمان افندى داود ، ومقرأة عبد الحميد بك .

وفى ليلة السبت : المقرأة السعيدية ، ومقرأة راتب باشا .

وفى ليلة الأحد : مقرأة على بك الكبير .

وفى ليلة الاثنين : المقرأة الأحمدية ، ومقرأة الشيخ محمد شرف .

وفى ليلة الثلاثاء : مقرأة الشيخ عبد العزيز يحيى :

وفى ليلة الأربعاء : المقرأة السعيدية .

وفى ليلة الخميس : مقرأة خليل أغا اللالة .

ولهذه المقارىء مشيخة ، فى أسرة الشيخ خليل سراج ، شيخ المقارئ الأسبق .

ومن المعتاد أن يجلس بعض كبار فقهاء المقارئ بعد صلاة الجمعة ، وبين العشاءين من ليالى المقارئ الشهيرة ، لاستماع القرآن من التلامذة الذين يتسابقون إلى القراءة فى هذا الوقت بقصد التجويد والمران .

٢ — والجامع الأحمدى من المساجد الفخمة ، يتوسط مدينة طنطا ، ويحيط به أربعة شوارع ، يشغل هو ومرافقه وملحقاته دون فدانين من الأرض ، وله سبعة أبواب . واحد بالضلع القبلى وثان بالشرق وثالث بالشمالى وأربعة أبواب بالغربى .

والمسجد منه نحو نصف مساحة الجامع ، وبه ٥٨ عموداً أو اسطوانة من المرمر أو الرخام الأبيض ، اجتلبت له خاصة من أوربا ، وهى مطوقة بطوقين من النحاس الأصفر ، ويتعهدونها دائما بالتنظيف والحشو من حين لآخر . وفوق هذه الأعمدة بنيت الأقواس الفخمة ، التى تحمل سقفا مزركشا بالألوان البديعة وماء الذهب . ويخلو من السقف صحن مربع فى وسطه

مبلط بالرخام ، هو والطرق الموصلة له من أبواب (السكة الجديدة) والميضأة وباب الرخام ، كما ترى تصميمه فى الصفحة التالية .

وكان المسجد يفرش بالحصير المنوفى ذى الشوك الحاد ، فوق بلاط معصرى (صار الآن بلاط اسمنت) ثم فرش بعدئذ بالحصير البلدى . وكان يكنس ظاهر الحصير يوميا ، وفى كل شهر تطوى الحصر ويكنس البلاط فيكتسح الكناسون ما تكدس تحت الحصر من بقايا فتات الخبز والبقول كالفجل والكرات ، والمخلل والكامخ (السلاطة) وغيرها من الفضلات والأقذار التى اعتاد المجاورون رميها تحت الحصر عقب الأكل يوميا .

وفى الجدار الشرقى من المسجد ترى المحراب البديع النفيس ، الذى يقوم عن يمينه أو يساره ذلك المنبر النادر المثال ، وهو آية من آيات الفن ومعجزة من معجزات الصناعة فى مصر بل فى العالم ، لأنه مؤلف من قطع صغيرة ضم بعضها إلى بعض بدون غراء ولا صمغ ولا مسمار واحد ، مع ضخامته وتعقيد تركيبه ، ويقال إن قطعه كلها كانت توضع فى مقطف واحد ؛ صنعه أحد النجارين المسمى « على جلط » ، وفى قريتنا منبر من صنع أحد تلاميذه ، غير أن قطعه كبيرة وليس بهذه النفاسة .

وجنوبى المسجد كتلة من المبانى فيها المزارات وإدارة الجامع والمكتبة ، وبعض أماكن أخرى . أما شماليه فمساكن الطلبة ثم دورة المياه ، يفصل كلا منهما باب وطرقات خاصة .

إلى الحلاوى والباب الشرقى

إلى الحلاوى والباب الغربى

إلى دورة المياه

إلى باب الرخام

صحن

الجامع

أولاد كفر هورين

الحاجز الخشبى

الشيخ الجندى

سيدى عبد العال

إلى الباب القبلى

سيدى مجاهد

المكتبة

إلى باب السر

السيد البدوى

٣ ــ أما مساكن الطلبة فهى بين المرافق والمسجد ، فى قسمين متعادلين يميناً ويساراً ، يحتوى كل منهما طريقا عن جانبيه صف من الحجر يعرفها الطلبة « بالخلاوى » أو الخلوات كان يقطن كل خلوة منهـــا خمسة من الطلاب المتقدمين أو المجدودين المحسوبين .

وليس فى حجر الطبق الأول غير نافذة صغيرة عليا يدخل منها ضوء ضئيل لا يكاد يمحو ظلمتها ؛ أما حجر الطبق الثانى فأكثر ملاءمة لأن بكل حجرة نافذتين متقابلتين :

وقد عنيت بها الإدارة أخيرا فصنعت بها دكـكا من الخشب تتخذ صناديق للخبز والمتاع . وفى كل صف ، ست حجرات فى الطبق الأول أى ١٢ حجرة فى القسم ، أو ٢٤ فى القسمين . أما فى الطبق الثانى ففوقها مثلها مضافا إليها عشر فوق دورة المياه الصغرى ، يكون مجموعها ٦٨ حجرة [1]

فوق ٢ × ٢٢ = ٤٤ } ٦ + ٦ = ١٢ ، ٦ + ٦ = ١٢
تحت ٢ × ١٢ = ٢٤ } ٥ + ٥ = ١٠ ، ١٢ × ٢ = ٢٤
٢٢

٤ ــ هيا بنا إلى دورة المياه ، ولنمر من الباب المتوسط فى المسجد

---

(١) يشغل حجرات الطبق الأعلى مكاتب « جمعية المحافظة على القرآن الـكريم » أما الأسفل فخال مهجور الآن (١٩٤٢)

فنطل منه بعد طرقتين على بهو صغير مبلط بالرخام ، تتوسطه حنفية الرخام ، وهى حنفية صغيرة قلما تملأ بالماء ويتزاحم عليها المتوضئون مثل الحنفية الأخرى الكبيرة التى بعدها .

ويلاحظ فى أعلى جدارى هذه البقعة نوافذ بعض الخلوات العليا ، وفى الجدار الشرقى منها محراب تقام فيه الجماعة فى الصلوات الخمس ، كما تقام فى سائر الإيوانات حول تلك الحنفية ، وكذلك كانت تعقد فيه حلقات التدريس أحيانا . وقبل أن تمر من الباب الموصل لدورة المياه الحقيقية أو الحنفيات الكبيرة ، نوجه نظرك إلى هذه الأوراق التى ألصقت على مصراعى هذا الباب أو على كتفيه ! إنها إعلانات عن ضياع بعض الأشياء أو العثوز على لقطة لم يطمع فيها واجدها ! اقرأ :

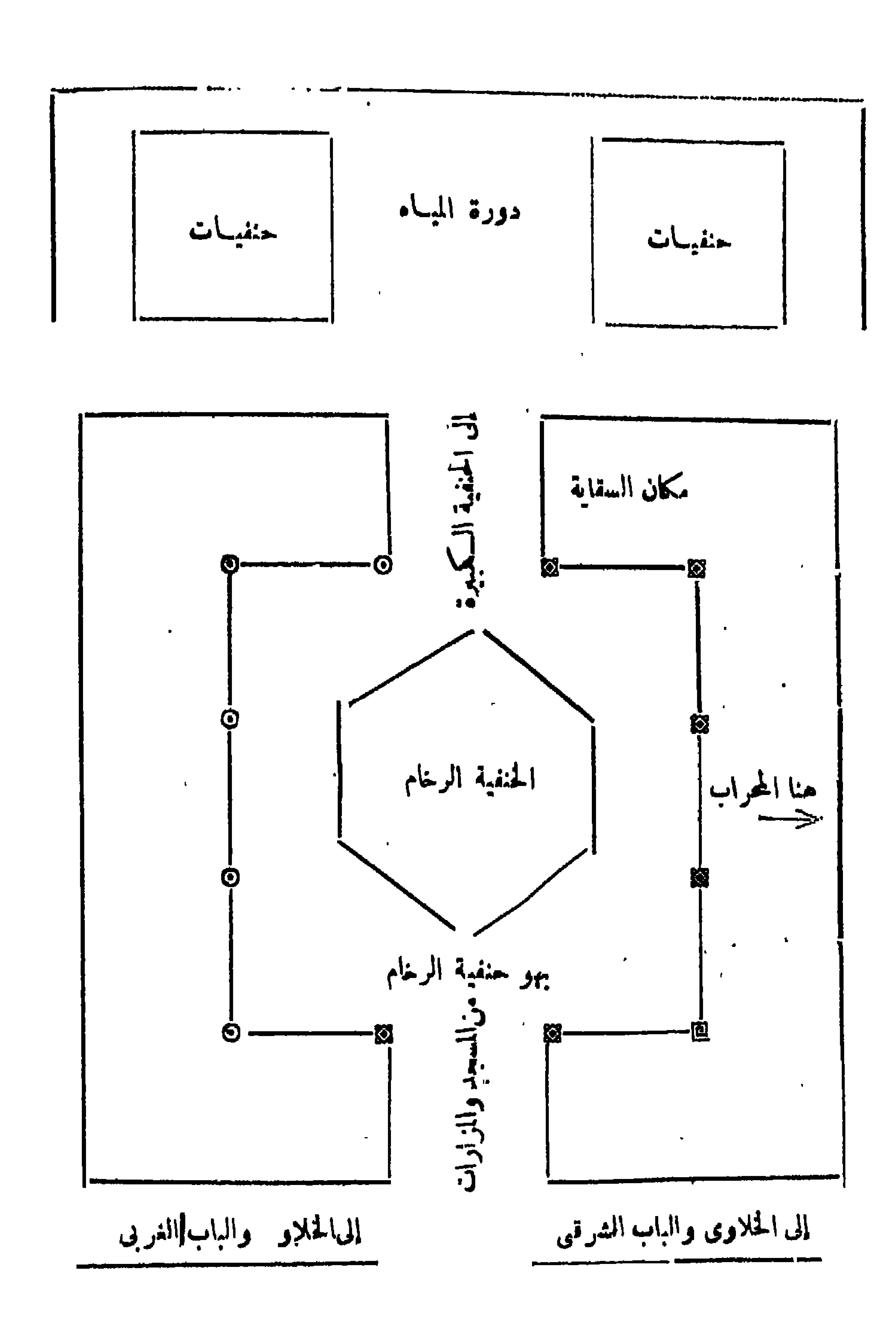
اعلان

يا إخواننا يا مجاورين يا أولاد الحلال ! يا من لقى منكم محفظة فيها ملزمة من الكفراوى ومتن الأجرومية . . . فليحضرها إلى أولاد . . . بجوار عمود . . . وله من الله الأجر والثواب .

ومن قطع هذه الورقة قطعه الله من هذا المكان

اعلان

ياإخواننا يامجاورين يامن ضاع له كيس فيه كتب وأوراق



حنفيات
دورة المياه
حنفيات
مكان السقاية
الى الحنفية الكبيرة
الحنفية الرخام
هنا المحراب
بهو حنفية الرخام
من المسجد والمزارات
الى الخلاو والباب الغربى
الى الخلاوى والباب الشرقى

فليحضر إلى أولاد . . . ويسأل على ... ويعطى أوصاف الكيس وما فيه . ومن وصفه وعرف مافيه سلم إليه ؛ وعليه لنا قراءة الفاتحة فى المقام الأحمدى

قف فى هذا الباب تر أمامك متسعا عن يمينه خزان كبير أو حنفية كبيرة وعن يساره مثلها وفى كل منهما نحو ٥٠ بلبلة (بزبوزا) (الآن ثلاثة صفوف من الأنابيب تتصل كل أنبوبة بنحو ٢٨ حنفية أو ٨٤ واحدة فى الجميع) ؛ وهذا المتسع مسور بسور من الحديد يفصل بين الطهارة والنجاسة، عن يمينه المراحيض، وعن يساره الحمامات أو المغاطس المهجورة .

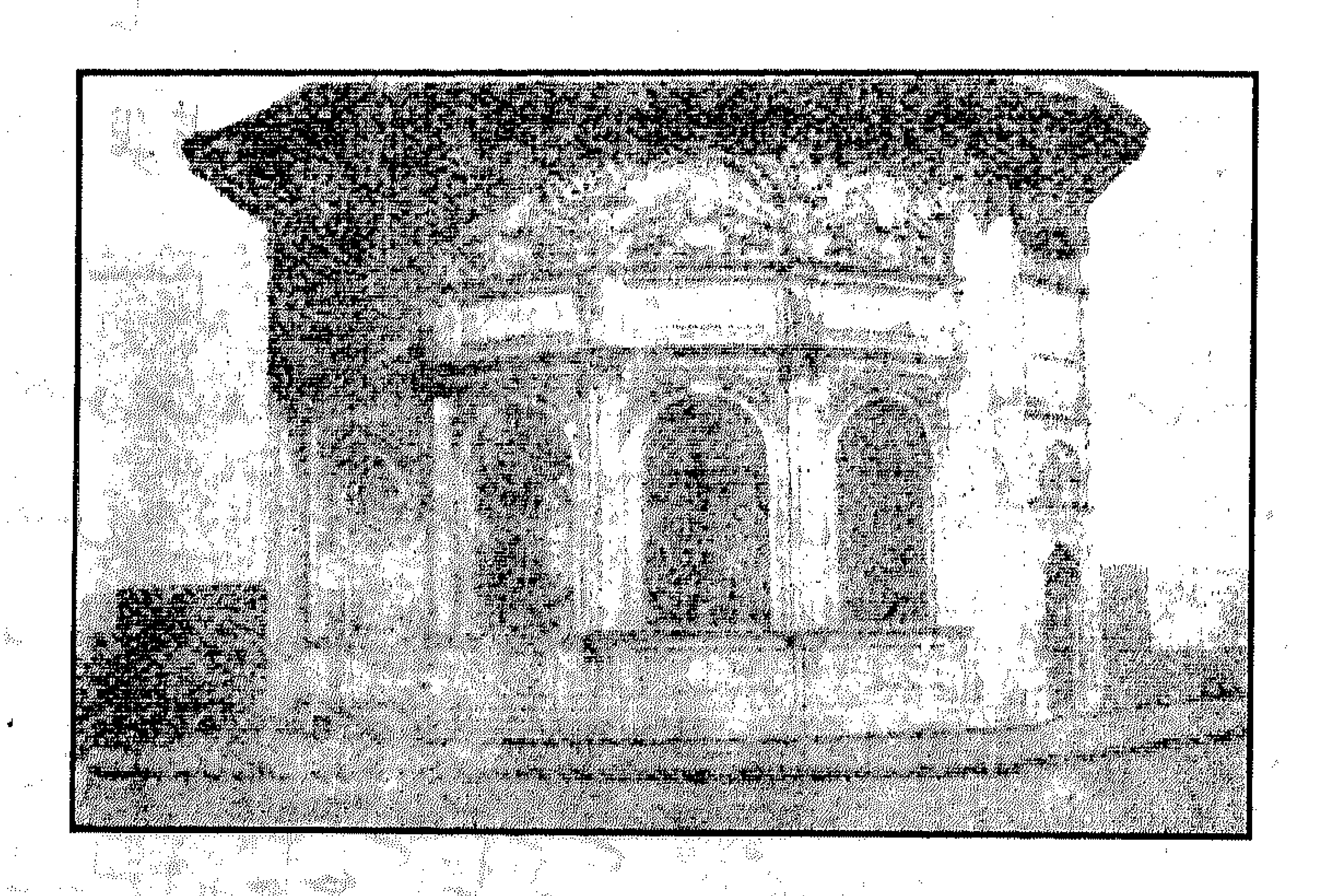
٥ — افتح إحدى الحنفيات الآن وتذوق ماءها ! إنه عذب لذيذ الطعم لأنه من ماء شرب المدينة ؛ أما قبل أربعين سنة فقد كان ماؤها ملحا أجاجا ، لأنه كان يستقى من السانية المعينة ، التى أمام الباب الغربى لدورة المياه ، وتقابل الركن الشمالى الغربى من الجامع ! وقد شاهدت هذه الساقية فوجدتها بعيدة الغور عميقة جدا ، قد يبعد ماؤها عن سطح الأرض فى الصيف بنحو عشرين « مترا » . ولهذه السانية خدم وثيران تدور فيها . وليس يخفى عليك أن مثل هذه الساقية العميقة لايجرها إلا ثيران قوية ؛ ولذلك كنت ترى ثيرانها مكتنزة اللحم مفتولة العضل ، ترى عليها آثار الإكرام والنعمة ! وقد تعجب إذا أخبرت أن معظم هذه الثيران هدايا أو « نذور » نذرها أصحابها لساقية السيد بين النذور

المختلفة التى كانت ترد إلى السيد البدوى من آن لآخر ، كما سترى فى باب (النذور) .

وإذا أشرنا إلى هذه الساقية المعينة أو ذات البئر فلا نستطيع إغفال ذكر « الساقية البحرية » وكانت على ترعة الجعفرية فى المنحنى الذى كان بقرب شارع « البورصة » ، ومنها كان يملأ الصهريج .

والصهريج مخزن كبير للماء تحت الأرض ، يملأ بعد صفاء ماء النيل فى شهر طوبه ، ويمكث فيه إلى الصيف ، فإذا استُقى منه حينئذ كان ماؤه باردا رائقا صافيا . وكان اتخاذ الصهاريج شائعا قبل ذيوع شركات المياه وترشيحها ، وخاصة بقرب المساجد والسبل . وقد أبطل معظمها لعدم توافر الشروط الصحية فى مائها ، وما بقى منها اتصل بأنابيب ماء الشرب المرشحة . ويبنى فوق الصهريج بناء ذو شبابيك فى أرضها أحواض وكيزان نحاسية تربط بسلاسل متينة ، يستقى بها الشارذ والوارد . وقد ترى كثيرا من هذه الصهاريج والسّبل بمدينة القاهرة ، تعرفها بالميسم البارز من جدارها . وفى طنطا غير صهريج السيد الكبير ، صهريج على بك تجاه مقام السيد البدوى ، وصهريج الست مباركة تجاه محطة السكة الحديدية . أما الصهريج الكبير فتراه قبالة « باب الرخام » غربى المسجد (وقد زحزح عن مكانه إلى الخلف كثيرا على إثر

توسيع الشوارع والميادين حول الجامع) ؛ وهو بناء فخم كسى بالرخام من خارجه وداخله .



منظر خارجى للضريح الكبير (ضريح السيد البدوى)

٦ — خدم المسجد كثير منهم البواب والكناس والملاحظ والمشد ، والمؤذن والسقاء ، والوقاد . ترى هذا الأخير يشتغل ضحى بجمع القناديل لتعميرها بالزيت وإصلاح فتائلها ، ثم إعادتها وتعليقها . فإذا جاء الغسق حمل مشعله فى عصا طويلة وأخذ يوقد القناديل؛ وبعد صلاة العشاء يأتى بأنبوب من القصب (الغاب) طويل يطفىء به بعض القناديل تنبيها للمصلين والمجاورين إلى الانصراف . فإذا خلا المسجد أبقى بعض القناديل منيرة مبعثرة ، تضىء الطريق لمن لا يفارقون المسجد من الخدم

والمقيمين فيه . ولا تنس — على ذكر القناديل — اللغز « ف القنديلَ زيتا » وينطقونه « فى القنديلَ زيتا » للإلغاز !

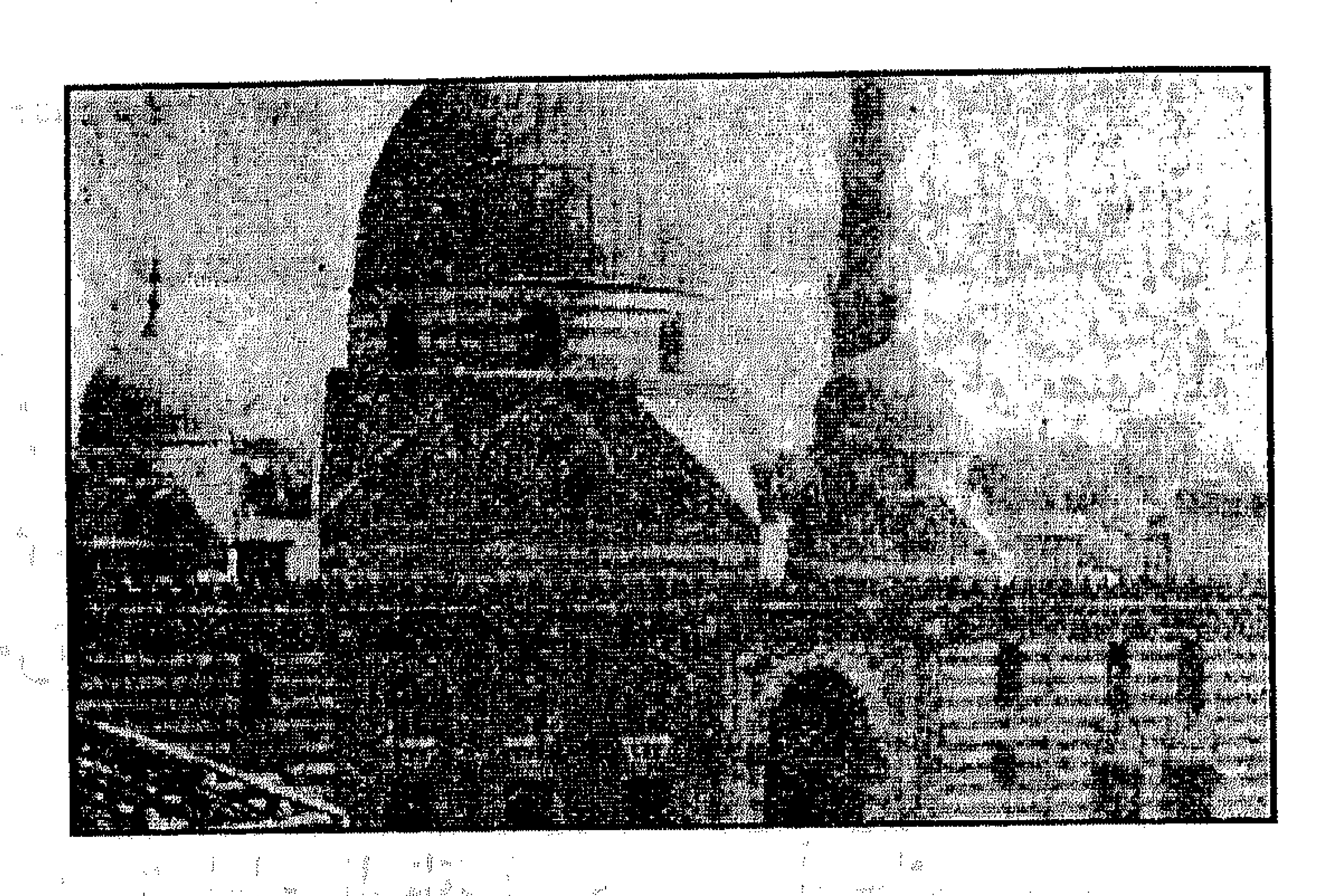
اما المزارات فكانت تضاء بالثريات (النجف) ، وهناك لا بد للوقاد من سلم طويل يصل به إلى زجاج الثريا فينظفه ويضع فيها الشمع ؛ فإذا جاء وقت الإضاءة أضاءها بالمشعل الطويل المخصوص ، وعند الإطفاء يطفئها بعصا تنتهى بقمع من الصفيح يكبس به ذبالة الشمعة فتنطفىء لانحباس الهواء عنها . والآن ، يضاء الجامع بالكهرباء ، بعد مصابيح البترول ، فتنوعت إضاءته من قناديل ، إلى مصابيح ، وفوانيس ، إلى مشكوات فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة كأنها كوكب درّى ، يوقد من شجرة مباركة زيتونة .

ولا شك فى أن تغيير الإضاءة تبعه تغيير فى أصناف النذور والهدايا التى كانت تنذر للسيد وللأولياء ، من أصناف الشمع المختلف الجرم لإضاءته فى المزارات والجامع فى المناسبات المختلفة .

٧ — لا يؤم المسجد إنسان إلا رأى عليه واجبا أن يطوف بالمزارات التى فيه ، فيزور مقامات السيد عبد العال وسيدى مجاهد ويتبرك بقراءة الفاتحة ومايتيسر من القرآن الكريم .

فمقام السيد البدوى أكبر المزارات وأفخمها ، له بابان

أحدهما شمالى يدخل منه من فى المسجد ، والآخر غربى يدخل منه القادم من « باب السر » . وعلى ضريحه مقصورة من النحاس الأصفر بها فتحة يدخل فيها الزائرون يدهم ويضعونها فى جيوبهم. وفوقه قبة عالية يبدو منظرها بين المئذنتين وباقى القباب مثل



منظر الجامع من الباب القبلى وتشاهد القباب الثلاث لمزارات سيدى مجاهد والسيد وعبدالعال

مسجد القلعة . وفى الركن الجنوبى الغربى من المقام حجر أسود فيه أثر قدمين وثقوب ، تمثل ما يذيعه الجاهلون من أن النبى صلى الله عليه وسلم « له فى الصخر غاصت الأقدام » وأنه كان يغزل فسقط منه المغزل فغاص هو أيضا فى هذه الصخرة . ويقال إن مثل هذا الحجر موجود فى كثير من مقامات الأولياء ويتمسح به العامة تبركا ، كما يفعل الحجاج بالحجر الأسود . ولكن الآن قد وضع عليه شبكة حديدية لمنع ذلك العمل .

وينتشر فى المقام، حول المقصورة ، كثير من الزوار الطائفين قياما، والجالسين يتلون القرآن ، تبركا أو طلبا لإحسان الزائرين. أما المتسولون، أو طالبوا لأحسان علنا، فهم كالجراد فى المزارات كلها ، وأمامها، وحول المسجد ، يتفرسون وجوه الزائرين، وقلما تخطىء فراستهم .

وقد يصطف قراء المقارئ فى المقام بعد العصر إلى المغرب ثم يعودون بعد صلاة العشاء طول الليل أو نصفه أو ثلثه ، ثم ينصرفون بعد أن يأخذوا ماقسم لهم من الخبز الذى يصرف مرتبا جاريا (جراية) فوق مرتباتهم النقدية [١] .

ويزدان هذا المقام بالثريات البللورية الفخمة الكبيرة ، كما تنتشر الساعات الدقاقة فى جوانبه وأرجائه ، ويعلو المقصورة بعض الألواح المكتوبة (اللافتات) مثل «أنا مدينة العلم وعلىّ بابها».

ولا تنس صندوق النذور على يمين الواقف أمام باب المقصورة وسترى وصفه فى الفصل التالى .

عرج بعدئذ على مقام سيدى عبد المتعال ، وكان تلميذ السيد وخليفته ، له بابان متجاوران، وهو أضيق كثيراً من مقام السيد، ومقصورته من الخشب المطعم بالصدف . ويمتاز هذا المقام ـ

---

(١) قد تغير نظام السهر فى المقارىء الآن .

كان ـ بجلوس العجائز الـكفيفات الفقيرات المعتافات بجانب جداريه الغربي والبحرى: وفى جنوبه مقصورتان نفيستان، بإحداهما ضريح سيدى عبد الرحمن (٧٥٤ ه) ١٣٥٣م وبالأخرى ضريح سيدي نور الدين (٧٨٩ ه) و١٣٨٧ م وهما أخوا سيدى عبد المتعال، وبينهما صوان فى الجدار، أثرى نفيس، أعد لحفظ الشعرة النبوية الشريفة التي أهداها بعض أعيان الترك سنة ١٣١٥ه ١٨٩٨م على يد مقرئ شهير كان يسهر رمضان عند أحد السلاطين بالقسطنطينية.

أما سيدى مجاهد فهو خليفة من خلفاء الطريقة الأحمدية، عاش فى القرن الثانى عشر، وكان للمرحوم على بك الـكبير اعتقاد فيه، وهو الذى أشار عليه ببناء المسجد، فأنشأ له ضريحه هذا الذى دفن فيه. ومقام سيدى مجاهد متواضع فى سعته وزخرفته وانتحائه ناحية بعيدة عن عمران الحركة فى المسجد. وعلى ضريحه مقصورة خشبيه أيضا، وجدرانه أقل زخرفة من جدران المزارات الأخرى، ويجلس أمام باب المقصورة شاب وسيم الطلعة حسن البزة، لا يتورع أن يسألك شيئا قائلا: الفاتحة!! ولست أدرى لماذا أهمل وضع صندوق النذور هنا مع وجوده فى مقام سيدى عبد المتعال؛ ولعل هذا من حسن حظ شيخه أو حارسه، إذ يتلقى النذر شخصيا مناولة!

وتشترك المزارات الثلاثة فى أنها مفروشة بالطنافس الغليظة العجمية.

٨ — قبل أن نخرج للطواف حول الجامع ، تعالى نمكث فيه يوماً وليلة ، لنشاهد ما فيه من العبادات وما يقام فيه من الصلوات ونحوها ، وأرجىء مشاهدة الدراسة لوقت آخر .

نحن الآن قبل الفجر بساعتين ، وقد آن الأوان لأن نؤم المسجد لنشاهد المتعبدين ! من أين تدخل ؟ من باب الرخام فقط لأنه هو الذى يفتح عند الأذان الأول ، أى قبل الفجر بساعتين ! ولله ليال من الشتاء ، أخطأنا فيها الوقت ، فقمنا فى الساعة الخامسة العربية ليلا ، وجئنا للجامع حتى وقفنا على هذا الباب ، ولزمناه وطرقناه ، فكان « عم أحمد عمار » أجير « سيد احمد الطور » البواب الأصيل ، يتدلل ويرفض فتح الباب ، وكنا نمكث أحيانا الساعتين على أرض رخامية فى شدة القر وسيب المطر أحيانا ، ولا يرق قلب هذا الرجل الأثرم ، فننتظر حتى يبتدىء الآذان الأول وندخل المسجد بغير تعريض بنا ولا تحليق فينا ، إلا أن يرزقنا الله بأحد المؤذنين أو أغنياء المتعبدين المعروفين لديه ، فنندس وراءه ونقتحم الباب خلسة ؛ فننجح أحيانا فى الدخول وتارة يمسك بتلابيبنا ، ويقذف بنا — على ضعفه — إلى خارج الباب على ذلك المقعد الرخامى ، وياليت أيامها دامت ! !

استمع ! هذا الصوت الطويل العريض ، يرن فى جوف الليل والناس نيام ، وهو يقول : عفوك ورضاك يارب ! ألا تراه

يطيل النداء ويصيح بأعلى صوته قائلا : يـــارب ! !

ما أجمل صوته على اتساعه وعرضه ؟ ! وما أجمل النداء فى وقت السَّحَر ! وما أصدق هذا النداء ، لأنه صادر من القلب .

هذا هو الشيخ « مطاوع » المؤذن وهو رجل صالح ، يحكى عن والده أنه سمع هاتفا يقول له « لبيك عبدى ! » رداً على ندائه الجميل، يارب ! وهذا صوت آخر جميل ، على المنارة الثانية ! إنه صوت الشيخ « أحمد فايد » مؤذن حديث ، رخيم الصوت ، كان ينشد على حلقات الذكر أيام الجمع .

لنترك أصوات المؤذنين ترن فى أجواز الفضاء ، لتوقظ النائمين ، ولنستمع إلى المتعبدين داخل المسجد ! هؤلاء جماعة يقرءون « اللطفية » بعد فراغهم من قراءة « ورد سَحَر » .

استمع إلى هذا العبد الذى يمد لام لطيف عند قولهم يالطيف يالطيف ، فكأنه يقولها يا لا .. طيف يا لا .. طيف ، وهو يحتد فى نطقها كأنه ينتزعها من قلبه ! إنه من القراء المثابرين .

ساد السكون فى المسجد ، بعد أن كان كل واحد مشغولا بتلاوة سورة أو تسبيحة ، فكفوا جميعا عن القراءة ، انتظارا لآذان الصبح . استمع إليهم يجأرون بالدعاء عندما سمعوا صوتا يقول : الصلاة ! وهو يمد اللام نحو دقيقة كاملة ! هذا هو الشيخ « سيد فايد الميقاتى » ، ساعته مضبوطة ، يأتى عند وجوب كل

صلاة من الصلوات الخمس ، ويقف على حافة صحن المسجد ، متجها صوب المئذنة الشرقية ، وينادى بصوت عال طويل : الصلاة ! فيسمعه المؤذن المنتظر فوق المنارة ، ويبتدىء بالأذان فيتبعه المؤذن الثانى .

وقد يقطع نداؤه هذا نهارا ما يكون فى المسجد من ضوضاء ألفى طالب ، فيسود السكون لحظة ثم يعود استمرار الصوت .

أما الصلوات الخمس فتقام لها جماعتان كبيرتان ، الأولى فى المحراب العام والأخرى فى محراب المقام الأحمدى ، عدا جماعات كثيرة متفرقة فى أنحاء الجامع وفى الحنفية الصغرى أو حنفية الرخام .

فرغ المصلون من العشاء ، واصطف جماعة من الناس على جانبى باب مقام السيد صفين متقابلين ، وأمامهم فوانيس بها شمع وبأيديهم كتب . أولئك هم قراء « دلائل الخيرات » وكثير منهم موظفون .

أما بعد صلاة الجمعة فإن المسجد يغص بحلقات الذكر ، وجماعات مختلفة قليلة أو كثيرة من شتى الطوائف . فهؤلاء هم البيومية أو الأحمدية بعمائمهم الحمراء ، وهؤلاء الرفاعية بعمائمهم السوداء ، وهناك بين المنبر وباب المكتبة تمتد حضرة الإخوان الشاذلية يتوسطهم الشيخ العقاد ، وأحياناً أستاذنا الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى رضى الله عنهم جميعا .

هذه الحضرات مجتمعات أرباب الطرق، يذكرون الله قياما وقعودا بأسمائه الحسنى، فى نغمات مختلفة، وهم يتمايلون ويدورون إذا اشتد بهم الذكر، ويطربون لسماع إنشاد المنشدين. فلنتركها إلى مجتمعات المريدين والمجذوبين، أو الدراويش وهم كثير حول المسجد، ويظهرون فى داخله بعد صلاة الجمعة. ولنستمع قليلا إلى مايتغنون به من مديح وغزل صوفى!

انظر إلى هذا الشيخ الطويل ذى العمامة الكبيرة الحمراء! تأمل هذا الطوق الحديدى فى عنقه! شاهد ملبسه الواسع المعروف بالعرى! وهذه امرأة فخمة اختمرت بخمار أخضر، وتمنطقت بنطاق غليظ، وتختمت بعشرين أو ثلاثين خاتما من معادن وأجرام مختلفه! وجه نظرك إلى هذا الفتى الذى قدم مهرولا نحو المقام، وهو يصيح بأعلى صوته: مدد ياسيد على طول المدا........د، وهو يمد ما بين الدالين حتى تنتفخ أوداجه، ويكاد ينقطع نفسه!

تأمل تلك الحلقة من الناس الشواذ فى ملابسهم وأشكالهم! انظر إلى عيونهم تجد بعضها دامعا وبعضها مغمضا، وهم جميعا منصتون إلى من يتناوبون «التخمير» أو المديح والإنشاد، وقد يلفظ بعضهم باسم محمد! أو السيد! أوأبا العينين الخ لمناسبة فى الإنشاد.

قد بدأ أحدهم الإنشاد قائلا :

يا عُرب ياللى نديتونى أدينى جيت

واقفْ على الباب لما تِأمروا خشيت

وسر طيبه وزمزم والحرم والبيت !

تخلوا نفَسكم معايا رحت والا جيت

فرد عليه ثان قائلا :

يا عرب ياللى تودوا الناس ودونى

هاتوا دوا من كحيـل العين وادْونى

قالوا نعدك معـــانا قلت عِدّونى

قالوا تصون الأمانه ؟ قلت بعيونى

لمـا لقونى موافى العـــال والدونى

فردوا البوارق وحلفوا لم يفوتونى

ورد عليهما ثالث قائلا :

يا عرب وادى النقا هوا المزيل ينفات

قالوا بلاش مَعشيره داحنا على الند هات

إن خسع الحى فينا تفزع الأموات

وقد أخذ آخر فى تغيير الموضوع فقال :

الشرح واحد يا واحد لما الزهور ألوان

لولا النهور عالزهور ما كان كل شىء ألوان

ولولا البحر الكبير ما كان لا ترع ولا خلجان
وادى القمر من جمالك يا نبى نزل خجلان
نزل منازل حقيقية والحجر له لان
الشمس حلفت يمينين ما تطلع من أبراجها وتبان
إن لم تسلم عليك يا صفوة الرحمن

وتبعه غيره فقال :

قالوا تحب مين فى الأسامى قلت م ح م د
كمن على وجنات خدود النبى ورد
الفم خاتم دهب والريق ش ه د
له جوز عيون دعج من غير كحل س و د
أنا يا ريت يا دليل الدليل يا س ى د
خدنى معك فى الركب ع ب د
ليلة وصال الحبيب النبى يكون عندى ع ى د

ثم صاح سادس قائلا :

السيد اللى يقول فى السكون آديني
أنا بحر طامى ومين يقدر يعانيني
واللى بييجى على الفقرا مريدينى
يصير مطرود لا ذمه ولا دينى

ويختم الإنشاد سابع قائلا :

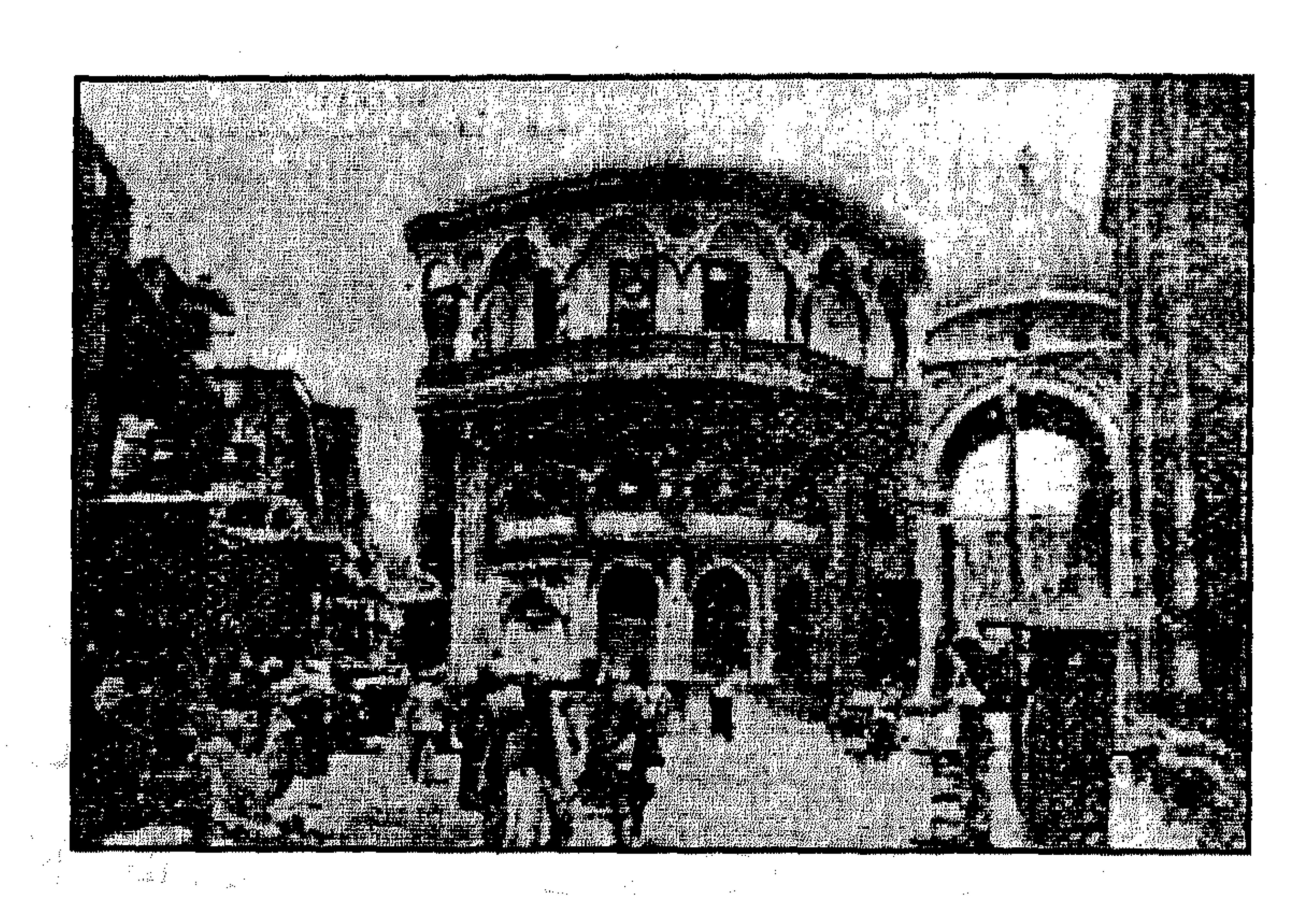
ازىّ ما انضام ونالى فى دسوق اثنين
واحد أبا المجد والثانى أبا العينين

البحر جاوز العتبـــــه وله جرفين
شوّر عليه الدسوقى انظروا راح فين

دع هؤلاء القوم ، واستمع إلى هذا الشاب المجذوب الشيخ على . . . ينشد قصيدة فى السيد البدوى :

إذا ما شئت أن تحيا وتسعد — عليك بساحة البدوىّ أحمد
عليك بساحة قد حل فيها — أبو العباس ذو العلم المشيد
هو البحر الذى قد فاض فضلا — هو المدد الذى يُرجى ويقصد
يمد يمينـــه شرقاً وغرباً — بعزم قد حكى السيف المهند
أتت أم الأسير إليه تبكى — بدمع فوق خديها مبدد
وقالت يا أبا العباس ابنى — أسير فى يد الكفار يكمد
تحرك أحمد البدوى جهرا — ومد يمينه فأتى المقيد
وهذا قيــــده للآن باق — لرائيه على التابوت يشهد
له فى الخافقين علو شأن — علا فوق السماك وكل فرقد
وعبد العال صاحبه المفدى — لخدمته وصحبته تجرد
فنال بلحظه أوفى مقام — وصار بكل ناحية ممجد
وكم للأحمديه من مقام — له فى الجو مصباح توقد
لهم فى القفر أحوال حسان — وألوية غدت فى الكون تعقد

٩ — هيابنا نتجه صوب «باب الرخام» غربى المسجد فى الميدان الذى أمامه ترى قبالته حانوت «عم حسين المخللاتى» وهو ذو نسب فى صناعته، ورثها عنه ابناه وهو أعظم مركز لتموين الطلبة بالفول والمخللات والكوامخ والطعمية وما إليها! وعلى سلم الصهريج جلس النساء وأمامهن مشنات الفجل والكراث والبصل والليمون وما قاربها، وهن يكوّن سوق الخضر للطلبة



صورة تمثل باب الرخام (إلى اليمين) وبناء الصهريج من طبقتين فى (الوسط) وحانوت عم حسين (إلى اليسار) وعن يمين الصهريج شارع الكتبية وعن يساره درب الأثر

وتجد أحياناً بائع الجميز والخيار على حمار أو عربة فى انتظار أعيان المجاورين!

ولنتخطّ باب مدخل الصهريج، وننظر عن يسارنا، فنجد صفا

من حوانيت الوراقين ! أليس فى الكتب غذاء روحى ، فتكون بجانب الغذاء الجسمانى ؟ ! تأمل قليلا قبضة الرسائل أو الكتب الصغيرة بين يدى « الشيخ مصطفى تاج » رحمه الله ! إنه يفرز هذه الحزمة واحدة واحدة ليستخرج منها متن الآجرومية لطالب واقف أمامه ! فإذا لم يجده فيها أعادها إلى الرف وقبض قبضة أخرى وهكذا ، حتى يعثر عليه ! ثم يطلب فلسين ثمناً له ، فيساومه المجاور على فلس واحد ، فيضرع إليه الشيخ مصطفى بعبارات عذبة إن كان مسروراً ، أو ينتهره إن كانت قضيته مع زوجته لم تأت وفق مرامه ! تنتهى المعركة إما بدفع الثمن أو برد الكتاب إليه وانتقال الطالب إلى حانوت آخر .

كانت رفوف هذا الدكان ملآى بأكداس الكتب ، وكان غاصاً دائماً بالمشترين ، لأن أثمانه رخيصة وأخلاق صاحبه هينة ، ودكانه أول الدكاكين ، وعنده من الكتب المتداولة طلبة كل طالب ، مع أن مساحة الدكان لا تتجاوز ثلاثة أذرع فى مثلها ؟ !

تخطّ هذا الدكان إلى مجاوره دكان الشيخ «الشبينى» هو شيخ عالم يلبس الفرجية ويحترف الوراقة ، تر عنده قليلا من الكتب . إنه الآن يسب الطالب الذى رفض أن يشترى منه «الكفراوى» بثلاثة « تعريفات » ، وهو لذلك سيء السمعة عند الطلبة فلا

يشترى منه إلا مضطر أو غنى ، أو من جهل أخلاقه وأخلاق غيره من الكتبية ! دعك من هذه الدكاكين المتشابهة ، وقف أمام هذه المكتبة الفاخرة ! إنها واسعة نضدت بالفرش والأرائك ، وصُفَّت كتبها فى رفوف مغطاة بالزجاج . تأمل هذا الشيخ الطويل اللطيف الهادئ ! ذلك هو السيد عبد اللطيف الكتبي ! إنه يشبه العلماء ، ولكنه ليس بعالم ! إنه جالس إلى مكتبه يجالس جماعة من العلماء ، ويقدم لبعض المشترين كتباً قيّمة ! هذا هو طالب صغير قد اقتحم المكان غير هياب ولا وجل ، يسأله عن كتاب « الشيخ خالد » فيحدد له ثمنه قبل أن يخرجه ، حتى إذا رضى بالثمن فتح باب الزجاج المنزلق فى مجراه على مهل ، وناوله الكتاب بعد دفع ثمنه وانصرف .

انظر وأنت واقف مكانك إلى دكانى « التجليد » المجاورَين ، وتأمل هذا الشاب الصغير النظيف ، الذى صفف شعره وصقله ، إنه شاب يصنع « المجلدات الأفرنكية » بثلاثة قروش للجلد الواحد ، أما جاره فيصنع الجلود الورقية بخمسة أو ستة فلوس . ألق نظرة على الدكان المجاور الذى وقف فيه ذلك الرجل « الاسكندرانى » ! إنه يبيع الزيتون و « السردين » وأنواع الجبن والحلوى وما شاكلها ، وهو جزء متمم لتموين الطلبة بالغذاء ، ولكن تأمل ذلك الدكان الآخر بجانبه وهو دكان

«عثمان» بائع «الفول والسلاطة» ، إنه مزدحم بالمشترين وبأيديهم الأطباق والسلاطين ، ولكن دكان الاسكندرانى ليس فيه إلا شخص واحد أنيق ! إنه لا يشترى منه إلا الطلبة الأغنياء ، «الأرستقراطيون» الذين يستطيعون ويستطيبون أكل بضاعته !

١٠ — إذا جئت إلى باب الميضأة الشمالى الوحيد بعد صلاة العشاة ، حين يغلق هذا الباب ، وجدت كل الحوانيت التى فى الشارع أغلقت ، ما عدا اثنين أو ثلاثة منها ، صُفت على رفوفها أباريق وأكواب ، وعلى منضدة أو « نصبة » أباريق نحاسية صفراء ، من ذات الوقود الداخلى المعروفة (بالصنوار أو الصنافور) ؛ وتلك هى دكاكين صناعة الشاى : هذا عثمان الخادم جاء بسراويلة الواسعة وقرقله المطرز ، المصنوع من الجوخ ، وأخذ يصُف الكراسى والموائد على جانبى الشارع أمام أبواب الحوانيت المغلقة ، حتى ازدحم باب الميضأة فتخطاه إلى شارع الهنود .

اسمعه ينادى بنغمة خاصة (أُفاك ملان تلاته) أى أبريق صغير معه ثلاثة أكواب ثم (بكرج ملان أربعة) أى أبريق كبير معه أربعة أكواب . استمع إلى هذا الجارس الصغير ! إنه يطلب الخادم ليحمل ما أعده العامل من الشاى المطلوب لثلاثة أو أربعة !

بعد ساعة ترى الشارع قد اكتظ بالشاربين الذين وفدوا للتمتع بجلسة فى « مشارب الشاى » الفاخرة عند باب الميضأة ! وقد يمتع الطالب نفسه بالجلوس هنا مرة فى الأسبوع أو الشهر ، يدفع فى الجلسة نصف قرش ، يدخره لهذه التفكهة أو «الفشخرة» يحاكى بها التجار والأغنياء . إذ قلما يجرؤ طالب على الجلوس فى مشارب الشاى أو القهوة إلا إذا كان من الكبار الذين يهوون بعض هذه المشروبات أو يريدون تدخين « النارجيلة » ولا تنس أن شرب الشاى لم يكن مألوفا مثل اليوم !

١١ — سر بجانبى قليلا كى أحدثك حديثا من مثل ما يتحدث به السائحون ! هلم إلىّ ولندخل الجامع من الباب القبلى الوحيد ، ولنتزى بزى المسافرين القادمين من محط السكة الحديدية ! لا تكاد تصل إلى آخر شارع السكة الجديدة حتى يطالعك جيش من السائلين ، وأستحى أن أدعوهم « متسولين » تأدبا مع صاحب المقام الذى نحن أمامه .

هذا الجيش من الرجال والنساء والأطفال والشيوخ ، قد يتغاق الواحد منهم بذراعك متوسلا إليك بأحسن الدعوات المناسبة (ربنا يخلى لك ابنك) (ربنا يعوض عليك) (الله ينجح مقاصدك) ! والويل لك إن أخطأت ونفحت أحدهم بفلس أو لقمة خبز أو قرصة ، فإنك تُطوق فى الحال بشرذمة قوية ،

ويتعذر عليك السير فى طريقك ، وقد ينضم إليهم سقاء أو أكثر على ظهره إبريق أو قربة ، وهو ينادى « سبيل الله يا عطشان ! » يطلب إليك قرشا « ليسبِّل » لك ما على ظهره أى يسقيه الناس بلا ثمن ! وإذا كنت الآن لا تدرك قيمة « شربة الماء » لكثرة المياه النقية ووفرتها وسهولة الحصول عليها ، فتصور ذلك أيام كان الماء يباع فى الشوارع والحارات ! هؤلاء السائلون والسقاءون يطرّزهم أناس مبصرون أو غير مبصرين ، وقفوا يرتلون الأناشيد ذات المسحة الدينية ، أو جلسوا على « مكسلة » الباب يقرءون القرآن ، أو تربع أحدهم ويده فى حجره تشير إلى طلب الإحسان ، أو وقف ساكتا جامداً كالتمثال ، وقد مد يده يطلب الرزق الحلال ، فيستدر عطفك بمنظره هذا كى تسقط فى يده فلسا ، فإذا أحس به أدخل يده فى جيبه بسرعة ، وحرك شفتيه بدعوات مختارة . فإذا اقتحمت باب المسجد قابلك رجل نشيط (أو عدة رجال) وسار بجانبك يسألك « العادة » ويدعو لك بما يراه مناسبا ، أو يطلب قراءة يس ، أو سورة لك فى المقام ، حتى تدخل المقام ، فترى غيره وغيرهما من سائل وسقاء ، حتى ينقذك جلوسك فى الضريح ، أو التجاؤك إلى جماعة من المجاورين فيؤمن بقسوة قلبك ويبلغ منه اليأس منك منتهاه ، فيقفل راجعا ليصيد غيرك من الزوار الذين لا ينقطع سيلهم طول النهار » .

ويزداد طوفانهم وقت وصول القطارات وحط الرحال . وطالما نبه البواب والخادم بالمسجد أو المرافق رجلا فلاحا بالمقرعة على كتفه ، وهو يتوضأ أو يزور أو يطوف بالمزارات قائلا له : « العادة ! » .

وليست هذه المناظرة خاصة بالسيد البدوى ، فإن مساجد آل البيت وكثير من الأولياء قلما تخلو من أمثال ذلك برغم قانون « منع التسول » الآن .

وطالما طاردنى زميل لى (فى الحضور) ليست عيناه سواء ، عند زيارتى سيدى عبد المتعال ، ولم يخلصنى منه إلا تحيتى له « كيف حالك ياعم الشيخ حسن ! » .

١٢ — دعنى أحدثك حديثا طريفا ، ترددت كثيراً فى الإدلاء به إليك ، ولكن لايسعنى إلا أن أختم به القول فى الجامع الأحمدى ! ذلك هو حديث « لصوص المساجد » .

الجامع الأحمدى ، ككل المساجد فى المدن ، يؤمه كثير من المصلين عدا طلبة العلم فيه . وهم جميعا يخلعون نعالهم إذا دخلوه ، كما يخلعون أرديتهم وبعض ملابسهم أحيانا وهم يتوضئون أو يصلون ، وقد يشتغلون عنها بالتوضوء والصلاة أو المطالعة ، فتحين الفرصة للصوص الذين يتخذون المساجد مقرا لهم ، وهم فى حيلهم بارعون .

هذا الطالب « عبد الرحمن موسى » قد اشترى حذاء جديدا ووضعه بجانبه على عادة المجاورين . مر عليه رجل صعيدى فوضع بجانبه حذاءه القديم ، وأوصاه بأن يرعاه حتى يزور . التفت الطالب بعد قليل فلم يجد بجانبه غير النعل القديم الذى أودعه الرجل أياه .

وقبيل صلاة الفجر عند الحنفيات شاهدنا رجلا يقلب كفيه عجبا ! أمسك فى يده بسترة قديمة (چاكته) وقد انفجر ضاحكا وهو يقول : الحمد لله ! فسألناه عن حاله ، فأخبرنا أنه خرج من المنزل مهموما ولجأ إلى بيت الله ، بعد أن أخذ عباءته الجديدة على كتفيه ، ثم جلس يتوضأ فوضعها على كرسى حنفية أخرى بجانبه . قال : وكلما مررت بالماء على وجهى نظرت لأتحقق من وجودها ، فلما فرغت من الوضوء مددت إليها يدى ، فإذا بها قد قصرت « وكشت » حتى صارت إلى هذه السترة القديمة . وإنى أحمد الله إذ أزال هذا الفصل ما ران على قلبى من الهم ! ذلك لأن الليل وطرفيه خير فرصة للصوص المساجد .

نحن الآن فى درس الشيخ الوكيل بعد المغرب وكان مقودى قد سلم الى حذاءه الجديد كما هى العادة، فوضعت حذاءينا بجوار العمود . وبعد الفراغ من الدرس تفقدنا الحذاءين فلم نجد ذلك الحذاء الجديد . وكانت مشاجرة تلقيت فيها من الشتم والسباب

مالم أكن أستحقه . نحن مشغولون فى الدرس ، فجاء هذا اللص، وأظنه كان يراقبنا ، وسرق الحذاء .

ولست أنسى ليلة بتها فى المسجد ، كما كان يحصل من بعض الطلبة ، فقمت من النوم فوجدت جيب الصديرى مشروطا وحذائى ضائعا. توجهت إلى « تل الحدادين » حيث تباع الأحذية القديمة أو المستعملة المعروفة بالتغييرة ، فعثرت على « مركوبى » هذا بعينه . ولكنى لم أحكم الخطة التى رسمتها لاسترداده عن يد الشرطة ، فضاع منى ثانية ، فاشتد أسفى لضياعه مرتين ، مرة فى النوم وأخرى فى اليقظة ، بعد أن ترك حسرة فى قلبى ، وإفلاسا فى جيبى .

هذا ، ولا تسل عن اللص الذى يضبط فى الجامع متلبسا بالسرقة ، فإنه قد يهلك من الضرب قبل أن يساق إلى الشرطة ، وسبحان الرزاق !

السيد أحمد البدوى

٥٩٦ هـ — ٦٧٥ هـ

١١٩٩ م — ١٢٧٦ م

١ ـ هو سيدى احمد بن على بن ابراهيم . ويلقب « بالسيد » لمنزلته ومكانته من بيت النبوة ، و « بشيخ العرب » لجوده وكرمه ، و « بالبدوى » لزيه وتلثمه على عادة بدو أفريقية . وكنيته « أبو الفتيان » و « أبو الفرج » أو « أبو فراج » لما نسب له من تفريج الكروب والشدة على يديه . ويدعوه الصوفية « الصامت » و « القطب » ويعتبرونه أحد الأقطاب الأربعة ، سيدى عبد القادر الجيلانى وسيدى أحمد الرفاعى وسيدى ابراهيم الدسوقى .

٢ ـ ولد بمدينة فاس ، لأن أسرته هاجرت إلى المغرب عقب فتن الحجاج ، حين أكثر القتل فى الشرفاء ، ثم رجع به والده إلى مكة وهو صغير سنة ٦٠٣ هـ ١٢٠٦ م حيث توفى والده سنة ٦٢٧ هـ ١٢٢٩ م ودفن بالمعلاة .

٣ ـ حفظ القرآن الكريم ، وتلقى العلوم العربية والدينية على مذهب الشافعى ؛ ولم يكد يتم حياته العلمية حتى عكف على التعبد فى جبل أبى قبيس بعيداً عن العالم ، فكان يمضى كثيراً من

وقته متخلصاً من ظلمات المادة ، ناظراً لما وراءها ، متطلعاً للشهود الإلهى . ومع أنه كان فى ريعان الشباب ، شغلته الروحانيات عن الشهوات فامتنع عن الزواج ، وانتصر على « فاطمة بنت بزى » وكانت امرأة ذات جمال بديع ، ولها حال عظيم ، إذ كانت تسلب الرجال أحوالهم ، فسلبها حالها ، وتابت على يديه ، وصارت لا تتعرض لأحد بعد ذلك .

٤ — ويقال إنه رأى فى منامه ما يدعوه إلى الرحلة والسياحة ، فرحل مع أخيه الأكبر حسن سنة ٦٣٣ هـ ١٢٣٥م إلى العراق ، حيث كان الناس يقدسون السيدين أحمد الرفاعى المتوفى سنة ٥٧٠ هـ ١١٧٤ م وعبد القادر الجيلانى المتوفى سنة ٥٦١ هـ ١١٦٦ م . ثم طاف كثيراً من البلدان الإسلامية ، وزار كثيراً من قبور الأولياء ، حتى هبط مصر واستقر بطنطا فى ربيع الأول سنة ٦٣٧هـ اكتوبر سنة ١٢٣٩ م بعد أن تركت زيارةُ الربانيين والأولياء فى نفسه أثراً أتم عليه الفتح الإلهى والفيض الربانى .

٥ — جاء السيد إلى طنطا (أو طندتا ، طنتدا) فى زى العرب ، ونزل على واحد من أهلها ، وآثر أن يعيش فوق سطح البيت شاخصاً ببصره إلى السماء ، منصرفاً إلى الله ، لاهياً عن الكون وما فيه . وكان كثير الصيام قليل الكلام ، يقرأ القرآن من المساء إلى الصباح . ولم يلبث أن طار صيته فى الآفاق ،

فشرّق ذكره وغرّب ، حتى هرع الناس إليه ، وتوافدوا عليه ، فكثر أتباعه ومريدوه ، وهدى الله على يديه كثيراً من خلقه . ولما كان تلاميذه قد اعتادوا المكث معه فوق « السطح » سموا بعد ذلك « أصحاب السطح » أو « السطوحية » . وأتباعه يعرفون « بالأحمدية » وشارتهم العمامة الحمراء . والجماعة « البيومية » و « الشناوية » و « أولاد نوح » و « الشعيبية » فروع للأحمدية . وكان السيد يلبس عمامة اعتاد ألا يخلعها للغسيل حتى تبلى . وقد احتفظ خليفته بطرف من عمامة له واتخذها شعاراً ؛ ويقال : إن العمامة التى يلبسها الخليفة فى « المولد » هى عمامة الشيخ بيده . وكان يلبس أيضاً « بشتاً » من الصوف الأحمر ، ويظن أنه من لباس سيدى عبد المتعال .

٦ — ويقال إن شهرة السيد البدوى بطنطا قد علت على كل من كان فيها من الأولياء ؛ فهجرها بعضهم مثل سيدى « حسن الصائغ » إذ خرج إلى « إخنا » قائلا : ما بقى لنا إقامة ، صاحب البلاد قد جاءها ، وضريحه هناك مشهور يزار . أما «سيدى سالم» المغربى فقد سلم للسيد ولم يتعرض له فأقره ، وقبره فى طنطا مشهور بدرب الأثر .

ومن خيرة مريديه الشيخ محمد المسمى « قمر الدولة » وهو لم يصحب السيد زمانا ، وإنما يقال : إنه شرب بطيخة تقايأ فيها

السيد ، فقال له : أنت قمر دولة أصحابي ! فاغتاظ من ذلك سيدى عبد العال وأصحابه وأرادوا الفتك به ، فدخل من البئر عند كوم « تربة النفاضة » وخرج من البئر التى بناحية نفيا . وكان « قمر الدولة » من أجناد السلطان محمد بن قلاوون ، وعمامته وثوبه وقوسه وجعبته وسيفه ، معلقات فى ضريحه بنفيا .

وقد عاش السيد فى طنطا كذلك إحدى وأربعين سنة ، توفى بعدها فى ١٢ من ربيع الأول سنة ٦٧٥ ﻫ (أغسطس ١٢٧٦م) بعد أن استخلف بعده « عبد العال » الذى لازمه أربعين عاما منذ طفولته ، وحمل آثاره ، وهى « البشت » الأحمر ، ولثامه ، وعلمه الأحمر ، وابتنى خلوة على قبره ، صارت على مر الأيام مسجدا كبيرا ، هى الجامع الأحمدى .

ويظهر أن « عبد المتعال » كان صارماً مع أتباعه ، ورتب العشائر ، وتوفى ٧٣٣ ﻫ ١٣٣٣ م

٧ — ويقال إنه لما قدم السيد من العراق ، خرج معاصره الملك الظاهر بيبرس أبو الفتوحات هو وعسكره من مصر ، وتلقوه وأكرموه غاية الإكرام . ويقال إنه كان يقدسه وإنه قبل قدميه . وإذا صح هذا وما يماثله من الأخبار — كان دعاية سياسية .

وكان السلطان قايتباى كثير الإعجاب بالسيد ، وقد زار قبره

سنة ٨٨٨ هـ ١٤٨٣ م ووسع مقامه فيما بعد. وكان خلفاء السيد البدوى يسيرون فى المواكب الدينية، أيام سلاطين المماليك، جنبا إلى جنب مع كبار علماء الدين فى الدولة. أما فى عهد الحكم العثمانى فالظاهر أن مظاهر الاحتفال به لم تكن تتفق وأنظمة الأتراك السياسية الصارمة. ولكن ذلك لم يحل دون تقديس أهل مصر له. فعناية المرحومين على بك الكبير وعباس الأول بأبنية الجامع والقبة، ومقرأة سعيد باشا وزيارات أحفاد محمد على له (اسماعيل باشا وعباس الثانى والسلطان حسين وفؤاد والملك فاروق الأول) خير شاهد على ذلك.

٨ — هذه خلاصة عدة مراجع، ننشرها مع شيء من التحفظ والتأدب والتعقل، وقد أحاط الناس والمؤلفون سيرة السيد — شأن كل من له شأن فى العالم — بالأساطير والخرافات من مناح عدة، حتى إن الشيخ الشعرانى كتب عنه فصلا يفيض بالتبجيل والتقديس. قال فى الطبقات: شاهدت بعينى رأسى سنة ٩٤٥ هـ ١٥٣٨م أسيراً على منارة سيدى عبد العال رضى الله عنه، مغلولا مقيداً، وهو مخبط العقل. فسألته عن ذلك فقال «بينا أنا فى بلاد الإفرنج آخر الليل، توجهت إلى سيدى أحمد، فإذا أنا به فأخذنى وطار بى فى الهواء فوضعنى ههنا». فمكث يومين ورأسه دائر عليه من شدة الخطفة. اهـ ومن هنا جاءت الكرامة المشهورة

بين العوام ، وهى أنه جاء بالأسرى من بلاد الإفرنج .

ومن الحكايات الملفقة ما يروى : أنكر بعضهم اختلاط الرجال والنساء فى المولد ، فقال السيد «وذلك واقع فى الطواف ولم يمنع منه أحد» ثم قال « وعزة ربى ! ما عصى أحد فى مولدى إلا تاب وحسنت توبته ! اه .فهل كان ذلك فى حياته ؟ وهل كان المولد يقام قبل موته ؟ وكيف تكلم ؟ هذا ومما لا شك فيه أن التوسل به وبغيره من الأولياء ، عناصر مصرية قديمة .

٩ — ومما يجدر ذكره أن هناك أضرحة تحمل اسم « السيد البدوى » فى بلاد متفرقة ،من ذلك واحد بين « ترب الصحابة » بقرب أسوان ، وثان فى طرابلس الشام ، وثالث بالقرب من غزة ! وهذه الملاحظة نجدها فى كثير من الأولياء ، ومن أشهرهم من يسمى «سيدى الأربعين» .

ومما نسب للسيد البدوى (ولعله ممن يتمثل به !)

دعنى لقد ملك الغرام أعنتى	لكننى خضت البحار بهمتى
أصبحت فى حاناتها متجرداً	بين الصفا أسعى وبين المروة
نشوان ما بين الدنان مهرولا	الحب يسقينى ودنى كعبتى
لم يشرب العشاق من بحر الهوى	إلا بقية نقطة من طينتى
سكروا بها فتهتكوا وتصببوا	وأنا طويت الحب تحت طويتى
فقرأت من توراة موسى تسعة	تليت على موسى لها لم يثبت

وقرأت من إنجيل عيسى عشرة   تليت على عيسى فزادت رفعتى
وقرأت من نهج الغرام مسائلا   وأتيت فيها من شواهد فطنتى
وقرأته وفهمته وشرحته   وجعلت فيه من شواهد حكمتى
وبدايتى فى ذاك كتمان الهوى   من بعد ما أفنى الغرام بقيتى
أنا بلبل الأفراح صاحب أنسها   كم بلبلت فى حالتى من فتية
أنا صاحب الناموس سلطان الهوى   أنا فارس الأنجاد حامى مكة
أنا أحمد البدوى غوث لاخفا   أنا كل شبان البلاد رعيتى
ثم الصلاة على النبى وآله   والصحب ثم التابعين وعترة
وكذا السلام مضاعفا عدا الحصى   والرمل، ما سار الحجيج لطيبة

أنا الملثم سل عنى وعن هممى   ينبيك عزمى بما قد قلته بفمى
قد كنت طفلا صغيرا نلت منزلة   وهمتى قد علت من سالف القدم
أنا السطوحى واسمى أحمد البدوى   فحل الرجال إمام القوم فى الحرم
لك الهنا يا مريدى لا تخف أبداً   واشطح بذكرى بين البان والعلم
إذا دعانى مريدى وهو فى لجج   من البحار نجا من صولة العدم

فى كتاب مناقب السيد البدوى المسماة بالجواهر السنية والكرامات الأحمدية للسيد عبد الصمد — خاتمة تتضمن القصائد التى قيلت فيه، أو نسبت اليه، مرتبة على حروف المعجم، وعددها نحو ستين قصيدة.

الموالد

نرى الآن فى مدينة طنطا حركة غير مألوفة ، فى الشوارع المحيطة بالجامع الأحمدى أو قريبا منه خاصة ، فكبار التجار يختزنون بضائع جديدة كثيرة ، والحوانيت الكبيرة يتولد منها حوانيت صغيرة مؤقتة ، وتتبدل حوانيت بأخرى ، وجميع التجار والصناع والعمال فرحون مستبشرون ، كأنما يرقبون خيراً ويستقبلون موسما . لماذا كان هذا ؟!

أنظر إلى هذا الرجل المنادى ، الماشى فى وسط الطريق ، وقد حمل فى يده عصا طويلة ، علق عليها ورقة رسمية مختومة بخاتم أميرى ! اسمع ! قد وقف أمام « وكالة » الحاج حسن بدوى الفطاطرى ، وأخذ يتلو كلاما أشبه بالخطبة ، فابتدأ باسم الله وحمده والصلاة على نبيه ، ثم ترضى عن آل البيت وكثير من الأولياء ، وأعلن القرار الصادر برسم مولد السيد البدوى فى تاريخ . . . . ! ها هو ذا الحاج حسن قد نفحه بقبضة من الدراهم مبتهجا كلاهما ، قائلا : كل عام وأنتم بخير ! وهكذا يستمر هذا المنادى فى طريقه ، وحوله شرذمة من صغار الخلق وكبارهم .

دعه يمر فى الشوارع ليرتزق من إعلانه السارّ ، وتعالى معى إلى الجهات الخالية بقرب المستشفى الأميرى والمدرسة الابتدائية ، ثم انظر تر هذه الأرجاء الشاسعة قد فرشت بحب أصفر ! ذلك هو الحمص الذى ينشر فى الشمس قبيل المولد لحمله إلى المقالى « وجوهرته » فيها ، والحمص هو السلعة التى لا يفلت من حملها زائر من زوار السيد فى المولد ، حتى إن المثل « رجع من المولد بلا حمص » صار يضرب لمن لا يحصل من عمله على نتيجة ، فيبوء بخفى حنين !

إذا مررت بشارع السكة الجديدة والشوارع المحيطة بالجامع ، رأيت حوانيت الحمص المتلاصقة وبينها « المقالى » الكثيرة على مسافات قريبة ! هيا بنا إلى « الملقة » لنشاهد المهندسين مشغولين فى مسح الأرض وهندستها ، ورسم الطرق والشوارع فيها ! ههنا تنصب مئات الخيام والسرادقات التى ينزل فيها رواد المولد ! وهؤلاء الفلاحون جادون فى تقليع الذرة قبل بدو صلاحها ! إنهم قد آجروا أرضهم « للموالدية » لينصبوا فيها خيامهم ، وقد حصلوا من إيجار الأرض فى أسبوع المولد أضعاف الإيجار السنوى ، ولذلك يتركون زرعهم عن طيب خاطر ! وإذا قدر لك الحضور إلى المولد وجدت مساحة واسعة تبلغ نحو ألف فدان قد غطيت بالخيام والسرادقات التى تصل إلى قرية « سيجر » !

أما نحن المجاورين فمسرورون للمساحة فى المولد ثلاثة أسابيع

أو أربعة ، إذ يشغل المسجد بالزائرين وأصحاب « العادات » ممن لا يملكون خيمة أو لا ينصبون سرادقا فى ساحة المولد . فضلا عن الزيارات أو « الموالد الصغيرة » التى نشهدها قبل المولد يوم الأربعاء من كل أسبوع . كانت خمس زيارات تقام فى خمسة أسابيع قبل مولد السيد ، وهى كما يأتى :

١ — زيارة سيدى خلف بميت حبيش البحرية .

٢ — زيارة قمر الدولة بنفيا .

٣ — زيارة سيدى حسن الصائغ بإخنا .

٤ — زيارة سيدى عبد المجيد سالم بفيشا الصغرى أو فيشا المنارة .

٥ — زيارة سيدى عبد الوهاب الجوهرى بمحلة الجوهرية.

فتعال بنا إلى قنطرة سمنود لنمتطى مركباً فى ترعة الجعفرية إلى قرية نفيا حيث تقام زيارة سيدى « قمر الدولة » ، وقد علمت أنه شارب قىء السيد ، وأسطورة هربه فى البئر من كوم « تربة النفاضة» إلى البئر فى نفيا . لا تنس أن تحتفظ معك بفلس أجرة « المركب» إذا كثرت السفن ؛ أما إذا قلت فقد يضاعف الأجر . ها نحن أولاء بنفيا نرى سوقاً كبيراً ، يزيد عليه ماهو معروف فى المولد من الخيام المعمورة بالأذكار والصلوات . وغير ذلك ترى المأكولات والمشروبات (المباحة طبعاً) حتى « البوظة »

التى احتسينا منها قليلا فلم أر فيها ما يحببها إلىّ . وإذا طفت بالمولد وجدت المقاهى المتنقلة ، وفيها الغناء والرقص والطرب ونحوها ، وكذلك « الحـاوى » وبائعو الطبـل والمزامير والصفارات والشخاشيخ وغيرها ، ولا تنس الواشمين بصورهم الجذابة ، وبائعى المأكولات والحلوى وغيرها . هذه صورة مصغرة لكل من هذه الزيارات ، بل لعل نفيا فى زيارة « قمر الدولة » كانت أوسع وأكبر وأكثر من غيرها .

كانت فرصة يتمتع فيها المجاورن كل أربعاء بمولد أو زيارة تجعلهم يزهدون فى حضور مولد السيد ، لأن طنطا سجن أبدى لهم يودون الفرار منه ، ولئلا يصرفوا فى المولد من النقود ما قد ينفعهم فى المجاورة .

١ — هذا الذى رأيته كان مقدمة لأحد الموالد الثلاثة ، وهو المولد الـكبير . لعلك تذكر أن وفاة السـيد البدوى وافقت تاريخ مولد النبي صلى الله عليـه وسلم فى شهر ربيـع الأول سنة ٦٧٥ هـ وذلك يوافق شهرى أغسطس ومسرى . ومع أن الموالد تقـام الآن على أنها احتفال دينى ، شـجعته الظروف السياسية ، وأنها أسواق رسمية تحدث رواجاً تجارياً ، فإنها مواسم للعبادة ، إذ تقام فيها الصلوات والأذكار ، وتعقـد الحضَـرات والحلقات ، وتقدم فيها النذور وتوزع الصدقات . وقد يكون ذلك كله تقليـدا موروثا ، فيذكرون فى نشأة المولد الـكبير ،

أن السادة الصوفية جاءوا إلى طنطا عقب وفاة السيد ، ليعزوا فيه خليفته سيدى « عبد المتعال » ، ولما أرادوا الانصراف خرج معهم ليودعهم خارج البلد ، فوعدوه بالرجوع إليه كل عام لزيارته وزيارة شيخه . والمعروف عند أهل « الطريقة » أن « العادة » عندهم تثبت بمرة ، فإذا زارك أحدهم فى وقت ما ، صارت « عادة » يزورك فى مثل هذا الوقت ، وإذا استضفت أحدهم مرة ، فارتقبه المرة الثانية فى ميعاده . ولهذا ترددوا كل عام على خليفة السيد يشتغلون بذكر الله وعبادته ، وشاع ذلك ، حتى كثر الوافدون عليه من كل حدب ، وثبت هذا المولد .

ويبتدىء المولد عادة « بركبة الحاكم » يوم الجمعة عقب الصلاة ، فيطوف « الحكمدار » فى أرجاء المدينة فى كوكبة من الفرسان ، إعلانا للمولد ، ويوزع الجند للمحافظة على النظام ، وينتهى المولد عقب صلاة الجمعة الثانية « بركبة الخليفة » أى ركوبه على حصان من « باب السر » فى موكب حافل من أتباعه ، ومشايخ الطرق ، ثم يطوف فى أنحاء طنطا ، وبذلك ينتهى المولد ؛ ومن هنا جاء المثل الذى يضرب للفراغ من عمل ما « ركب الخليفة وانفض المولد » ولا تمضى ليلة السبت حتى ترى الخيام والسرادقات قد قوّضت وحملت على الجمال وغيرها وأصبحت الملقة قاعا صفصفا .

(٢) أما المولد الصغير ، فيكون عادة فى برمودة (مارس — ابريل) ، ويقولون فى نشأته إن الشيخ الشرنبلالى

دعاه الشوق لزيارة السيد قبل ميعاد المولد الكبير فحضر مع اتباعه لذلك ، وصارت « عادة » تكوّن عنها مولد ثان .

(٣) وثالث الموالد هو المولد الرجبي أو الرجبية ، ويكون فى أمشير (فبراير) ويعرف بمولد « لف العمامة » . ويذكرون أن الشيخ الرجبي أو الشيخ رجب من المحلة الكبرى حضر مع أتباعه لتجديد العمامة التى توضع على قبر السيد البدوى فجعلها عادة ، ولهذا سمعت أن أهل المحلة قلما يزورون السيد إلا فى هذا المولد ، كما سمعت أن لفافة عمامة السيد البدوى يقوم بتوريد نسيجها « شاشها » أهل المحلة .

ومما ألحظه فى تسمية هذا المولد — مع احترامى للتاريخ إن صحت روايته — أن الناس الآن يدعونه « الرجبية » أى الزيارة التى تكون فى رجب ، وتستعمل هذه التسمية فى الزيارة « الرجبية » التى يقوم بها كثير من المسلمين لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم فى شهر رجب ، قبل موسم الحج ببضعة أشهر

هذا ويرى بعض الفلاسفة أن هذه الموالد الثلاثة ، بأوقاتها المعينة بالشهور القبطية ترجع إلى أصل غير إسلامى ، وأيا كان أصلها ، فانها لاتزال حية ، وإن كانت تقام فى غير التواريخ المذكورة ، ولا يمنع من إقامتها إلا أحداث صحية أو اجتماعية تحول دون اجتماع هذا الخلق الحاشد ، الذى قد يصل تعداده إلى مئات الألوف ، و « لاتجتمع أمة محمد على ضلالة »

النذور وصندوقها

المرحوم حافظ بك ابراهيم في أضرحة الأولياء :

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم وبألف ألف ترزق الأموات
من لى بحظ النائمين بحفرة قامت على أحجارها الصلوات
يسعى الأنام لها ويجرى حولها بحر النذور ، وتقرأ الآيات
ويقال: هذا القطب باب المصطفى ووسيلة تقضى بها الحاجات[1]

(١) كان الشيخ «سالم ابو جاموس» يقنى كثيراً من الماشية لأنه من كبار المزارعين . وفى سنة مـا ، انتشر الطاعون فى البهائم فنذر للسيد البدوى أكبر ثور عنده إذا نجت ماشيته من هذا الوباء . وقد مر عندهم الطبيب البيطرى فلقح ماشيته بالمصل المضاد ، وبذلك نجت هذه الماشية ، فسر الرجل سروراً عظيما وصمم على الوفاء بالنذر . أخبر زوجه بعزمه على السفر إلى طنطا لتسليم الثور الذى نذره ليدور فى ساقية السيد ، فأبدت رغبتها فى السفر معه لقضاء نذر آخر عليها ، وذلك أن البقرة الحلوب امتنعت عن الدرّ أسبوعا أو نحوه ،

(١) ديوان حافظ ج ١ ص ٣١٨ .

فنذرت للسيد إن عاد للبقرة لبنها ، لتصنعن له كيلة « قراقيش » من لبنها وتذهب لزيارته .

سافر الرجل وزوجه إلى طنطا ، فسلم الرجل الثور لخدم السيد ، بعد أن سُجل فى الدفتر المعد لذلك ، ثم دخلا الجامع معا ، وأخذ الرجل يوزع الفرنىّ على الجالسين والجالسات فى الأضرحة ، ثم بذرا مابقى أمام المزارات فى المسجد ، فهرع اليهما الخدم والمجاورون لينالوا مما بذر نصيبا . ولم تنته هذه الحركة ، حتى شوهد بعض الفلاحين يفك وكاء حقيبة (زكيبة) مملوءة ذرة مشوية على حافة الصحن ، فأسرع المجاورون لذلك ، وكادوا من كثرتهم وانكبابهم وتزاحمهم يقتلون الرجل، لولا أن أسرع فترك الذرة والحقيبة ، حتى جاءوا على آخر مطر (كوز) منها .

ومن المناظر التى لا أنساها ، تلك البدر الفضية القشيبة . التى نثرها زائر مغربى كبير ، قدم من المغرب الأقصى لزيارة السيد ، فكان يدخل يده فى جيبه ويرمى بالحفنة على حافة صحن الجامع حيث أخذ الدهش المجاورين ، فشغلهم رنينها وبريقها وقتا ماعن التزاحم على التقاطها .

٢ — إذا مررت بقرية من القرى ، وسألت الفلاحين عما عندهم من النذور للسيد ، وجدت هذا قد نذر نصف عجلته الجاموس للسيد، وذاك قد خصص أربعة قراريط من ابن البقرة،

وثالثا عليه خروف يعمل به ليلة للسيد . وقد نذرت هذه المرأة أنه عندماتفرخ الدجاجة المرخم، يكون للسيد فى افراخهاالنصف فتُعنى بالأفراخ وتحافظ على حقالسيد ، فتذبحه وتطعمهللفقراء والفقهاء ، أوتبيعه وتحتفظ بثمنهعلى أن تشترى به بطا أو وزا ، ثم تبيع هذا وتشترى بثمنه نصف خروف ، فإذا كبر اشترت بالنصف خروفا أو نعجة يكون نتاجها خالصا للسيد ؛ فإما أن تذبح بعضه وتطعمه للمستحقين أو تبيعه وتبعث بثمنه للسيد ، أو تحمله بنفسها لتضعه فى « الصندوق » صندوق النذور بمقام السيد . وهكذا لاتجد بيتا من بيوت الفلاحين إلا وللسيد فيه نصيب ، قل أو كثر . ومن المدهش حقا أن نرى فقراءالناس هم الذين يكثرون النذور ويقيمون ليلة السيد فى كل عام ، ويحملون « العادة » إلى السيد من « البنين » أو « القراقيش » أوالقرص ، أوالخبز ، مع أنهم قديكونون فىأشد الحاجةإلىأقل منها . والأغرب أن تجد هؤلاء الناس أحرص على نصيب السيد وأشد محافظة عليه ، مما يملكون هم .

أما الفول النابت فقد تقام له الحفلات العظيمة بمناسبة موالد بعض الأولياء فى مصر خاصة . ولعلك شهدت الذبائح والمأكولات التى تستهلك فى مولد السيد .

وأما نذر الشموع فليس للسيد وحده ، بل هو عام فى سائر

الأولياء ، ولا يقتصر على المسلمين بل قد يتخطاهم إلى المسيحيين فى كنائسهم ، واليهود فى بيعهم ، وغيرهم .

٣ — اختصم بعض العرب فى قبيلة ما ، فتحاكموا — على عادتهم — إلى مجلس يرأسه شيخ العرب فلان ، وبعد سماع أقوال المتخاصمين قضى بأن يدفع فلان مبلغ ٥٠ جنيها للسيد البدوى .

وعلى هذا يقوم بالمبلغ فلان وفلان ، فيضعونه بأيديهم فى الصندوق . كان ذلك أيام تداول النقد الذهبى ، فحضر هؤلاء العربان بملابسهم البدوية ، وتوجهوا للمشيخة فأرسلت معهم من يحضر وضع النقود فى الصندوق إعلانا لذلك وتأكيدا .

ولا يكاد الجالس فى مقام السيد يقضى لحظة حتى يرى أمام الصندوق من يعد نقودا يريد إيداعها .

٤ — إذا زرت ضريحا من أضرحة الأولياء ، أو مررت على بعضها من الخارج ، وجدت بها غالبا فى نافذة أو كوة أو أمام المقصورة صندوقا خشبيا صغيرا فيه شق (أو شقان) مستطيل فى أعلاه أو غطائه ، يزيد طوله على قطر الريال الفضى . هذا الصندوق هو صندوق النذور ، تودع فيه النقود التى نذرها أو تبرع بها أصحابها لهذا الولى أو ذاك . أما صندوق السيد البدوى فهو كبير ، طوله أكثر من ذراعين ، وقد غطيت جوانب فتحاته

بقطع معدنية متينة ، لتقاوم أثر احتكاك النقود المعدنية عند وضعها ، كما حليت جوانبه وزركش كثير من أجزائه بمثل ذلك .

٥ — تعالى معى إلى باب مقام السيد البدوى يوما معينا ! إن المقام مغلق دون الزوّار ، وفى داخله حركة ، والبشر يعلو وجوه الخدم ، وخدام المقصورة جالسون أمام الباب المغلق ! قف أمام الشباك وانظر من خلال الشبكة النحاسية ترَ فى الركن الغربى القبلى جماعة من العلماء المعممين والموظفين المطربشين ، قد افترشوا بساطا خاصا فوق البساط الغليظ المفروش دائما فى المقام .

ماذا ترى أمامهم ؟ ! كومة من النقود الذهبية والفضية وغيرها ، هى كل ما اجتمع فى صندوق السيد منذ ستة أشهر ، أو مابين المولدين . أنصت كى تسمع الصوت الذى فى داخل المقام ! إنه رنين النقود التى يعدها أعضاء لجنة فتح الصندوق . هاهم أولاء قد فرغوا من عدّ ما كان فى الصندوق ووضعه فى أكياس وكتابته فى قائمة . أنظر إلى أصابع هذا الشيخ الذى خرج من المقام وقد تلوثت بصدأ النقود من أثر عدّها !

٦ — دعنى أحدثك حديثا رسميا عن صندوق نذور السيد البدوى لما سترى من أهميته :

١ — كان الصندوق يُفتح مرتين فى السنة ، عقب كل مولد،

ومنذ مدة صار يفتح كل شهر ، فى يوم الاثنين أو الأربعاء ، الأول من النصف الثانى من الشهر ، لكى تباع المصوغات التى يحتويها فى قلم الدمغة . وكانت قبل ذلك تباع بالممارسة فى سوق الصاغة العامة . وكانت النقود الرديئة أو الزائفة تباع فى الصاغة بالممارسة ، بنسبة تقرب من ٤٠ ٪ من قيمتها الاسمية ؛ مثلا : ١٧ جنيه بيعت بسعر ٦ جنيه و٣٧ جنيه بيعت بسعر ١٠ جنيه .

ب — من محتويات الصندوق :

١ — نقود : عملة مصرية ـ عملة أجنبية إسلامية : سورية ـ فلسطينية ـ تركية .

٢ — مصوغات

٣ — ورق يانصيب (أحيانا) .

٤ — شكاوى .

٥ — ماركات المقاهى .

وقد وجد مرة ٧٠ ج مشبوكة بمشبك { ورقة من ذات ٥٠ ج
ورقتان من فئة العشر ٢٠ ج }

وكان متوسط إيراده السنوى نحو ثلاثة آلاف جنيه .

وأكبر « فتحة » فيه كانت عقب المولد الذى أقيم فى أكتوبر سنة ١٩٢٨ والذى حدثت فيه حادثة « الكوبرى » فقد بلغت قيمته

فى شهر واحد ٢٧٠٠ج مصرى ويوجد فى صندوق سيدى عبد العال ماقيمته ١ ٪ من صندوق السيد

ح — ويقوم بفتح الصندوق لجنة مكونة من :

(١) مندوب عن شيخ المعهد .

(٢) مأمور الأوقاف أو أحد معاونيه .

(٣) مفتش من وزارة الأوقاف .

(٤) الخليفة .

(٥) إمام المسجد .

(٦) صراف المأمورية ، لتسلم النقدية .

ء — أما محتويات الصندوق فكانت توزع بالنسبة الآتية:

٩ ٪ للخليفة الأول .

٩ ٪ « الثانى .

٩ ٪ الشيخ القويسنى ، منحة من ابراهيم باشا بصفته « السادن » الخادم الكبير للقبة الأحمدية .

٢٠ ٪ للعلماء .

٢٠ ٪ للموظفين .

٣٣ ٪ للطلبة .

١٠٠

وكان شيخ الجامع يأخذ نصيبين ، أو ضعف عالم من الدرجة الأولى

وشيخ المالكية يأخذ ١ ½ نصيب عالم من الدرجة الأولى

وقد توفى الشيخ مرسى طبل فى ٤ من أغسطس سنة ١٩٢٨ وبموته انتهت مشيخة المالكية .

وفى شعبان سنة ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥م) كان مقدار ماقبضته من الصندوق ١١٨ قرش وهو ضعف ما كان يقبضه طالب الدرجة الثالثة ، وثلثا نصيب طالب الدرجة الأولى .

(٧) ولأقص عليك قصة طريفة ، رواها زميل قديم أثق بصدق روايته ، قال :

نذر بعض الفلاحين ٧٠ قرشا لسيدى ابراهيم الدسوقى ، فأعطاها لأخيه العالم بالجامع الأحمدى كى يوصلها إلى دسوق. طمع فيها هذا العالم وأنفقها فى شئونه قائلا فى نفسه : نحن أولئك الذين يئول إليهم أمر هذه النذور ، فنحن أولاد السيد ، والسيد وسيدى ابراهيم واحد .

ثم يقول الشيخ: إنه رأى فى منامه جلسة من الأولياء والصالحين أعدت لمحاكمة المذنبين ، ورأى فيها من كان يحكم بإعدامهم ، ومن كان يحكم عليه فيجلد ، وكان هو من المقدمين للمحاكمة منتظراً دوره . أخذ منه الرعب كل مأخذ طول مدة الانتظار لهول ما رأى من الأحكام والتنفيذ! جاء دوره ووقف أمام القضاة ، وبجانبه سيدى ابراهيم الدسوقى ، فسأله الرئيس : ماذنبه ؟ فقيل :

أؤتمن نخان !؟ فسئل فى ذلك فدافع عن نفسه بما دار فى خلده عند صرفه النقود . فشفع له السيد — وهو أحد القضاة — بتأخير المحاكمة حتى يَعد بأداء ماعليه . ُسر الشيخ لهذه النتيجة وأصبح من فوره متجهـا إلى دسوق ، مسافرا بقطار الساعة الخامسة صباحا ، بدون إفطار أو شرب قهوة على غير عادة . وما إن وصل إلى دسوق حتى يمم الجامع الدسوقى ؛ وهناك فى المقام ألقى بالمبلغ فى صندوق النذور قائلا : خـــذ ، ويغور اللى يعرفكم !!

ثم عاد مسرعا ، يطلب باب الجـامع إلى المحطة . يقول الراوى : لم يكد الشيخ ينتعل حتى وجـد على الباب عربة فيها راكب وجيه ، ومعه حاشيته ، فقال له : تفضل ياسيدنا الشيخ ! وأركبه معه حتى وصلا إلى المحطـة ، فأوما الوجيه إلى خادمه فأحضر تذكرتين بالدرجة الأولى . ولما ركبا القطار قدم إليه هذا الوجيه فطورا من خير ما يؤكل ، ومكثا معا طول الطريق والشيخ لايستطيع سؤاله عن شخصيته ، ظنا منه أنه ربما كان من معارفه ، حتى وصلا إلى باب الخروج بمحطة طنطا ، وهناك سلم عليه هذا الرجل ، وربت على كتفه ، عاتبا قائلا : مع السلامة! وليه يغور اللى يعرفنا ؟!

ثم اختفى هذا الوجيه ، ووجد الشيخ نفسه فى طنطا .

أذكر هذه الحكاية كما رواها الصديق ، بروح هذا الشيخ الذى كان المرح يسوده وأنا بين مصدق مسئول ، ومتأدب أمين فى النقل !

٨ — وقبل أن نختم هذا المقال ، يجدر بنا أن نذكر أن لهذه النذور والهدايا وجهين : أحدهما مقبول ، والآخر قد تشوبه المجوسية . أما الوجه الأول فالنذر لله ولكن يقيد بمكان معلوم ويُصرف لجهة أو طائفة معينة . وهو من هذه الناحية صدقة ولا غبار عليه . أما جعل النذر للسيد لقاء شفاء مريض ، أوالحكم فى قضية معينة على وجه معين ، أوفى نظير زواج ابنته ، أو العثور على ضائع أو مسروق ، فهذا ما لا يقبله الشرع .

القسم الثالث

خطط الدراسة ومناهجها

نعم هناك خطط للدراسة، وهناك مناهج، لا يمكن أن يتخطاها الطالب، أو يتعداها الشيخ، أو تعارضها المشيخة. ولكن ما هي؟ وما زمنها؟ ومتى تبتدىء الدراسة؟ وكيف تنتهي؟ كل ذلك مرسوم عملا، لا قولا. فهي أشبه بقوانين غير مكتوبة Unwritten Laws.

فالواقع هو الذي يبدأ السنة الدراسية، وهو الذي يختمها.

والعمل هو الذي يبدأ اليوم الدراسي، والفراغ منه هو الذي يختمه، فلا ساعة معينة، ولا إشارة للبدء والختام، بل شروق الشمس وغروبها يقربان ذلك، والصيف والشتاء يقدران بعضه، وليس هناك إلا تعليمات يسيرة عن نظام امتحان العالمية والامتحانات الرسمية تجعلها خاضعة لبعض القوانين العامة أو الخاصة، التي يتبعها الأزهر الشريف في ذلك.

السنة الدراسية

١ — نحن الآن ضحى يوم سبت من شوال ، بعد انقضاء ثلاثة أشهر أو أكثر على الإجازة السنوية . ليس بالجامع من الطلبة غير عدد ممن اعتادوا البقاء فيه من أهل طنطا أو البلاد المجاورة ، وغير أفراد ممن سئموا طول الإجازة ، أو هربوا مما كانوا يكلفونه من أعمال الفلاحة فى قراهم ، أو ممن ألجأهم آباؤهم إلى السفر محافظة على ابتداء الدراسة ، مثلى .

فى هذا الوقت عقدت حلقة أمام الأسطوانة الثالثة من الصف القبلى ، على يسار الداخل لمقام السيد البدوى ، قوامها شيوخ ملتحون بلحى بيضاء ، ومعممون بعمامات كبيرة ، وأمامهم محافظهم العتيقة ، أو محافظ من الجلد الأصفر الذى اسودّ بعضه من طول العهد بالقبض عليها . كل أولئك طلاب من قدامى الطلبة أو المعيدين ، يحضرون درس تفسير أبى السعود ، الذى كان يقرؤه المغفور له الشيخ ابراهيم الظواهرى ، شيخ الجامع فى ذلك الوقت .

ولكن لماذا عقدت حلقة الدرس هنا ، وعهدنا بها دائما أن تكون فى الطبق الثانى بإحدى حجر الإدارة ، لمنزلة الشيخ بين علماء الجامع ، ولضعف صوته ، فلا يستطيع أن يتكلم بصوت

عال ، إذا هو درَّس فى الجامع ، بين ضوضاء الطلبة ، وأصوات الزائرين ؟!

إنه ينزل اليوم فقط إلى الجامع ليقرأ درسه هنا ، وكان متعذرا على صغار الطلاب مثلى قبلا ، أن يستمع لشيخ الجامع فى درسه هذا فى مكانه الدائم ؛ ولكن فى هذا الوقت — وقت العطلة — حُبب إلىّ أن أجلس هنا بين كبار الطلاب ، أو شيوخ المجاورين ، أو طلاب العالمية ، وقد أصبحت أحسن جلستهم ، فأثنى ركبتى وأنحنى إلى الأمام ، كما ينحنى من يقارب السجود ؛ على أنه ليس فى الجامع الآن مدرس واحد ، حتى ولا أستاذنا المغفور له الشيخ مصطفى الجندى ، مع أنه من سكان طنطا ، ومنزله على بضع خطوات من الجامع !

ها هو ذا الشيخ الكبير فى طريقه إلى الدرس ، قد دخل كعادته ، من « باب السر » ومر بالمقام ، وقرأ الفاتحة أمام مقصورة السيد ، وخلفه الجندى أو « المشد » ، ثم خرج من بابه الثانى ، وهو شيخ عارك الدهر وعركه ثمانين عاما ، وقصد إلى رأس الحلقة بجوار الاسطوانة ، فتربع فوق فروة وثيرة . وما إن شعر الطلاب بقدومه حتى هرولوا جميعا إلى أماكنهم فى الحلقة وكان لى نصيب منها ، فأخذت مقعدى بينهم ، وبدأ الشيخ يفسر

قوله تعالى فى سورة المائدة « وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » .

أخذ الشيخ يشرح ويفسر ويحقق ، ويسرد آراء المفسرين والمؤولين ، حتى أوسع الآية تدقيقا وتأويلا ، وأشبع الطلبة مراجعة ومطالعة ؛ وفيما هو كذلك ، إذ بسيدة من زوار السيد خرجت من باب المقام تحمل فى يدها مقدارا من « القراقيش » أو الفرنى المعجون بالسكر ، فراعها أو أعجبها هذه الحلقة الوقور ، شيخاً وطلاباً ، فنثرت ما فى جعبتها من هـذا الفرنى اللذيذ ، حتى غطت الحصير وسط الحلقة بطبقة منه . كل ذلك والشيخ منهمك فى الشرح والتفسير ، وجميع الطلاب مصغون إليه ، فلم يتحرك واحد منهم ، احتراما لشيخ الجامع ، ولدرس التفسير ، ولسنهم العالية . ولـكن الشيخ بعد أن أتم تفسير الآية ، سكت قليلا ثم قال مشيراً إلى الطلبة : « كلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً ! » تخطفنا فى أدب وهدوء تلك اللقيمات اللذيذة ، أو تلك الهدية أو ذلك النذر ، ولو كنا فى غير هذا المكان أو هذا المقام ، لداهم بعضنا بعضاً ، وداس قوينا ضعيفنا فى سبيل الحصول على واحدة أو اثنتين من هذا الفرنى ، كما اعتدنا أن نفعل ، عندما يحضر بعض الفلاحين شيئا من الذرة المشوية ، أو قرصاً أو غيرها ، يقذف بها فى صحن الجامع أو فى المقام .

ياترى ! هل يعود الشيخ غدا إلى هذا المكان ، فيلقى درسه التالى فى التفسير ، حتى نأكل مما يرزقنا الله حلالا طيبا ؟ ! كلا ! إنه الدرس الوحيد فى العام ! إنه إعلان افتتاح الدراسة فى الجامع أول السنة الدراسية . وعما قريب ينتشر خبر ابتداء الدراسة ، فيتوافد الشيوخ والطلاب ، رويداً رويداً ، بعد أن يطير إليهم النبأ على لسان التجار الذين يحضرون سوق طنطا (يوم الاثنين) أو على لسان الزوار الذين اتصلوا ببعض الطلاب السابقين إلى الجامع أمثالى . وقد يسافر الطالب قبل رحيله الرسمى ، ليرى هل حضر أحد من الطلبة فى الجامع ! وهكذا يمتد توارد الطلاب وابتداء الشيوخ فى الدراسة أسبوعا أو أسبوعين بعد ذلك . فليس هناك سنة دراسية محدودة المبدأ والنهاية بالضبط فى يوم معين ، ولا قانون خاص بذلك .

وكما بدئت الدراسة شيئا فشيئا ، فإن الطلبة يأخذون فى التسلل من الجامع ، زرافات ووحدانا ، قبل إجازة الصيف « غير المحدودة » ، أو قبل مسامحة ثلاثة الأشهر « رجب وشعبان ورمضان » أو قبل مسامحة موالد السيد البدوى ؛ فكما حضروا بعد ابتداء الدراسة بشهر ، كذلك ينصرفون قبل انتهائها بنحو ذلك . وكذلك يفعلون فى مسامحة عيد الأضحى ، ومولد النبى ، وغيرهما من المسامحات القصيرة فى المواسم .

وقد تلحظ المشيخة تسرع الطلاب فى السفر قبل الإجازة بأيام كثيرة ، فيمر الجندى أو الملاحظ لينبه المشايخ فى دروسهم على أن الأجازة لم تتقرر ، وأن الدراسة يجب أن تستمر أسبوعين آخرين أو ثلاثة . ويختلف الشيوخ فى درجة استماع هذا التنبيه وإطاعته أو عصيانه ؛ فهم أحرار : يغيبون متى شاءوا ، ويحضرون للتدريس متى أرادوا . أما الطلاب فلا يضطرون إلى الوجود بالجامع إلا عند الفرز أو الحصر كما رأيت .

ولم يكن للمشيخة عهد بإعلان مواعيد المسامحات أو نشرها فى الصحف كما هو مألوف الآن . ولم تألف إعلان ابتداء الدراسة أو انتهائها بالكتابة مطلقا ، حتى ولا على جدران الجامع أو فى مكان خاص بالإعلان .

ومما يلحظ أن هذه المواعيد لم تكن معروفة بينهم إلا بالتاريخ الهجرى ، يحددون به مواقيت الأجازات الرسمية ، ولا ريب فى أن التاريخ القمرى غير مرتبط بالتاريخ الشمسى ، ولذلك اختلفت المسامحات والعطلات .

أوقات الدراسة وموادها

يمتد اليوم الدراسى من بعد صلاة الفجر إلى صلاة العشاء ، وتنعقد خلال هذه المدة حلقات الدروس نحو ست مرات :

(ا) فبعد صلاة الفجر مباشرة يكون الدرس الأول ، ولكن لا يزيد عدد حلقاته فى الجامع على أصابع اليد الواحدة ، لأنه يكون لكبار الطلاب غالبا . ويكون غالباً فى مادة التفسير والحديث والتوحيد .

(ب) أما الدرس الثانى فهو درس الشروق أو الصباح ، ويكون كله فى مادة الفقه ، وهى المادة التى يشترك فى دراستها جميع الطلاب من جميع الدرجات . وهو الذى يعتبر الدرس الأساسي ، كما أنه يعتبر أول درس ، لندرة درس الفجر .

(ح) وينعقد فى وقت الضحى حلقات قليلة أيضاً لبعض كبار الشيوخ والمسنين أو الكسالى منهم ، غير أنها مهما قلت تكون أكثر عدداً من درس الفجر .

(ى) ويلى درس الشروق أو الصباح فى الأهمية والكثرة ، درس الظهر . ويكون موضوعه غالبا النحو والصرف أو البلاغة ، وهى المادة التى تلى الفقه فى كثرة طالبيها .

(هـ) أما درس العصر فيقرب فى العدد من درس الظهر ، وتكثر فيه دروس المتقدمين من الطلاب ، التى يدرسها كبار الشيوخ .

(و) وآخر الدروس ما ينعقد بعد صلاة المغرب . وأكثر ما تكون فى الكتب الصغيرة التى لا تستغرق وقتاً طويلا . أو فى آخر السنة خاصة . وإذا كان بينها درس لكبار الطلبة فى كتاب من المطولات ، فقد تزيد الجلسة فيه على ما بين العشاءين ويستمر الشيخ مدة طويلة بعد صلاة العشاء .

هذه هى أوقات الدروس الستة فى اليوم الدراسى ، وليس من الضرورى أن يحضرها كل طالب ، بل قد يحضر الطالب درسين اثنين منها فقط ، وهذا عند كبار الطلاب لأهمية المواد التى يدرسونها وقلة عدد كتبها . أما صغار الطلبة فقد يحضرون فى اليوم خمسة دروس لكثرة الكتب الصغيرة عندهم ، أو لإعادة كثير منها على عدة شيوخ فى أوقات مختلفة .

١ — ها قد فرغ الناس من صلاة الصبح عقب أذان الفجر ، فهيّا نرتاد الجامع لنشاهد الدروس فى أوقاتها وموادها المختلفة :

هذا هو الشيخ « قطب التلاوى » جلس لقراءة درس التفسير ! إن صوته يدوّى فى الجامع ، لقلة الطلبة فيه من

حفاظ المتون أو مراجعي الدروس ، ولأنه يكاد يكون الدرس الوحيد فيه . استمع إليه يبدأ الدرس بقوله : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد النبي الكريم ، وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد ، فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدى هدى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار . وبالسند المتصل إلى الإمام المؤلف رضى الله تعالى عنه قال . قال إيه يامولانا !؟ هكذا يتلو البداءة فى الصباح الباكر ، بصوت عال مع الترنم الممزوج بالتواضع ، وعلى هذا النغم يستمر فى درسه ، فيتأثر السامع به ، إن لم يكن لفهم المعنى ، فلحسن التوقيع والترديد ! ولم يكن المقرىء بأقل من الشيخ فى الترتيل والقراءة مع الصوت ذى الحنين . تفرس طلبة هذا الدرس ! إنهم شيوخ كبار أجلاء ! يشبهون أولئك الذين كانوا يحضرون تفسير أبى السعود على شيخ الجامع ! وعددهم قليل أيضاً ، لأنهم صفوة طلاب **الدرجة الأولى** ، وهم المنتظرون «لامتحان العالمية» . فرغ الأستاذ من الدرس مع الشروق ، فقام إليه هؤلاء الطلاب ، سكوتاً أو مع سؤال قصير ، يتعاقبون على تقبيل يده ، كما هى عادة الطلاب مع الشيوخ جميعاً . وقبل أن أنتقل بك إلى درس

آخر ، أذكر لك أن تفسير الجلالين مع حاشية الجمل ، كان التفسير المتـداول قراءته ، وقلّ من يقرأ تفسير البيضاوى أو الفخر أو تفسير أبى السعود . أما كشاف العلوم ، لجار الله الزمخشرى ، فهم ينأون عنه ؛ لما يعتقدون من اعتزال صاحبه ، وأنه كان يحكم فى التفسير « بعقله » ويدلى فيـه « برأيه » ، وهذا كان مرغوباً عنه فى نظر العلماء ومن على شاكلتهم من الطلاب[1]

٢ — انجلى الصباح ، وكادت الشمس تشرق . تلفّـت حولك فى الجامع ، فلا تجـد اسطوانة (عمودا) إلا وقد التف أمامها حلقة من الطلاب ، فى انتظار شيوخهم ، وهاهم أولاء بدأ يسبق بعضهم بعضاً إلى درسه ، وقد تربع كل واحد منهم على فروة من الصوف فوق حصير المسجد ، مستنداً إلى العمود أو حوله . فلنطوّف بالجامع لنتفقد بعض هذه الحلقات ، ولا تعجب من نظامها ، فإن « التعليم منذ بدء الإسلام كان بالمساجد حلقا ، وأول حلقة تعليم فى الإسلام كانت فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث كان أصحابه يجلسون حوله حلقا ، يتعلمون منه سنن الإسلام وأحكامه ، ومن هنا كثر التعليم فى المساجد على هيئة الحلقات » .

نحن الآن أمام حلقة قوامها ٥٠ من المبتدئين ، يحضرون شرح « ابن قاسم الغزى » فى فقه الشافعى ، على الشيخ « ابراهيم

---

(١) انظر الجدول فى آخر هذا الفصل صفحة ١٨٨ .

نضار » وهو يعيد قراءة هذا الشرح للمرة العاشرة ، لأنه أجاد تدريس هذا الكتاب لصغار الطلبة ، فهو يمثل لهم بالعمل كيفية الوضوء ، ويقف فى وسط الحلقة ليريهم كيف كان النبي يغتسل، وقد ترى الطلاب أمامه مستغرقين فى الضحك ، حينما يريهم كيف يكون « غسل الميت » ، فيشمر عن ذراعيه ويتناول طالبا كأنه جثمان الميت ، فيتهامس بعض الطلبه قائلين : أنىّ له أن يجيد هذه المهنة ! ؟

لننحرف نحو المحراب لنشاهد أمامه درس الشيخ «محمد الفقي» ! إنه يقرأ شرح الخطيب فى مذهب الشافعى ، ولكن الطلاب أمامه خليط من طلاب الدرجة الثالثة وعدد كبير من طلاب الدرجة الأولى ، الذين يعيدون المذهب ، أى أنهم حضروا أو قرءوا كل كتب المذهب مرة أو مرتين قبل ذلك ، ثم هم الآن يعيدون قراءتها مرة أخرى . ألم تر هذا الشيخ يختلف عن غيره بأنه يجلس على كرسى أو دكة من الخشب لها سياج ، فرش فوقها فروته ، فهو يتكىء على هذا السياج (الدرابزين) يمنة ويسرة ، كلما تعب من جلسته ؟ ! لماذا اعتلى الشيخ هذا الكرسى ؟ إن صوته ضعيف ، وطلابه كثير ، لأنه يجيد التحقيق ويطيل الشرح ، ويستغرق فى درسه وقتا طويلا ، ولهذا كثر عنده الطلاب المعيدون الذين يناقشونه القول كثيرا ، ويسألونه مراراً ، ويراجعونه تكراراً

لأنهم من طلاب الدرجة الأولى ! ارجع إلى الإيوان المجاور للمزارات تر درس الشيخ «مصطفى الجندى» وهو مكون من حلقتين. إنه يدرس أيضاً شرح الخطيب . تأمل بين طلابه هذين الشيخين الكبيرين الجالسين تجاه الشيخ ! إنهما من طلاب الدرجة الأولى الذين يعيدون المذهب أيضاً ! انتظر حتى يفرغ الشيخ من درسه تجدهما يطالعون درس الغد لصغار الطلاب !

وهناك درس الشيخ « العريان » أمامه ثلاثة من طلاب الدرجة الثانية يحضرون شرح « التحرير » فى فقه الشافعى أيضا وذلك درس الشيخ «السنتريسى» أمامه تسعة من طلاب الدرجة الأولى يحضرون شرح « المنهج » فى فقه الإمام الشافعى أيضا . من هذا تعلم أن كتب الفقه الشافعى التى كان يدرسها الطلاب فى درجاتهم الثلاث هى « حاشية البرماوى على ابن قاسم » وشرح الخطيب « للدرجة الثالثة » ثم «التحرير » للدرجة الثانية ، و « المنهج » للدرجة الأولى . وهم يقضون فى قراءة هذه الكتب نحو عشر سنوات ، وقد يعيدونها مرة أو مرتين ، فيقال إنهم يعيدون المذهب (١) .

كأنى بك تقول : أريتنى دروس فقه الشافعية ، أفلا تطلعنى على بعض دروس المالكية والحنفية ؟ ! هناك أمام باب المكتبة ، بجانب الاسطوانة الأخيرة من الصف القبلى ، ترى

(١) انظر الجدول بصفحة ١٨٨

درس شيخ المالكية الشيخ « مرسى على طبل » ، وعلى ركن الصحن الشرقى ترى درس الشيخ « على النمر » ، وبقرب باب الرخام تجد درس الشيخ « شبل » والشيخ « سباعى بدر » ، وكلهم من علماء السادة المالكية . وتجد الشيخ « على المنوفى » يقرأ الدرس فى منزله بدرب الأثر ؛ وهو شيخ جليل وقور ، يدل بياض وجهه ، وطول لحيته الطاهرة وكثرة إطراقه ، على استغراق فى التفكير ، وينم هدوءه فى درسه واختيار كبار الطلاب للحضور عليه ، عن سعة فى العلم وتعمق فى البحث . معذرة إليك إذا لم أذكر لك كتب المالكية والحنفية مع المشايخ (١) أما الحنفية فليس أمامى الآن إلا درس الشيخ « محمد الدفتار » وهو شيخ أنيق الملبس ، وسيم الطلعة قليلا ، نظيف الزى مختصره ، يلبس الجبة والقفطان الثمينين الضيقين ، ويؤثرهما على «الفراجية» ذات الأكمام الواسعة العريضة والقفطان المتهدل والحزام الغليظ العريض المتخذ من الصوف الكشميرى . أما حزامه فحريرى رقيق ، وأما عمامته فمنتظمة نظيفة ، فوق « طربوش » رقيق صغير أنيق ، بخلاف عمائم سائر الشيوخ ، ففيها طيات كثيرة من منسوج غليظ غير ناصع البياض أحيانا ، وقد يدسون فيها المشط يخللون به لحاهم الطويلة ، أو جيبا

---

(١) انظر الجدول بصفحة ١٨٨ .

لسواك يستاكون به عند الوضوء ، كما يتخذون تحتها « عرقية » من الموصلى (الشاش) الأخضر .

هذا الشيخ كان يسمى نفسه شيخ الحنفية ، وهم قليل بالجامع الأحمدى ، كما أن الشيخ « مرسى على طبل » هو شيخ المالكية فعلا . تأمل تلاميذه تجدهم نخبة من الطلبة المترفين الذين يمتازون عن غيرهم بشىء من أمارت الغنى واليسار ؛ ذلك لأنهم يدرسون الفقه على المذهب الحنفى ، يريدون عرَض الدنيا . فالعلماء الذين يرشحون للقضاء الشرعى هم من علماء الحنفية فقط وهم بذلك يبتغون الجاه ، مع أن « أبا حنيفة » رفض القضاء مرارا ، وعُذب من أجل ذلك . أما غيرهم من الطلاب الشافعيين والمالكيين فإنهم لا يريدون إلا وجه الله فى طلبهم العلم .

أطلت عليك القول فى درس الصباح أو الشروق ، وقد رأيت أن كل دروس هذه الحصة فى الفقه فقط أو فى « الفروع » وأن معظم الطلاب شافعيون وأقلهم مالكيون وأقل من القليل النادر حنفيون وليس بالجامع حنبلى واحد ! ولعلك لحظت أن بعض الدروس فى الكتب الصغيرة مزيج من الطلاب بحيث ترى ابن ١٣ عاما بجانب شيخ جاوز الأربعين ، الأول طالب مستجد ، والثانى سبقت له دراسة هذا الكتاب مرة أو مرتين .

فهو يحضر رغبة فى تحصيل العلم فقط . أو ليعيد المذهب على شيخ كبير حتى يحصل سائر العلوم فيؤدى امتحان (العالمية).

٣ — فإذا كان الوقت ضحى رأيت بالجامع دروسا لاتزيد على عدد أصابع اليد ، فهذا درس الشيخ « بيومى أبو ريا » وهو شيخ عالم فاضل ، جليل وقور ، كأنه جاوز الثمانين ، أوقارب التسعين ! يموج جسمه النحيل فى ثيابه الواسعة ، ويبسم عن بقايا أسنان عبثت بها يد الدهر ، فاذا فتح فاه رأيت أسنانه كأسنان الببر أو الأسد الهندى ، بعضها طويل وبعضها قصير . هاهو ذا قد جلس على دكة عالية ، ليقرأ درس « جمع الجوامع » . تأمل طلابه تجدهم شيوخا ، جاوز أكثرهم سن الأربعين ، وأولئك هم الطلاب الذين يستعدون للامتحان النهائى ، أو امتحان « العالمية » من طلاب الدرجة الأولى

و « جمع الجوامع [١] » يكاد يكون الكتاب الواحد الذى يدرس فى علم « الأصول » « أصول الفقه » . وهذا العلم يدرسه جميع طلاب المذاهب المختلفة ، ويشبه فى وضعه مايعرف عنه الفرنجة أو علماء القانون باسم أصول القوانين أو مقدمة القوانين : Introduction to the Study of Law.

وعلماء المعاهد الدينية يدرسون هذا العلم آخر مايدرسون ، بعد دراسة « الفروع » أو علم « الفروع » وهو علم الفقه . وكان

---

(١) تأليف الشيخ عبد الوهاب السبكى المتوفى سنة ٧٧١ هـ .

الأحرى بهأن يسمى « فلسفة الفقه » حتى لايكون نظام دراسته مقلوباً ، فيدرس « الأصل » بعد « الفرع » . على أن علماء القانون الذين كانوا يبدءون بدراسة « أصول القوانين » كانوا فى حيرة ، لأن الطلبة لم يلموا بفروع القوانين التى يضربونها أمثلة لقواعد هذه المادة عند درسها. وإذا أردت حصر دروس «الأصول» فى الجامع كان ذلك سهلا ميسورا . فالكتاب فى نظر الطلاب والشيوخ عظيم ،ولا يتصدى لتدريسه إلا كل فحل من فحول العلماء ولهذا لاتجد أكثر من ثلاثة شيوخ أو أربعة يجرءون على تدريسه. فالذى أذكره منهم ، بعد هذا الشيخ ، السيد محمد عبد الرحيم ، والشيخ محمد الحفناوى . دع هذا الدرس وتقدم بضع خطوات إلى الاسطوانة الثانية أمام مقام سيدى مجاهد تر درس السيد محمد عبدالرحيم ! إنه يقرأ صحيح البخارى ، لخيار طلبة الدرجة الأولى. إرجع إلى الوراء قليلا وقف أمام هذه الحلقة المقلوبة أى التى يجلس شيخها بعكس جلسة الشيخ المدرس ! إنها ليست درسا ، ولكن هذا الطالب الكبير يطالع الدرس الجديد ، درس الغد بعد فراغ درس الشيخ اليوم . تأمل ذلك الشيخ فى شرق الجامع أو غربيه ! إنه شيخ غنى رقيق لم يعتد عمق التفكير فى درسه ، فجلس فى حلقته ، وقد التف حوله بعض كسالى الطلاب الذين اتخذوا حضور العلم زينة فقط ، فلم يرق فى نظرهم غير درس هذا

الشيخ ذى الجاه ، وللجاه — كان — دخل كبير فى التفاف بعض الطلبة حول أغنياء الشيوخ وذوى النفوذ منهم ، فإن لم ينتفعوا بعلمهم ، فإنهم ربما ساعدوهم فى إمتحان «رمية» ، أو فى «أخذ جراية» أو فى السكنى فى «رواق» على الأقل . وأمثال هؤلاء الشيوخ معروفون بين الطلبة والعلماء ، لا يمتازون بميزة علمية ، ولا يُعرفون بالتحقيق أو التدقيق الذى يجتذب الطلاب إلى الشيوخ عادة .

دع الطلاب الآن وقد فرغوا من درس الصباح ومطالعة درس الغد ، يطالعها كبارهم لصغارهم ، يتهيئون لطعام الغذاء ، ويعدون عدتهم لدرس الظهر ولننتظر أذان الظهر .

٤ — انتهى المصلون من صلاة الظهر ، وعقدت الحلقات بجانب الأساطين كلها كما كان الأمر فى درس الصباح عند شروق الشمس . وقلما يغيب عن درس الظهر إلا عدد من طلاب الدرجة الاولى فليس هناك درس جمع الجوامع ولا الحديث والتفسير ، بل قد تجد غالبية الطلبة من الدرجتين الثالثة والثانية وهم يحضرون دروس النحو والصرف كما سترى .

هذا هو الشيخ « ابراهيم عبد المتعال » قد اعتلى أرض النافذة فى الركن الغربى الشمالى من الجامع ، وجلس يقرأ شرح الكفراوى على متن الآجرومية لنحو ٣٠٠ طالب ، وهو شيخ

ذكى فصيح ، سبقت له دراسة كثير من الكتب الكبيرة ، فأخذ يعيد قراءة الكتب الصغيرة للمبتدئين ، فتكاثر عليه الطلاب ، وتسابقوا إلى درسه قبل الظهر بأكثر من ساعة ليدرك كل منهم مكانا بقرب الشيخ ليحسن استماعه له .

وإلى الأسطوانة القريبة تجد الشيخ « السباعى بدر » يدرس شرح الشيخ خالد على الأجرومية لمن سبقت له دراسة الكفراوى مرتين أو ثلاثا . وفى الإيوان المقابل شيخ غير مجاز لأنه طالب على أبواب امتحان « العالمية » هو الشيخ «على داود» جلس لتدريس الأزهرية بتحقيقه المشهور ، وتقريره الفائق ، وعلمه الواسع ، مع التواضع والانكسار ، فانصرف إليه كثير من الطلاب الراغبين فى الاستفادة فكانت حلقته أكبر من حلقات الشيوخ والعلماء المجازين أو المرخص لهم بالتدريس رسميا .

وبالقرب من المحراب تجد الشيخ الوكيل يقرأ شرح القطر ، والشيخ على النمر يقرأ شرح الشذور . وهذه الكتب كلها يحضرها طلاب الدرجة الثالثة .

أما طلاب الدرجة الثانية فالحديثون منهم يحضرون شرح ابن عقيل على متن الألفية ، على هذا الشيخ الطويل العريض تحت الدكة وهو الشيخ « على الجروانى » . وبجوار الأسطوانة التى أمامه تجد الشيخ « احمد الفقى » يقرأ شرح الأشمونى لمن سبقت

له دراسة ابن عقيل . وهما الكتابان المقرران فى النحو والصرف لطلاب الدرجة الثانية[1] . أما طلاب الدرجة الدرجة الأولى فلا يحضرون كتبا فى النحو والصرف . غير أنك قد ترى هناك بجوار دكة الكهف الشيخ « احمد علوان » يدرس القطب على الشمسية فى المنطق للطلاب المتقدمين ممن سبق لهم دراسة السلم وإيساغوجى فى المنطق[1] .

وترى فى درس الظهر ما رأيته فى درس الصباح ، من تفاوت عدد الطلاب تفاوتا غريبا . فشيخ عنده مئات من الطلبة وآخر ليس أمامه إلا أفراد تعد على أصابع اليد !

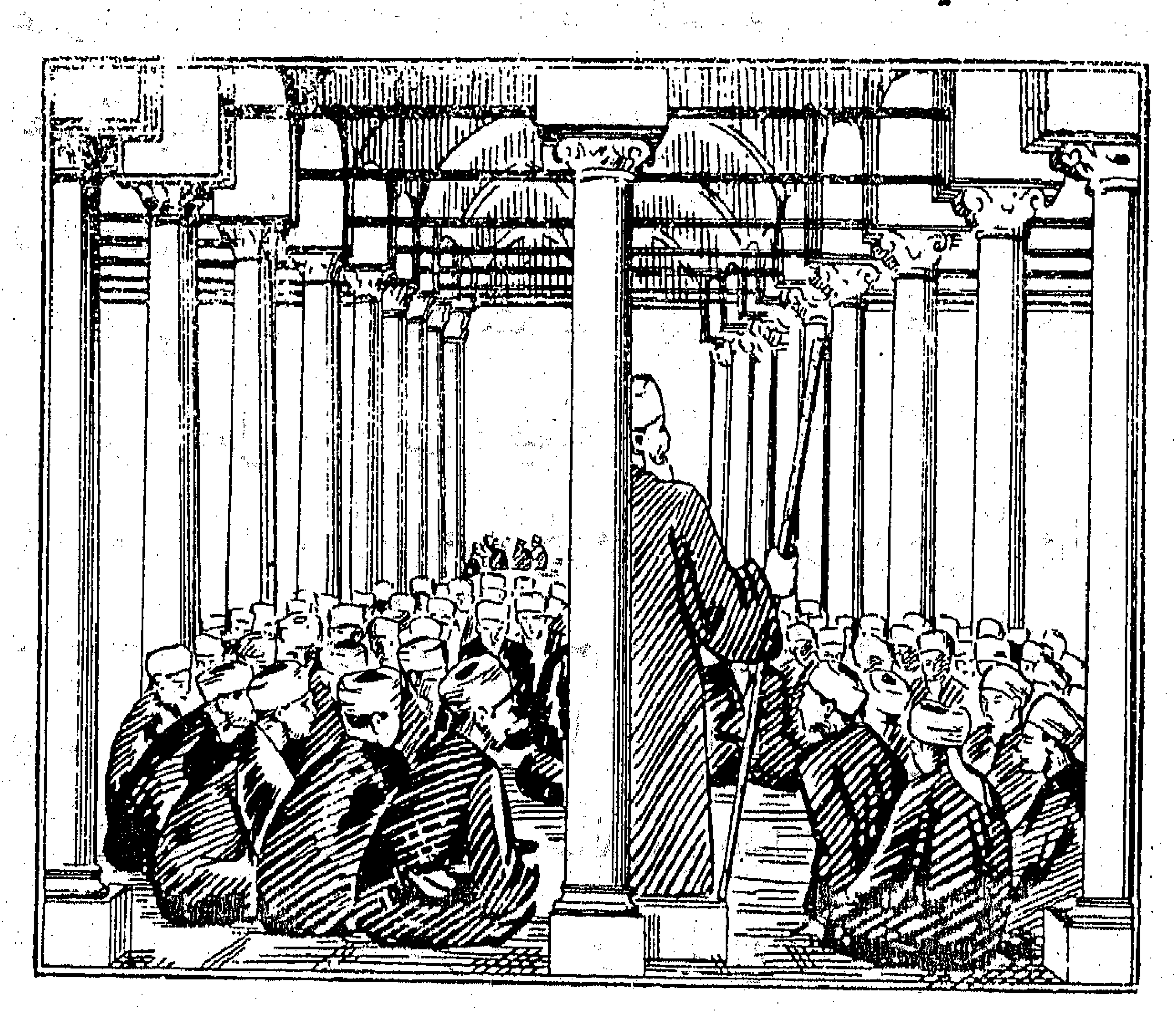


(١) انظر الجدول صفحة ١٨٨ .

أليس الطلاب أحراراً في اختيار الشيخ ، وفي اختيار الكتاب الذي يدرسونه ؟ ! وكذلك الشيخ حر في اختيار الكتاب الذي يدرسه حسب خطته التي وضعها لنفسه أو وضعتها له قوته ومنزلته ومقدرته عند الطلاب ! فقد يحضر الطالب درس الأزهرية وهو لم يتقن درس الشيخ خالد قبله ، وكذلك يدرس الشيخ فنا لم يعط القوة الكافية فيه على تفهيم طلابه . ولهذا يشاهد في ابتداء العام الدراسي تزاحم الطلاب على شيخ ، ثم ينقص عددهم تدريجا . وبعكس ذلك يتزايد عدد الطلاب على شيخ بدأ درسه بعدد قليل . وقد يكثر عدد الطلاب إلى حد يلجىء هذا الشيخ للجلوس على دكة عالية بعد أن كان يفترش فروته ! فوق حصير الجامع .

(٥) صليت العصر ، وانعقدت حلقات الدروس ، ولكنها أقل عدداً من الظهر ! سأترك الشيخ (الحفناوى) يقرأ درساً في (جمع الجوامع) لطلاب الدرجة الأولى بجوار باب الرخام . وكذلك الشيخ (أحمد الفقى) يدرس شرح (السعد) على تلخيص المفتاح في البلاغة بجوار باب سيدى عبد المتعال ، وغيرهما ، وأقتادك إلى درس عجيب ! أما مكانه فعند الاسطوانة المتوسطة على حافة الصحن الشرقية ، ولكنه يشغل رقعة كبيرة من الجامع تشمل ست اسطوانات متجاورة على الأقل ! قد اصطف الطلاب له وتراص بعضهم وراء بعض . وتوافدوا على مكانه قبل

وقته بساعتين . إنك لتعجب حينما ترى هذا الجمع الحاشد ، وهم يتقاتلون للحصول على مجلس متقدم فيه ، وقد تكدس طلبة الجامع عنده ، فكأن الجامع قد خلا من الطلبة ! فليس يفر منه طالب مبتدئ ولا يغيب عنه طالب قديم حضر شرح « الكفراوى » مرتين أو ثلاثا أو أربعا ، إن لم يكن لمعلومات إضافية يتلقاها فلطريقة طريقة وأسلوب فى الشرح والتدريس غير مألوف عنده . وهذا هو السر فى إقبال الطلبة على درس الشيخ « محمد الحبيشى » فى شرح الأجرومية ! اسمعه يفخر بأنه كان يدرس فى مدارس نظامية ، وأنه كان يدخل على ٤٠٠ تلميذ من الأفندية « فيضربون » له سلاما وتعظيما !



انتظر ! قد حضر الشيخ بعد صلاة العصر فاعتلى دكة كبيرة قوية بجوار عموده ، وهاهو ذا قد وقف وأشرف على مثات الطلبة أمامه ، وفى يده « نبـوت » عصامن خشب الشوم طولها خمسة أذرع ، وهو يشير بها تارة ، ويتوكأ عليها أخرى ! أترى بسطة جسمه وصحته وقوته ، وامتلاء «الفراجية » الواسعة به ؟! إن وقفته وطوله، وحسن صوته العالى ، ونغمه الرخيم ، ورغبة الطلاب وشوقهم لسماع مايقول ، والأمثلة الواقعية التى يذكرها، والحكايات الشائقة التى يدمجها فى درسه ، أو يدمج فيها درسه ، كل ذلك يدعو الطلاب للإصغاء فيسمعون كل كلمة يلفظها وكل عبارة يلقيها ! هلا سمعت معارضته للعبارة « قاعدة نحوية : كل الضمائر مبنية » فيقول هو «قاعدة حبيشية : كل الحروف مبنية» ؟! وماأسهل حفظها والتمثيل بها كأنها أصل من أصول النحو ! سل أى طالب عاصره ، يذكرلك كيف كان يدرس أقسام الكلمـة (الاسم والفعل والحرف) فيختار طالبا يسميه « الاسم » ، وثانيا يدعوه « الفعل » وآخر هو«الحرف » ؛ ثم يوزع على كل واحد علاماته ، ويعود فيسأل كلا منهم عن صفاته . وإذا أراد إعادة درس انتحل حكاية موضوعها : « مجاور » كان يخترق شارع « البورصة » فقابله «افندى» وسأله عن هذا الدرس ، مع إضافة عبارات وصفات وعناصر يمليها روح المرح عنده خلال حكايته!

ثم يضيف إلى ذلك أنه إذا كان الطالب ذكيا نبيها مذاكرا درسه، يبادر السائل بالإجابة ، ويقول كيت وكيت ؛ وإلا إذا كان غبيا أو مقصرا تلكأ فى الإجابة ، وأخذ يحك عنقه بأظافره أو «يهرش فى رقبته» علامة البلادة. ولست أنسى أنه كان يتمثل مرة هذا المجاور البليد ، فحك رقبته بأظافره ، فسال الدم من عنقه ، لأنه كان «حاضر الدم» فأخذ يسب «المجاور» و«الأفندى» ويشتم النحو والصرف .

٦ — أذّن المؤذن ، وصليت صلاة المغرب . وأوقدت القناديل ، وانتظمت دروس ما بين العشاءين ! إن عددها قليل جدا ، وأظهرها وأطولها درس السيد «محمد عبد الرحيم» شيخ الغربية . إنه قد جلس إلى عموده تجاه مقام سيدى مجاهد وبعد عمود منه ، وقد تمنظر بمنظاره النظيف ، وبدا وجهه الوسيم تحت عمامته الخضراء فى ضوء «الفانوس» الموضوع على كرسى عن يساره ، وعلا صوته الرخيم فى وسط الحلقة الواسعة التى كانت تضم نخبة من كبار طلاب «العالمية». إنه يقرأ لهم «جمع الجوامع» أو «التفسير» بتحقيق نورانى . ويفيض عليهم من فيوضاته الربانية ؛ فدرسه فوق ما فيه من العلم ، درس روحانى يصل ما بين العبد وربه . ولا تنس أن هذا الشيخ يدرس صحيح البخارى ضحى ، لطلبة الدرجة الأولى ، لأنه لا يتصدى لتدريسه

إلا الراسخون والمنتهون فى الصلاح والتقوى . وبهذه المناسبة نذكر أن هذا الشيخ من خيار المرشدين ، وأن العلم متى التقى بالتصوف والزهد والإرشاد ، كان ذلك خيرا على خير ، ونورا فوق نور .

وإذا تجاوزنا بعض دروس صغيرة لعلماء أو متعالمين . أو لبعض كبار الطلاب يدرسونها لمن هم أصغر منهم — وجدنا لكبار العلماء دروسا تعقد على غير عادة قبل نهاية السنة الدراسية بشهرين أو نحوهما .

فهذا الشيخ « الجندى » قد جلس فى غير مكانه المعروف ، بين المغرب والعشاء ، يدرس « السنوسية » فى العقائد والتوحيد وقد حوى درسه عدداً كبيراً من الطلاب ، والتف حوله مئات من طلاب الدرجتين الثالثة والثانية . وكذلك الشيخ « احمد الفقى » يدرس « الشنشورى » على متن « الرحبية » فى الفرائض . ولكن هذا الشيخ قد اضطر للبقاء فى منزله ، فكنا نذهب إليه حتى أتم الكتاب واحتفلنا بختامه على عادة الطلبة فى ختام الكتب[١] .

هذا ولعلك لحظت فى هذه الدروس كلها أن الشيخ أو المدرس يكون ثابتا فى مكانه بجوار عموده ، وعلى طلبته أن يختلفوا إليه فى كل درس ، بخلاف التعليم الحديث ، فإن الطلبة أو التلاميذ يثبتون

(١) أنظر الجدول صفحة ١٨٨ .

فى مكان خاص ، والشيوخ أو المدرسون يختلفون إليهم فى أوقات معينة محدودة .

أما الزمان فتابع لأوقات الصلوات الخمس مرتبط بها ، كما ارتبطت السنة الدراسية بالتاريخ الهجرى . فالإجازات الطويلة ، فى رجب وشعبان ورمضان ، والقصيرة فى العيدين ، وبعض أيام المواسم الدينية .

خاتمة :

ترى فى الدروس السابقة أن المواد الأساسية فى الجامع الأحمدى ، كانت : الأصول . الفقه . التوحيد . التفسير والحديث النحو والصرف . المعانى . البيان البديع . المنطق . وفيها كلها كان طالب شهادة « العالمية » يمتحن عند انتهائه من الدراسة ؛ وترى فى الجدول التالى توزيعها على الدرجات الثلاث . أما تلك العلوم الحديثة ، كالحساب والهندسة ، والجبر ، والطبيعة ، وتقويم البلدان والتاريخ والفلك ، والخط والإنشاء ، فقد كان بعضها قليل الحظ من الدراسة ، أو مهملا إهمالا تاما ، وبقى الحال كذلك حتى كانت سنة ١٨٩٦ م فأخذت تتسرب إلى الأزهر والجامع الأحمدى ، وتدرس بصفة اختيارية .

جدول يبين المواد الأساسية التي كانت تدرس بالجامع الأحمدي وتوزيع كتبها على الدرجات الثلاث

الدرجة	الثالثة	الثانية	الأولى
المنطق	شرح السلم	إيساغوجى	القطب على الشمسية
البلاغة (المعانى البيان البديع)	السمرقندية	الجوهر المكنون	شرح السعد على التلخيص
النحو والصرف	شرح الكفراوى ، شرح الشيخ خالد، الأزهرية، القطر، الشذور	شرح ابن عقيل الصبان على الاشمونى	
التفسير والحديث		غراهى صحيح البيقونية فى مصطلح الحديث	البخارى الجلالين وغيره
التوحيد	السنوسية الجوهرة	العقائد النسفية	
الفقه على مذاهب: الحنفى	شرح مراقى الفلاح ، الطائى على الكنز ، شرح ملامسكين، حاشية ابى السعود	شرح العينى على الكنز الغرر على الدرر	الهداية وشرحها
الفقه على مذاهب: المالكى	الصفتى على العزبزية الزرقانى شرح ابىالحسن على متن سالم الشرح الصغير	الشرح الكبير على متن الأمام خليل	حاشية الأمير على الخرشى
الفقه على مذاهب: الشافعى	شرح ابن قاسم حاشية البرماوى شرح الخطيب	التحرير	شرح المنهج
أصول الفقه			جمع الجوامع

طرق الدراسة

كانت الكتب الدراسية تتكون غالبا من « المتن » ، وهو مختصر موجز مدمج ، يشمل أصول العلم ومباحثه كلها تقريبا ، ومن « الشرح » ، وهو مطول المتن ، بحيث يكونان عبارة واحدة وإن انفصل المتن عن الشرح بأقواس . وعلى الشرح قد تكون « الحاشية » ، وهى تعليقات متقطعة تكتب غالباً فى « قولات » أو جمل تفسر عبارة الشارح بعد عنونتها بكلمة « قوله » .

وقد يعلق على الحاشية بقولات أخرى تسمى « تقريرا » وقد ترى للمتن الواحد عدة شروح ، وللشرح جملة حواش، وعلى الحاشية أكثر من تقرير .

وللمتون عندهم أهمية كبرى ، حتى إنهم ليستظهرونها قبل البدء فى دراستها مهما كانت طويلة ، ويقولون فى ذلك : من حفظ المتون حاز الفنون . وكذلك قولهم :

فليس بعلم ما حوى القمطر العلم حقا ما حواه الصدر

وقد يسهل حفظ المتون عن ظهر القلب أحيانا نظمها كما فى « ألفية ابن مالك » ، « وجوهرة التوحيد » و « الرحبية » وغيرها . وليس يبقى فى ذاكرة الطالب من العلم عادة ، غير هذه المتون فهى نصيبه من التحصيل .

ومن العلماء من يدرس لطلبته المتن فقط ، إذا كانوا مبتدئين

أو هو مع الشرح ، ومنهم من يجمع بين المتن والشرح والحاشية . وبقدر حرصهم على المتون وحفظها يزعمون أن : من تتبع الحواشي ، ما حواشي ، أي ماحوى شيئاً .

وعلى كل من الشيخ والطلبة إعداد الدرس قبل حضوره أوقراءته ، ويمتاز الشيخ فى إعداده الدرس باطلاعه على كثير من المراجع التى على هذا الكتاب الذى يقرؤه ، بل قد يطلع على غيرها من الكتب التى تتصل به ، وبخاصة إذا كان هو من الباحثين المجتهدين .

لهذا كله تكون الدراسة غالباً تفسير المتن وشرحه ، تفسيرا يشمل لفظهما كلمة كلمة ، ومعناهما إجمالا ، ثم قراءتهما وقراءة الحاشية مع شرح مايعترض من العبارات أو الألفاظ والمعانى . وإنك لتسمع الشيخ فى أثناء درسه يقرر أو يشرح ، مستعينا بما قرأ قبل الدرس فى الحواشي والتقريرات وغيرها من مطولات الكتب المتصلة بالموضوع . وقد يشارك بعض الطلاب الكبار ، شيوخهم فى الاطلاع على هذه الحواشي قبل حضور الدرس فيكون لهم معهم شأن فى المناقشة والاستجواب . وقد تجد بعض الطلاب حينما يستمع للدرس ، يكتب على « هامش » كتابه مما سمع من الشيخ ، كما أن بعض الشيوخ يحلى حواشي كتابه بملخصات

أو تعليقات من الكتب الأخرى ، ولذلك تزداد قيمة النسخ من الكتب بما عليها من هوامش وتعليقات خطّية .

وقد كان كثير من الكتب الدراسية فى ذلك العهد — مخطوطاً ، وقل ما كان منها مطبوعا بمطبعة الحجر أو المطبعة الأميرية وغيرها . وكان العلماء وكبار الطلاب يؤثرون الكتب الخطية لما يكون عليها من تعليقات للمؤلفين والمستنسخين والقارئين . ويختلف الشيوخ فى تدريسهم اختلافا بينا ، فمنهم من يعتمد على عقله ، ومنهم من توجد عنده مراجع نادرة خطية ليست عند غيره . ومنهم من يستشير أو يستثير الطلاب فى المناقشة ، ومنهم من يأبى على الطالب الكلام أو السؤال ، وقد يسبه ويلعن أباه ، ومنهم من كان يترك إعادة الشرح لبعض كبار الطلبة أو متنوريهم ، ليكون ذلك أقرب للفهم عند ضعاف الطلبة أو صغارهم ، ومنهم من كان يوجه سؤال السائل إلى غيره من الطلاب ليجيب عليه ، وتكون الكلمة الأخيرة للشيخ .

وكذلك كان الطلبة ؛ فمنهم من يستمع ولا يتكلم ، ومنهم الثرثار ، الذى يتكلم فى شرح كل عبارة أو يسأل حتى فى البديهيات ، ومنهم الجاهل العيي ، ومنهم المغرور ، ومنهم من يعنى بالتضييق على الشيخ فى شرحه وتقريره ؛ وإجمالا كان الطالب نسخة من الشيخ فيكون قصير الفكر ألكن اللسان ، إذا كان الشيخ كذلك .

وكنت ترى بعض الشيوخ يطيل فى الدرس ، فيسهب فى الشرح والتفسير ، محققا مدققا ، مبينا : لِمَ عبر بالواو ولم يعبر بالفاء ؟ وإن قيل كذا (اعتراضا) ، أجيب بكذا ؟ وماهو المراد من قوله كذا ؟ الخ ومن هنا نشأت عبارات اصطلاحية ، كقولهم « المراد يدفع الإيراد » أى أن بيان المقصود من العبارة يدفع الإيراد أى يرد الاعتراض عليها بأنها تؤدى غير مايفهم منها .

ويهمنى قبل استعراض محاسن ومثالب طريقة الدراسة بالجامع ، ان أشير إلى الاحتفالات التى كان يقوم بها الطلاب عند ختام الكتب ، فيفد الشيوخ من أصدقاء الشيخ ويجلسون فى حلقة الدرس مع الطلاب ، يستمعون لآخر درس فى الكتاب ويكون قصيرا عادة ؛ فإذا انتهى الشيخ من الدرس وقال « والله أعلم » عجّوا جميعا بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم بالعبارة المأثورة « اللهم صل أفضل صلاة على أسعد مخلوقاتك نور الهدى محمد صلى الله عليه وسلم الخ » ثم تتلى بعض آى الذكر الحكيم ويسقون الشراب وتوزع الحلوى على الحاضرين والمدعوين ، وتلقى الخطب فى مدح المشايخ وغير ذلك [1] .

هذا مجمل وصف لطرق الدراسة بالجامع ، وقد ترى فيها مايأتى :

---

(١) راجع كتابى « مرقاة الخطابة العصرية » تر فيها نماذج من هذه الخطب .

٦ — عدم مواظبة الطلبة على الحضور ، إذ لا رقيب عليهم.

٧ — سوء الترتيب فى عمل الطلبة ، فقد يهمل طالب ولا يحضر فى اليوم غير درسين ، فى حين ينهك آخر قواه بكثرة الدروس ، فلا يكفيه إلا خمسة دروس أو ستة فى اليوم . كما أنهم قد يتزاحمون على درس شيخ ، ويتفرقون أو ينصرفون عن آخر ربما كان أنفع من الأول ، كما أن بعض الشيوخ قد يمكث فى درسه أكثر من ساعتين فى حين يقطع آخر درسه فى أقل من ساعة ونصف ، فيعترى الطلبة الملل والسآمة فى الأول على حين يتوافر نشاطهم فى الدرس الثانى .

٨ — كان اختيار الشيخ موكولا إلى هوى الطلبة ، فقد يكون اختياره لقرابة فى البلد ، أو لصداقة أو استظراف ، أو لحب الفخفخة ، أو لطلب المنفعة الدنيوية عند فاسدى الطلبة ، وضحايا هذه الأسباب كثير . وربما كان هناك من الشيوخ من هو أنفع منه ، على أن الطلبة قد يعتمدون فى اختيارهم على ما قد يسمعون عنه ، أو على شيخ مهرج مضيع للوقت ، وينصرفون عن الشيخ المحقق المفيد .

٩ — سوء توزيع المواد فى الجامع الأحمدى ، جعل شيوخه وطلابه لا يعنون بالعلوم والكتب الفلسفية كثيرا . بخلاف طلاب وعلماء الأزهر الشريف ، فإنهم أسبق فى هذا . ولهذا

كان الفرق ظاهرا بين منطق علمـاء الأزهر وعلماء الجامع الأحمدى . وكذلك نجد شيوخ الأزهر يقرءون كثيرا من الكتب القديمة المحترمة المعقدة .

١٠ — ومن أهم مثالب طرق الدراسة بالجامع ، عدم التحصيل ، تحصيل المعلومات ، إلا ما حفظوه من المتون المنظومة وغير المنظومة ، فهم لا يستظهرون إلا المتون ، وقد يسأل الشيخ أو الطالب الكبير عن مجمل بعض القواعد فيكون جوابه «نراجع» ويزعمون أن العلم فى السطور لا فى الصدور ، وقد بالـغ طلبة وتلاميذ اليوم فى التحصيل ، صارفين النظر عن الفهم والبحث والتعمق ، فى فحص التراكيب واستطلاع أسرارها ، فيكون مبدؤهم « العلم فى الصدور لا فى السطور » .

أغراض الدراسة

تنقسم العلوم فى الدراسة الدينية إلى قسمين ، وسائل ومقاصد ؛ فالنحو والصرف وعلوم البلاغة والأصول والمنطق من الوسائل ، أما التفسير والحديث ، والتوحيد والفقه فهى المقاصد ؛ أى أن الغرض من دراسة الصنف الأول من العلوم التوسل بها لفهم العلوم الدينية . فمتى فُهم كتاب الله وحديث الرسول ، وألم الطالب باحكام الدين ، كان ذلك منتهى ما يرمى إليه ، فحاز السعادة فى الدارين . وكانت التربية الدينية أساس الثقافة فى العصور الأولى كما كانت مقياس الكفايات لدى الخلفاء والأمراء ، بعد أن صار للإسلام دولة وملك .

ولذلك كان أول الأغراض عند طلبة العلم فى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى ، التفقه فى الدين والتقرب إلى الله تعالى بالانقطاع لطلب العلم .

وكان هدف الطالب المجد المواظب على حضور الدروس ، حصوله على شهادة العالمية ؛ إذ كان حاملها وهو المشهود له بالعلم أرقى الناس ، فى نظر أهل العصر من عامة الناس ،

إن الأكابر يحكمون على الورى   وعلى الأكابر تحكم العلماء

كان العالم فى ذلك الوقت عنوان الكمال ، لعلمه بأحكام دينه ولعمله بما يعلم . فكان فى التقرب إلى العلماء ، والاختلاط بهم ، ومجالستهم شرف لا يعادله شرف . كان والدى (رحمه الله) يحس بهذا ويعتقده ، وكان ندمه شديداً على أنه لم يفلح فى طلب العلم ، فصمم على أن يسير بابنائه فى هذه السبيل . وكان فى الناس من يهب أولاده لطلب العلم أو للسيد البدوى مثلا ، فلا يبيح لهم الانقطاع عنه ، ولو بالحصول على مرتب لا يحلم به الناس حينئذ . وكنت لذلك ترى عدد الطلاب الذين يدرسون الفقه على المذهب الحنفى قليلا ، وهم الراغبون فى تولى مناصب القضاء . كما أن بعض الآباء كان يرى فى إلحاق ابنه بمدرسة « دار العلوم » أو « القضاء الشرعى » كارثة دينية ، لأن الاشتغال بالتدريس فى المدارس أو وظائف القضاء الشرعى، عمل من أعمال الدنيا وليس كالاشتغال بمدارسة كتاب الله وسنة رسوله أو دراسة مسائل الدين .

ولكن لم يكد يمضى ربع القرن المذكور حتى اتجهت أنظار الطلبة إلى الدراسة الدنيوية ، وكادوا يبعدون عن الفكرة الدينية باللحاق بالمدارس السابقة .

وكان من مزايا طلب العلم فى ذلك الوقت إعفاء الطلاب والمدرسين من القرعة العسكرية ، ومن بعض أعمال السخرة

التى كانت مقررة على غيرهم . وكذلك كان بعض الطلبة يتمتع ببعض الرواتب ، كالخبز الجارى (الجراية) والسكن فى مساكن الطلبة (الخلوات) ، وقراءة البخارى ، أو القراءة فى بعض المقارئ ، وشغل وظائف المأذونية ، والتوظف فى وظائف صغيرة ، كالخطابة والإمامة فى بعض الزوايا والمساجد ونحوها .

وكان من السهل العثور على طلبة قضوا فى الجامع فوق العشرين سنة أو نحو الثلاثين ، وهم قانعون برغيفين ، قابعون بحجرة من الخلوات ، يدرسون بعض الكتب ، ويستعينون على الغربة بقروش تسد مصروفهم القليل الهين . وفى كل عام يكتبون أسماءهم فى جدول الممتحنين للعالمية وندر من حصل منهم عليها . أما من أقعده الجبن أو العجز ، أو من خانه الحظ ، أو من يئس من النجاح ، فإنه إما أن يبقى كذلك بالجامع حتى يأتيه أجله ، أو يسافر إلى قريته فيجلس فى مسجدها للتدريس والفتيا ، مكتفيا بما حصل من العلم للتنور والمعرفة فقط .

ولا يفوتنى أن أشير إلى رجل فى الجامع ، أحرى أن نسميه «فيلسوف الطلبة» أو «فيلسوف الجامع» وهو الشيخ ابراهيم . . . الذى انقطع لطلب العلم مدة طويلة . وكرّس حياته لحفظ متن المنهج ، فكنت تسمعه يقرأ فيه وهو يكرر الجملة مرارا ، متأتئا مفأفئا ، فلا هو بحافظ شيئا ، ولا هو بتارك القراءة والتأتأة

والفأفاة . وقد ذكرت أنه « فيلسوف » لأنه كان يحيا حياة الفلاسفة . فهو يحمل جوالقه (شواله) على ظهره ، وفيه كل متاعه ، والله أعلم به ، وقد ربط به إبريقا وطسيتا من الصفيح . وحمل فى يده متن المنهج ذاهبا آيبا من دورة المياه إلى الجامع ، وقد بقى من بصره شعاع ضئيل ، تزاحمه الدموع المدرارة ، وكان أمره مشهوراً ، ولست أدرى كيف قضى بقية حياته ، بعد أن هاجم نظام سنة ١٣٢٦هـ عشه ، بمكانسه وفراجينه . وكل ما فى الأمر أنه قضى حياته فى طلب العلم ، منقطعا عن الدنيا . رحمه الله وألحقنا به فى جنات الخلد . إنه سميع مجيب ! آمين .

الامتحانات بالجامع

١ — أعطانى والدى «قطعة بخمسة» وطلب إلى أن أتوجه إلى العمدة لاستخراج شهادة ميلادى قبيل السفر إلى طنطا . وبعد أن سلمته خمسة القروش وهى إتاوة كانت معروفة ، كتب الشهادة التالية «نشهد نحن الموقعين عليه أدناه عمدة ومشايخ كفر هورين مركز السنطة غربية أن الشيخ محمد بن الشيخ سيد احمد بن المرحوم محمد عبد الجواد من الناحية بلدنا ومن مواليد ٥ سبتمبر سنة ١٨٨٧ م ومن حملة القرآن الكريم . وتحررت له هذه الشهادة منا بذلك» . العمدة شيخ شيخ

فبراير سنة ١٨٩٩

احتفظت بهذه الشهادة، حتى سافرنا ومكثنا بالجامع أسبوعا ، ثم كتبنا انتسابا قدمناه لشيخ الغربية ، ومعه شهادة الميلاد وهذا نصه :

فضيلتلو شيخ الغربية

مقدمه لفضيلتكم محمد عبـــد الجواد بن الشيخ سيد أحمد ابن المرحوم محمد من كفر هورين مركز السنطة غربية وهو أنى أرغب قيد اسمى ضمن طلبة الجامع الأحمدى على مذهب الإمام الشافعى وجارى حضورى شرح ابن قاسم على الشيخ ابراهيم نصار والكفراوى على الشيخ محمد الحبيشى لازلتم ملجأ للقاصدين ؟

محمد عبد الجواد

توجهنا إلى منزل السيد محمد عبد الرحيم شيخ الغربية ، وكنت أنا ومقودى الشيخ « ابو الفتوح » وكان جريئا لسابق اختلاطه ولكبر سنه ، فلما تقدمنا للنقيب طلبة مستجدين ، طلبوا إلى قائدى قراءة « عشر » فقرأ جملة آيات بصوت جهورى « على القاعد » أى مع التجويد والترتيل والنغم ، وبشىء من القراءات السبع ، فلما فرغ من القراءة قالوا له « فتح الله عليك ! » ، ومعنى هذا أنه ناجح ، فقيد اسمه فى سجلات المشيخة من تاريخ سنة ١٣١٦ هـ .

جاء دورى فى الامتحان وكنت صبيا تقتحمنى العين ، بخلاف زميلى فكان شيخا معمما وفتى كبيرا ، فطلب إلى النقيب أن أقرأ من أول الربع « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى الآيات » فى سورة لقمان ، فبدأت أقرأ الآية متعثرا ، أسقط كلمة فى كل مرة .

وهو يردنى فى كل عثرة حتى قرأت الآية أربع مرات على الوجه الآتى :

ا — ومن يسلم . . . . إلى الله وهو محسن الخ

ب — ومن يسلم وجهه . . . . وهو محسن الخ

حـ — ومن يسلم وجهه إلى الله . . . فقد استمسك بالعروة الوثقى .

ى — ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى .

وأخيرا استوقفني وأخبرني أني صغير ، لأني دون ١٤ سنة ، ويحسن أن أنتظر سنتين ، ورد الىّ اوراقي فاحتفظت بها إلى سنة ١٣١٨ ﻫ حين قُبل انتسابي . لم يخبرني أحد أني فشلت في الامتحان ، وأن انتسابي لم يقبل يومها لعدم حفظي القرآن ومكثت سنتين أحضر في الجامع بدون قيد اسمي، ولكني أظن أن رفض انتسابي كان لذلك ، ولو أن سني كانت صغيرة ، ولو علم والدي ذلك لأصابني منه ما أصابني .

هكذا كان أول امتحان بالجامع ، وهو امتحان الانتساب أو تقييد الاسم بالسجل فيه . وهكذا على ماأظن ـ كان رسوبي أو إخفاقي في أول اختبار أديته ، على الرغم من أن والدي كان يشجعني كثيرا بإقحامي في المجالس العامة ، ويلزمني قراءة ربع في مجتمعات العيد في الدوار ، ويجيزني على ذلك بنصف قرش يؤديه أو لا يؤديه احيانا ! وأشهد الله أني كنت أحفظ القرآن جيداً ، وهذه السورة خاصة ، ولكن نجاح الطالب ليس في يده !

وعلى أن أسعي وليس على إدراك النجاح

وقد يكون في ذلك إخلاف لظن الوالد لشدة حرصه على تربية ولده بطريق خاصة ، ولو لم تساعد المقادير ؛ ولكن ثقتي بإيمان والدي لاتبرر هذا الاتهام عندي .

٢ ــ كان طلاب العلم ـ كحفظة القرآن ـ يعفون من الخدمة

العسكرية، على شريطة أن يكونوا قدقضوا سنتين مقيدين بالجامع، وأن يؤدوا امتحانا أمام لجنة المعافاة بالمشيخة .

جاءت سنة ١٩٠٥ فتقدمت للمشيخة «بأورنيك» معافاة لطلب العلم ، ومثلت أمام اللجنة المكونة من شيخ الجامع ، ومندوب القرعة (وهو أفندى) وبعض العلماء ، فسألنى الشيخ عن الكتب التى أحضرها ، وطلب الى شرح « فصل والمسح على الخفين جائز » من متن أبى شجاع ، فأخذت أشرح مستدلا بما أحفظ وأفهم من متن الألفية ، فدهش الشيخ والمندوب ، ونجحت فى الامتحان وأعفيت من القرعة العسكرية . على أن المقادير لم تترك هذه المعافاة حرة ، بل حاطتها بحوادث بعضها يسير وبعضها عسير ، فقد ظهر أنى طلبت المعافاة قبل الميعاد بسنة ، ولكن هذا لم يمنعها فى سنة ١٩٠٦ غير أن أحداثا حدثت بالجامع سنة ١٩٠٩ أفسدت أو الغت هذه المعافاه فدفعت البدل النقدى وهو عشرون جنيها مصريا ، كما سترى .

٣ — أما الصنف الثالث من الامتحان فهو « للترقية » أى نقل الطالب من الدرجة الثالثة إلى الثانية ، وكان ذلك فى شرح ابن عقيل ، وقد نجحت فيه سنة ١٣٢٢ هـ ١٩٠٤ م بعد الهروب منه كما سترى فى الفصل التالى ، كذلك الترقية من الدرجة الثانية إلى الدرجة الأولى، وكان فى شرح السعد على التخليص وقد مررت فيه بسلام سنة ١٣٢٥ هـ و ١٩٠٧ م . وكان امتحان الترقية

ضروريا للطالب المواظب حتى يستطيع دخول امتحان «العالمية» وهو الامتحان النهائى .

٤ — أما امتحان «العالمية» فى أيامنا فقد كان شفويا فقط.

ولكنا نسمع قبل ذلك أن الطالب كان يستمر فى طلب العلم وحضور المذهب وإعادة كتبه ، «حتى إذا أنس من نفسه علما كافيا وملكة يتمكن بها من إفادة غيره ، جلس للتدريس ، حيث يجد مكانا خاليا ، وعرض نفسه على الطلبة ، فكانوا إذا وجدوه على علم التفوا حوله وقبلوا يده ، وإذا رأوا غير ذلك انصرفوا عنه ، وتلك هى شهادة العالمية التى كان العلماء يأخذونها» «تقويم الحكومة سنة ١٩٣٩ ص ٧٠

وقد خطا هذا النظام خطوة أخرى ، إذ كان الطالب الذى يريد العالمية ، يجلس فى درس يضم شتات العلماء ، ويأخذ هذا الشيخ فى التدريس للطلبة ، فيشترك الشيوخ الحاضرون فى المناقشة والمساءلة ، حتى إذا رأوا منه استعدادا وكفاية ، وكاد ينتهى من درسه ، قام إليه شيخ العلماء قائلا : «والله أعلم» ثم سلموا عليه وهنئوه واستمر مدرسا .

ونحن الآن حوالى سنة ١٩٠٠ م كان «طالب العالمية» يؤدى امتحاناً شفويا فى الأصول والفقه والتفسير والحديث والتوحيد والنحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والمنطق ، أمام لجنة بعد «تعيين» أجزاء من الكتب يدرسها قبل الامتحان

بأسبوع،فيبسط أمامها ما أمكنه تحصيله ، وهم يناقشونه ويراجعونه ويسألونه فى شتى العلوم ، حتى إذا وجدوا منه استعداداً وكفاية منح « شهادة العالمية » .

وعلى الرغم من وجود ألفى طالب بالجامع ، كان عدد المتقدمين لهذا الامتحان فى كل عام قليلا ، والناجحون فيه قلة لا تتجاوز أصابع اليـــدين ، لأن أكثرية الطلبة لم يكن لديهم مايحملهم على الانقطاع لطلب العلم والاشتغال بالدرس . وطالما اتهم الراسبون لجان الامتحان بأقسى التهم وأشنعها ، ولا يحمد السوق إلا من ربح .

٥ — ولا يفوتنى أن أذكر خامس امتحان أديته بالجامع قبل خروجى منه بأيام قلائل ، فقد جاء نظام سنة ١٣٢٦هـ-١٩٠٨م وسار الجامع سَنة دراسية على سُنة دراسية جديدة ، وأعلنت المشيخة امتحان مسابقة يكون تحريريا للحصول على « جراية » كبيرة قدرها ثلاثة أرباع أقة فى اليوم . فتقدمت لهذا الامتحان مع من تقدم . ولخبرتى بالإجابات التحريرية سبقت الطلبة جميعا وصرفت لى « الجرايه » أياما ثم انتزعها من يدى المرحوم الشيخ مصطفى الخشاب « المشد » يوم الفتنة كما سترى .

فرار وتكفير عنه

ليس غريبا أن يغيب طالب عن امتحانه ، وأن يؤديه فى آخر العام إذا لم يؤده أوله ! ولكن الظاهر أن كل حرص يوصل إلى الحرمان ، وأن شدته تأتى بعكس ما كان منتظرا . ووالدى يعد الأيام والشهور ، بل الساعات والدقائق ، للزمن الذى أقضيه فى الجامع ، انتظارا للفراغ منه والحصول على مطلوبه ، وهو « شهادة العالمية » ! فتركى امتحان الدرجة الثانية اعتبر فرارا من الميدان وهربا غير شريف ، ولا بد أن تقوم الدنيا من أجله وتقعد ، ولا بد من التكفير عن هذا الجرم ! نعم هربت من امتحان لا عن قصد ، وظللت أكفر عن هذه الهفوة ثلاثا وعشرين سنة ، أديت خلالها ثلاثين امتحانا ، آخرها امتحان « ليسانس القوانين » فى كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول سنة ١٩٢٧ م .

قضينا نحن الرفاق الأربعة بالجامع ست سنوات ، ونحن من طلاب الدرجة الثالثة ، لا نأخذ رغيفا جاريا (جراية) ولا نسكن خلوة ، ولا يضاعف نصيبنا فى الصندوق . وبعد قليل من أوائل العام الدراسى ٢١ — ١٣٢٢ هـ ١٩٠٤ م أعلنت المشيخة امتحان الترقية للدرجة الثانية ، وعلى الطالب الراغب فى ذلك أن يقدم

شهادة بحضوره شرح « الشذور » على أحد الشيوخ ، وأن يكون في درس « ابن عقيل » ، ثم يؤدى فيه امتحانا . نحن نحضر ابن عقيل حقا ، وقد حضرنا الشذور من قبل ، ولكن على من ؟ هرع طلاب امتحان الدرجة الثانية إلى المشيخة ، لتقديم الشهادة اللازمة ، وبالبحث تبين أن الشيخ الوحيد الذى قرأ شرح الشذور فى السنة الفائتة ، كان الشيخ « على النمر » فوقّع مالا يقل عن نصف الف شهادة ، مع أن درسه مشهور بأن عدد طلابه لم يكن يصل إلى العشرين !

أعددنا الأوراق اللازمة ، ومكثنا ننتظر النداء على أسمائنا للامتحان ، لأن الطلب على حسب ترتيب السنوات ، وست سنوات فى الدرجة الثالثة غريبة حقا ، فهناك من قضوا فيها ١٥ سنة أو أكثر !

أخذ الرعب يدب فى نفوس المنتظرين لما سمعوا من صعوبة الأسئلة وكثرة شهادات الشيخ « على النمر » فولوا الأدبار وتركوا الامتحان إلا قليلا منهم. أما نحن الأربعة فقد ترددنا بين الدخول وعدمه ! وأراد الله أن تتخلل أيام الامتحان بعض أيام المواسم فأرسل أبى الىّ الحمارة ، يستقدمنى إلى البلد ، لقضاء الموسم هناك على غير عادة !! انقسمنا فى الرأى فريقين، وحبّب الىّ كبير الفريق الثانى ترك الامتحان والسفر إلى البلد ، فالحمارة فى انتظارى وبقى

الاثنان الآخران فى انتظار الامتحان ، وركبنا الحمارة إلى البلد باسم الشيطان مجراها . ليت الرحمة لم تصل إلى قلب أبى فى هذه المرة ! ليته كان قاسيا ، كما اعتاد ، فى غير أوقات القسوة، فتركنى أحضر ماشيا ، أو لا أحضر كلية . ولـكن هى الأقدار تجرى كما شاء مجريها ! وصلنا البلد ، وبتنا ليلة قبل الموسم وفى آخر النهار وصل الفريق الثانى يحمل من أخباره السارة ، ما كان علينا وعلى أبى خاصة كالصاعقة ! فما كدنا نغادر طنطا حتى وصل الامتحان إلى أسمائنا ، فدخل الاثنـان ونجحا ، وأخذا يذكران سهولة الامتحان ، ويسرد الشيخ أبو الفتوح فى لباقة ومرح ، ما كان بينه وبين الشيوخ من نـكت واستحسان .

كان أسف أبى مزدوجا، لأنه كان يريدنى أن أدخل الامتحان ولو لم أنجح ، لـكى أعتاد مواجهة العلماء فى الامتحان الأكبر ، امتحان العالمية، على أنه صرح بأنى لو دخلت الامتحان لنجحت ، لأنه يعتقد فى نفسه — وإن كان يظهر لى دائما خلاف ذلك — أنى أنا أعلم هؤلاء وأذكاهم ، بما أقمت على هـــذا من أدلة ، فى اجتماعات ومناسبات ومحاجات عدة .

حضر الشيخ أبو الفتوح فى الصباح إلى دارنا وجلسنا نفطر ، فكان يلتهم الأكل التهاما لسروره ، وأنا أتجرعه كالسم ، لما أسمع من والدى « عند الامتحان يكرم المرء أو يضرب بالصرمة » .

عدنا إلى الجامع ، وصرف للناجحين راتبهم من الخبز وهو رغيفان ، وكان والدى يتشوق إلى مثل هذا لأنه أول خطوة نحو العالمية ، انتهت العمالة ، وجاءت عطلة الصيف . لا تسل كيف قضيت عطلة الصيف فى هذا العام فكان كل غروب شمس يذكرنى بالامتحان ، فأتنهد ، وأقف ناظرا إلى الشمس فى لونها المصفر ، كأنما أتعجل دورة الفلك ، حتى يجىء الامتحان الثانى قبيل آخر العام . . لم يفت أبى فرصة كان يندد بى فيها ، حتى إنه كان يخاطب بنتى الصغيرة ويدعوها بالمرابة و« إياك أعنى واسمعى ياجارة » ، حتى انتهت الإجازة وعدنا إلى العمالة . لم نمكث فى الجامع طويلا حتى جاء الامتحان الثانى قبيل المسامحة ، وكان سهلا يسيرا ، فكتبت إلى والدى خطابا فى ٩ من شعبان سنة ١٣٢٢ ھ ١٩٠٤م الساعه ٤ عربى نهارا أخبره فيه بأنه « حصل امتحان للدرجة الثانية فى هذا اليوم فأجبت أنا ومن معى » . وإنا وإن فاتنا الخبز الجارى (الجراية) طول العام ، فقد تلاقينا جميعا عند القبض من الصندوق ، فقد كان نصيبنا جميعا مضاعفا لأنا صرنا من طلاب الدرجة الثانية .

حرمان ورزق

كانت « عمالة » طويلة . عاقبني أبي فيها بحرماني النقود . لفراري من الامتحان ! ما ذا أعمـــــل ؟! ومن أين أنفق على ما أشتري من أدام ؟! نعم حملت من الزاد خبزاً وفرنياً وجبنا وغيرها ، ولـكن كيف أشتري حتى الفجل والـكرات ؟!

هذه قلادة امرأتي فيها أربعون قطعة ذهبية، معلقة بخيط رفيق ومن السهل سقوط واحدة منها وقيمتها أكثر من نصف دينار !! لم أعتد السرقة ، مهما اشتدت الحاجة فعلى بركة الله أعود إلى الجامع بشيء يسير من النقود أدفع به الحاجة ، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا ! قد عودني والدي الاقتراض من إخواني ، لأنه لم يكن يعطيني الـكفاية ، ولـكن ليس في الاستطاعة أن أقترض ما يسد حاجتي بضعة أشهر ، فلأسلم الأمر لله !

قمت صباح يوم مبكراً ، وإذا بي أرى قطعة نصف قرش أمام منزل الشيخ الظواهري على الأرض ، فالتقطتها ، وشجعني وجودها على التحديق في الأرض ، فإذا بثانية وثالثة ، حتى اكتملت سبع قطع ، أو ثلاثة قروش ونصف قرش !

الحمد لله ! يرزقني من حيث لا أحتسب !!

خرجت يوما من باب الرخام ، وألقيت حذائى على الأرض خارج سياجه ، ثم هممت بانتعاله ، فإذا بين فرديه كتلة مرصوصة من النقود ، فانحنيت عليها وأخذتها . ويظهر أنها كانت لسائل أو سائلة اعتادت الجلوس بجانب سياج الباب ، وهى لقطة أرانى فى هذه الآونة أستحقها ، فضربت بما فى باب « اللقطة » من الأحكام عرض الحائط !

فرغت النقود من يدى ذات ليلة فدُرت فى الجامع ، فوقع بصرى على قرش كامل ، فحمدت الله على مصروف هذه الليلة . ودُرت ليلة أخرى على أجد الراتب فلم يصادفنى ، فأعدت الكرة ثانية وثالثة ، حتى أحسست بضرورة الذهاب إلى المراحيض ، فقصدت إليها ووقفت أنتظر خلو واحد منها ، وإذا ببقعة بيضاء تلمع فى الأرض على ضوء القناديل الضعيف ، حركتها برجلى فوجدتها قطعة ذات قرشين ، «فقضيت حاجتى» ثم عدت لأقضى حاجتى من الأكل والشرب .

أعوزتنى النقود يوما فلجأت إلى مقام السيد ، ووقفت أمام باب المقصورة أعاتبه ، فمر فلاح يسقط بعض النقود فى صندوق النذور ، وتأكيداً لوضعها كان يخبط فتحة الصندوق بكفه لكى تسقط داخله تماما ، فلما رفع يده تخلف عنها نصف قرش فأخذته ،

لأن بعض أساتذتنا كان يزعم أن ما فى صندوق النـذور مال مباح ، يحل لمن يحصل عليه !

طالت العمالة ، وعلى الرغم من كثرة اللقطة ، أصبحت فى حاجة إلى النقود بصفة منتظمة ، فماذا أفعـــل ؟ هذا الطالب م . زايد ، وذاك م . نصر ، يسردان كلاما عن المقابر وزائريها صباح الجمعة ، وقد اعتادا ارتيادها ! هذا رزق حلال ! وأحق ما اتخذتم عليه أجراً كتاب الله تعالى ! إنهم يحصلون فى اليوم على بضعة فلوس وشىء من الفاكهة الحاضرة ، التى ليست فى متناول معظم المجاورين ! وكذلك يحصلون على عدد من الرغفان ، ولـكنى لست فى حاجة إلى الخبز ، وهناك فى المقابر من يتجر بالخبز ! فلأذهب قبل أو بعـد صلاة الفجر كل يوم جمعة ، وليس عندنا عمل أو دروس فى هذا الوقت ! مرحبا بهذا الرزق الجديد ، وإن كنت قد عُيرت به من بعض الأقارب الحاسدين !

ولست أدرى كيف علمت والدتى ، رحمها الله أنى ما كنت أجيد هذه الصناعة ، وأن أصحابها كانوا يمتازون بالأصوات العالية ، والختامات الممتازة المختارة !

انتهت العمالة على هذه الحال ، وخُتمت السنة على ما رأيت بنجاحنا فى الامتحان ، وإن فاتتنا « الجراية » طول العام ، ولـكن قبضنا حقنا فى الصندوق مضاعفا « درجة ثانية » ; وكان رواج

فى النقد ، فليس علىّ قروض تذكر ، وادخرت مما معى ثمن طربوش للعمامة ، اشتريته كما كان يفعل غيرى من المجاورين ، أقيم البرهان لوالدى على ما أصبت من نجاح وغنى ، ولكن والدى عنفنى على شراء هذا الصنف الرخيص الذى لم أعتد لبسه ، بخلاف ما كان يشتريه هو لى ، فبعته نسيئة لصديق الناجح الثانى.

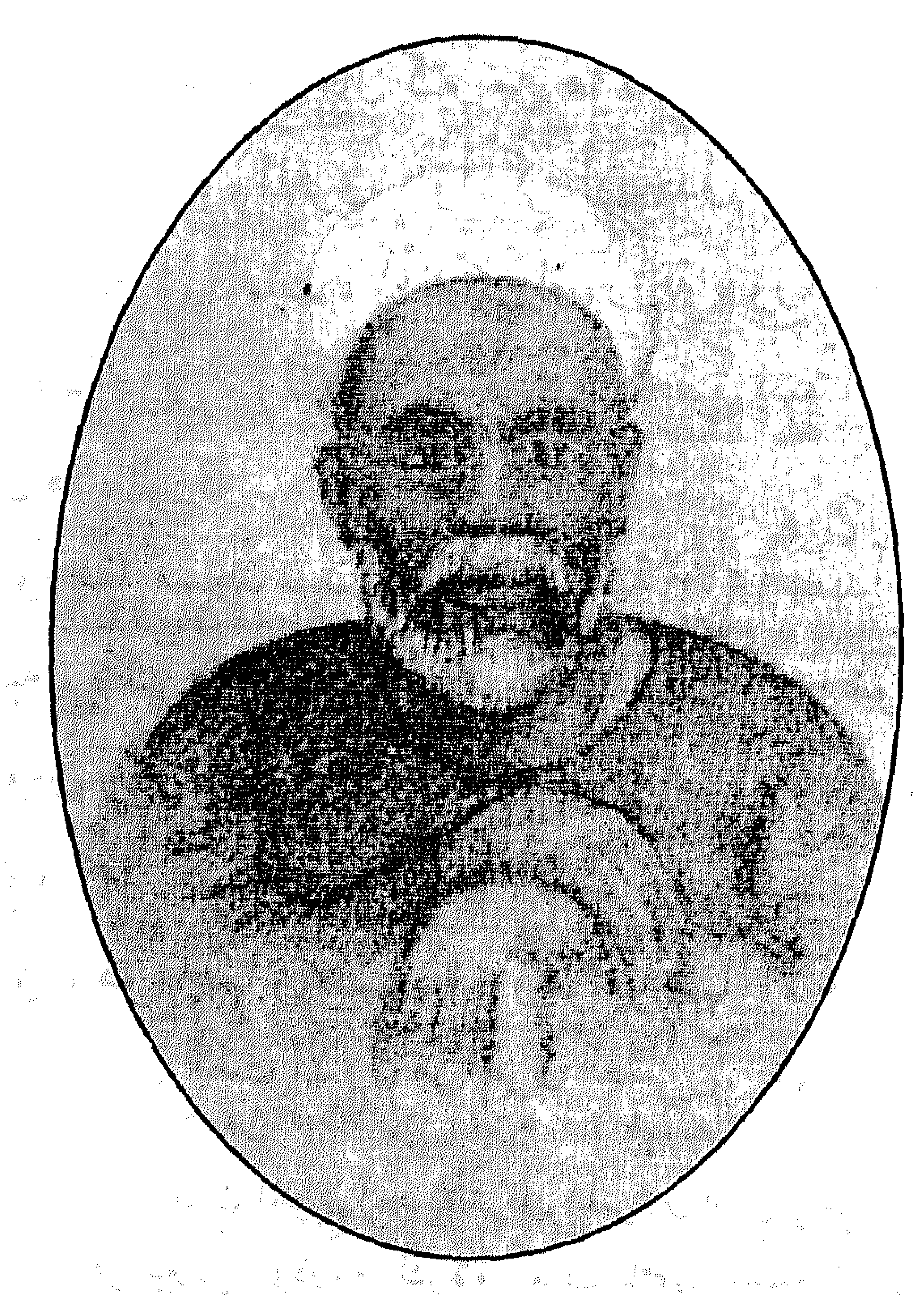
جاء العام الثانى ، وقيدت أسماؤنا على « جراية » بعض الأوقاف ، وأخذنا كل يوم وكل أسبوع وكل شهر نسأل عنها ؛ فلم تصرف لنا ، لأن المشيخة كانت تقاضى أصحاب الوقف الذى تتبعه هذه « الجراية » ! وبعد سنتين من الانتظار أراد الله أن يحظى أبى بعدة رغفان منها مع شىء من حلوى الطحينة ، وهى أحب شىء إليه — كان — وأمر طالما تمناه !

لم تطل مدتى فى الدرجة الثانية ، فدخلت امتحان الدرجة الأولى مختاراً ، وسبقت كل الرفاق ، وأضفت إلى ذلك أن دخلت امتحان مسابقة « تحريريا » بعد النظام للحصول على « جراية » فخمة مقدارها ثلاثة أرباع الأقة يوميا ، وهى ضعف الأولى فى المقدار ، ولكن لم أتمتع بها إلا قليلا (كما سبق القول فى صفحة ٢٠٤) . انقض علىّ جندى المشيخة وانتزعها من بين يدى عنوة ، واقتادنى للإدارة فى المشيخة ، حيث علا صوت الفتنة فى الجامع على ما سأحدثك به بعد قليل !

الشيخ أحمد على الشرقاوى

(توفى رحمه الله فى يونيو سنة ١٩٣٨)

عنوان لباب ، جدير بأن يكون عنوانا لكتاب ، ولكن شيء خير من لا شيء .



قائد النهضة العلمية المدنية الحديثة بهورين (غربية)
وما جاورها من القرى

رحلنا صيفا إلى هورين مرة ثانية ، ويممنا مسجد « سيدى حسين المغربى » وهو مسجد من المساجد الكبيرة بالقرى ، وأكبر مسجد فى هورين . وضريح وليه أفخم الأضرحة الكثيرة المنتثرة فيها ؛ ويقال إن بها أربعين ولياً ، بعضهم له مسجد، وكثير فى المقابر القديمة ، وآخر داخل البلد أو خارجها . ويظهر أن هورين كانت محطة رحال كثير من هؤلاء الأولياء ، ومن بينهم سيدى « حموده » المغربى ، وأذكر أن جدتى رحمها الله كانت تستغيث به فى الملمات ، وأنه كان له « رزقة » ورثنا منها نصيبا بعناه لآخرين ، ولكن لم أشتغل ، لا بتحقيق نسبتنا إليه ، ولا بمكان هذه الرزقة .

وجدنا مسجد سيدى حسين [1] سنة ١٩٠٣ معهداً للدراسة العربية ، يجلس فيه الطلاب لحفظ بعض المتون ، وحضور بعض الدروس وكان المدرس الأول فيه ، بل قل مديره ، هو المرحوم الشيخ « احمد الشرقاوى » . هذا الاسم رمز النهضة العلمية فى هورين ، هو باعثها ومحييهـــا ، وهو موجهها الاتجاه الحديث الذى اتجهته فى الثلث الأول من القرن العشرين. نعم كان بالقرية

---

(١) سيدى حسين المغربى أحد الأشراف الحسينيين الذين نزحو الى هورين فى زمن الظاهر بيبرس . وذريته الشرفاء تعرف باسمهم الخطة التى بها المسجد وقد جدد بناؤه سنة ١٢٨٣ هـ ويحفظ له الناس تاريخا بالجمل « زشرش فرج » محمد سليمان صالح .

ثلاثة من خريجى دار العلوم ، وهم المرحومون المشايخ « محمود ضيف بك » و « اسماعيل خليل » و « عبد الله خليل » ولكن الأولين لم يقيما بها ؛ وكذلك كان هناك شيخ من كبار العلماء بالأزهر ، هو المغفور له الشيخ محمد ماضى الرخاوى ، وكان من خيار العلماء الصالحين ، ومن أسرة كريمة ، وكان لوالدى به صلة متينة من يوم كان مجاوراً بالأزهر ، وظلت مدة طويلة ، كان من مظاهرها زيارتنا كل صيف ، وقد توثقت هذه الصلة لما تقدمت فى طلب العلم .

لم يكن هذا الشيخ يهتم إلا بالناحية الدينية من التعليم ، لأنه مدرس بالأزهر ، وكان علماء الأزهر وطلابه يعتقدون فى مثل طلبة دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى بعد ذلك ، وفى المشتغلين بالعلوم الحديثة عامة — اعتقاداً سيئا ، وينسبون الإلحاد إلى طلبة دار العلوم خاصة .

وكان على الضد من ذلك الشيخ « أحمد الشرقاوى » لأنه كان ذكيا ، وعلى جانب من العلم عظيم ، ولكنه لم يحظ بنيل الشهادة الرسمية « شهادة العالمية » ، وكان بين الشيخين منافرة ومنافسة مستورة ، كما بين مادتى العلوم الدينية والعلوم الحديثة ، أو كالتى بين طالب أزهرى وآخر من دار العلوم . ويعزون بعض أسباب هذه المنافسة إلى مكان الاسرتين ، وإلى مايزعمون من عدم

مساعدة الشيخ الرخاوى للشيخ الشرقاوى فى الحصول على «شهادة العالمية» . بل قد يذهبون إلى أبعد من ذلك ، إلى أنه كان يقف فى طريق نجاحه ، حتى تولدت البغضاء بين الاثنين ، واتسعت الهوة بين الشيخين ، وبعدت الشقة بين المذهبين .

لهذا عمد الشيخ الشرقاوى، وقد يئس من حصوله على شهادة العالمية ، إلى سلوك طريق فى التعليم خاصة ، غير الطريق التى كان يسلكها العلماء فى الأزهرَين ! فالكتاب الذى يقرءونه فى سنة طويلة ، يتمه فى شهرين ، تاركا التمحكات اللفظية إلى جوهر المعنى ولب الموضوع ؛ فيلخص الدرس، ويفسر المتن بلا كلفة ولا مشقة ، ثم يعود فيقرأ الشرح مع التعليق على مايراه فى حاجة إليه ؛ وإجمالا كان يسهل وييسر سبيل العلم إلى المشتغلين بتحصيله .

وقد توافد الطلاب من القرى حول هورين ، فكثر عددهم فى الجامع ، واكتفى الشيخ بالتدريس لكبار الطلبة ، وعهد إلى بعض هؤلاء الطلاب النابهين بدراسة كتب صغيرة لصغار الطلبة والمستجدين ، وبهذه الطريقة أسس معهدا صيفيا كان على رأسه يدير دفته ، وكل من فيه متطوعون . فنشطت الحركة العلمية نشاطا كبيرا فى هذه القرية ، والقرى حولها من « كفر هورين» و « كفر عليم » و « حنون » و « كفر أكلا الباب » حتى وفد إليه من طنطا أحد كبار الموظفين الآن (الأستاذ أحمد خلف الله

المراقب المساعد لمنطقة غرب الدلتا) وبعض أقارب الشيخ من مديرية الشرقية ، فكان مسجد سيدى حسين عامرا فى كل صيف كأحسن معهد دينى علمى رسمى .



المرحوم الشيخ أحمد الشرقاوى

مع هيئة الطلبة الجوادية

فى صيف سنة ١٩٣٦ قام أعضاء « هيئة الطلبة الجوادية » برحلة لهم إلى هورين لزيارة الشيخ عقب شفائه . وقد أخذت لهم هذه الصوره قبيل الغروب وهم بملابس الاجازة فى الريف .

ومجرد ذكر اسم الشيخ الشرقاوى يدعو للإطراق والتفكير فى ضروب تشجيع المتعلمين فى قريته، وإن كانت الصلة بين ذلك وبين موضوعى قد ترى بعيدة ! لم يكتف الشيخ الشرقاوى بشغل الطلاب فى الصيف ، بل شجع كثيرا منهم على اللحاق بمدرستى دار العلوم والقضاة الشرعى ، والضعاف منهم بمدارس

المعلمين الأولية فى أنحاء القطر المختلفة ، وبذلك انتشرت الثقافات الحديثة ، وفتح أبواب الرزق فى وجوههم . ولم يقتصر على هذا ، بل كان يذهب إلى كل والدة تضع ذكرا فى بلده ، فيعاهدها على أن تهب ابنها للعلم ، وكان يساعد الفقراء والمحتاجين منهم فى رحلته إلى الأزهر أو إلى المدارس ، حتى إنه كان يتخذ بمصر سكنا له وللطلاب معه ، يكون فى « رَبع » أوفى منزل من منازل المماليك ذات الردهات الواسعة ، وينظم فى هذا المسكن إدارة لمعيشة الطلاب ودراستهم وامتحانهم ونومهم ، إدارة دقيقة كأنها مدرسة داخلية غاية فى النظام .

كان من أثر هذه الرحلة أن تغيرت طريق دراستى ، وازداد ميلى للعلوم الحديثة ، ثم دخولى دار العلوم عن غير قصد ، وعلى غير رغبة من والدى ، رغم تمسكه بأن أحصل على « شهادة العالمية » حتى أعوض مافقده هو فى حياته من اتمام دراسته بالأزهر ! كان الشيخ الشرقاوى شديد الرغبة فى اتجاهى نحو دار العلوم ، وكان والدى شديد الإباء لذلك ، بحجة أنه لايريد من العلم غير طريق الله ، وأنه لم يرض بحضورى الفقه على المذهب الحنفى لئلا تكون هناك شائبة فى أنه يميل لأن أكون قاضيا ، فما بال دار العلوم وهى بعيدة كل البعد عن العلوم الدينية والتعليم الدينى ! ؟

طالما قامت معارك بين الشيخ وإخواتى من طلاب دار العلوم من ناحية ، ووالدى من ناحية أخرى ، فهم يحاجّونه فى الخسارة التى تلحقنى من بقائى بين علماء الأزهر، الذين لم يلموا بما كنت أحصله من تلك العلوم الحديثة ! وكانت تزيد حسرتهم ويشتد أسفهم عندما يطلعون على ما أنشأته من مقالات ومقامات



بعد عشرين سنة (اغسطس ١٩٢٨)

وهو يأبى أن يرانى أمشى بحذائى على الحصير ، كما يفعل طلبة دار العلوم ؛ ولكن أراد الله ولاراد لقضائه أن ألحق بدار العلوم بعد طردى من الجامع الأحمدى على الوجه الذى ستراه بعد ، وأن يرانى أدوس بحذائى أفخم البسط العجمية والقبعة على رأسى مكان العمامة . (١٩٢٨ م)

مأذون

كان والدى رحمه الله مأذون الشرع الشريف بقريتنا ، وقد ورث المأذونية عن أبيه عن جده ، الذى كان نائب الشرع الشريف بكفر هورين غربية .

اختلف أبى وقاضى المركز على مسألة دعت لاستقالته ؛ والذى سمعته من والدى أنه استقال على إثر خلاف بينه وبين القاضى أدى إلى قول والدى له : إذا أردت أن تطاع ، فمر بما يستطاع ! أما تفصيل الموضوع فيظهر أن والدى تسرع فى اعذار شخص بالحضور إلى المحكمة على الطريقة المألوفة إذ ذاك . فكان الإعذار لحضور جلسات المحاكم الشرعية على يد المأذون ، وكان فى ثلاث صور ، يذهب المأذون لمنزل المعذر ثلاثة أيام ، ويقف ببابه يناديه بما معناه : يا فلان ابن فلان ابن فلان ! عليك التوجه لمجلس القاضى فى الساعة كذا من يوم كذا لسماع الحكم عليك فى قضية كذا ، وإن لم تحضر يوكل القاضى من ينوب عنك فى سماع الدعوى !

والظاهر أن والدى أرسل الإعلانات قبل الميعاد ، فاختلف هو والقاضى واستقال .

كنت أنا فى ذلك الحين قضيت بالجامع ست سنوات ،

وأصبحت من أهل العلم ، ولا مانع من أن أكون بدل والدى « مأذونا » والقرية مصممة على هذا ، وإن أباه أبى !

غير أنه اضطر للنزول على إرادتهم وقدم لى طلبا ، وتقرر امتحانى لذلك .

كان الامتحان سهلا ، والنتيجة مضمونة ، ما دام هناك جنيهان ذهبيان ! فامتحنت مع آخر من قرية أحد الأعيان الذى شفع له فى النجاح ، فنجحنا وتسلمنا دفاتر المأذونية ، وعدت للبلد متأبطا هذه الدفاتر ، مأذوناً بعقد الزواج وإثبات الطلاق . لم يكن لى من المأذونية — فى الواقع — غير خاتم يمهر به والدى الوثائق التى خلا معظمها حتى من توقيع الشهود ، وكانت موضع ملاحظة عند تسليم بعض الدفاتر للمحكمة .

والله يعلم أنى لم أجلس لعقد عقد مدة السنوات الأربع (١٩٠٥ — ١٩٠٩) التى قضيتها فيها غير مرتين انتهت إحداهما بفض المجتمع بعد الفشل فى الزواج ، الذى أقيمت له حفلة عظيمة ، ولو تم لنالنى منه زوج من الجنيهات ؛ أما الثانية فكان والدى غائبا ، ودعيت لزواج بنت فقيرة ، وحاولوا أن يعطونى ريالا ، ولكنى رفضته بإباء ، لما تلقيته عمليا عن والدى فى أثناء عمله ، من شهامته وعدم الطمع فى مال المحتاجين ؛ فعقدت العقد وحملت العروس إلى زوجها فى القرية المجاورة .

قُبلت طالبا فى دار العلوم سنة ١٩٠٩ وكان علىّ أن أستقيل ، فلأحمل دفاترى إلى المحكمة ولأذهب ماشيا على القدم إلى المركز — وبينه وبين قريتنا نحو ٨ أميال — لتسليمها . وعلىّ أن أقابل حضرة القاضى (وهو غير الذى امتحننى) للمرة الثانية ، لأقدم له الاستقالة بنفسى ، وكانت دهشته عظيمة ، حينما علم بدخولى دار العلوم . ودعالى بخير ! ولعلك فى شوق إلى معرفة سبب المقابلة فى المرة الأولى ! كنت أمامه فى تحقيق لاستجوابى عن امرأة مطلقة رُدت إلى زوجها، فاحتفظت بقسيمة الطلاق الأول، ولم يُعلم عليها والدى بالزواج الثانى أو الرجعة ؛ فذهبتْ إلى القاهرة وتزوجت بهذه القسيمة زواجا ثانيا ، فصارت زوجا لزوجين ، ولم تستطع نظارة الحقانية التصرف فيها ، غير أنه أصابنى منها « الوقف » عن العمل شهرا ، بعد أن تبين القاضى حسن نيتى ، فحاول تخفيف جزائى إلى هذا الحد الصغير . كان وداع القاضى مؤثرا ، وقد احتفظت له بجميله فى القضية الأولى ، كما شكرت له حفاوته وتمنياته فى الموقف الأخير !

تجارة

سيعجب القارىء من هذا العنوان ، إذ لا صلة له ظاهرة بالجامع الأحمدى ، ولكنها إجازة طويلة ، منها شهر رمضان ، وقد خشى والدى أن أقضيها لاعيا أو لاهيا ، فأعود للجامع بعدها وقد نسيت ماحفظت وجهلت ماتعلمت ؛ فاخترع لى عملا يجمع بين الدنيا والآخرة ، وبين الرياضة والجد ، وبين دراسة دينية وأخرى دنيوية .

كان للأسرة عادة فى رمضان ، أن تختزن من طعامها ما تدعو إليه التوسعة المألوفة ، إذ يرتفع مقرر الأرز والبطاطس فى هذا الشهر ، كما يضاف إليه أصناف من القطانى كاللوبيا والفاصوليا ، والسحور يستدعى شيئا من الزيتون والحلوى .

كل ذلك حمل والدى على أن يعطينى جنهين انجليزيين ذهبا قبيل رمضان سنة ١٣٢٥ هـ أكتوبر سنة ١٩٠٧ لأشترى منهما جوالق « شوالا » من الأرز وشيئا من الحلوى والزيتون والقطانى ، فأمد المنزل بما يحتاج إليه وأشتغل بالتجارة فى الباقى .

أعد لى منظرة أو مندرة أتخذها حانوتا ، وكانت بجوار الباب ، ولها عدة نوافذ ، وبها دكة خشبية طويلة ، كان عليها مجلسى بجانب إحدى النوافذ .

اشتريت مع السلع ميزاناً وصنجاً ، ومكيالا متوسطاً ، هو ربع الكيلة أو « ملوة ».

كنت أجلس طول النهار فى حانوتى لإجابة طلب المشترين ، وكان ضرورياً أن أشتغل بجانب ذلك بالقراءة والحفظ ، إذ أن عدد المترددين على هذا الحانوت قليل ، والفترات بين الصفقة والصفقة طويلة ، فالعملاء أو « الزبائن » هم أهل الحارة ، ومن تطاير إليهم الخبر من الحارات الأخرى ، أو من سمعوا عن جودة بضاعتى ، أو وفاء الكيل والميزان عندى . وكان من أهم العملاء من استنفدت معاملته النسيئية سائر الحوانيت فى البلد ، فتحين الفرصة لفتح حساب جار عند هذا التاجر الحديث ، الذى خرج على قاعدة « ربنا يكفينا شر تاجر جديد » ولم يعمل بالنصيحة المعروفة « شكك تجبر . طالب تخانق » . أما البضاعة فكانت من أجود الأصناف وأرقاها ، فالحلوى أو الحلاوة الطحينية الشامية البيضاء التى لم يألفها الفلاحون فى الأسواق التى يرتادونها ، كانت خير تفكهة لمن ملك نصف قرش أو ربعه ، وكذلك الزيتون الذى لا عهد لهم به ، وحلوى كرم الله (الكرامل) التى لم يستوردها تاجر غيرى فى القرية ، كل ذلك كان خير إعلان (ركلام) لى ولتجارتى ! وأما موازينى ومكيالى فناهيك بها من موازين ومكاييل وافية ؛ فصنجة ربع الرطل كانت فوق أربع

أوقيات ، وصنجة ثلث الرطل تقرب من نصفه ، والأوقية تقرب من أوقيتين ، « والملوة » فاقت المكيال « العباسى » الوافى الذى ظهر فى ذلك الحين ! هذا الايفاء فى الكيل عند البيع ، وهذه الزيادة فى الميزان ، زادت عدد المشترين منى ، فاتسعت حركة البيع والشراء ، زيادة حملتنى على ملازمة الدكان .

وكانت النتيجة المادية للتجارة — فوق تفكهة أهل الدار — ربح نصف دينار ، كان نسيئة عند بعض الصباغين ، حصله والدى أخيراً ، والنتيجة العملية والأدبية قراءة طول الوقت وأنا متربع على الدكة أمام الميزان بجانب النافذة ، ونقل بعض المستون وحفظها ، وتحصيل شيء ليس باليسير من العلم .

مجاور فاسد

أريدك بهذا العنوان على أن تفهم أن حياة « المجاور » ، المجاور بالمعنى الدقيق ، أو المعنى الذى تنطبق عليه أو ينطبق هو عليها فى ذلك الوقت — كانت حياة تدين وتعفف ، وحياة انقطاع إلا عن الدين ودراسته ، حياة تكاد تحرم على الطالب أن يدرس غير الفقه والنحو والتفسير والحديث ، والبلاغة والأصول ، وما أشبهها ، من العلوم التى توصل إلى فهم أسرار كتاب الله وسنة رسوله ، ومعرفة أصول الدين وفروعه . فلا يليق بالطالب أن يضيع وقته فى دراسة الحساب ، ولا أن يتعلم الجغرافيا فيدرس أن الأرض كروية ، ولا أن يتعلم الإنشاء لأنه صناعة الصحفيين ، ولا أن يحسن خطه لأن هذا من عمل « الكتبة العموميين » ! فعراك فى سبيل الحياة العملية ، أو فى سبيل التحرر من قيود التربية الدينية البحتة ، والإلمام بطرف من علوم الدنيا — كان يُعد خروجاً أو انحرافاً عن طلب العلم . ولكن هناك أرواحاً ظمأى متعطشة إلى معرفة شىء من العلوم الحية ، أو علوم الحياة والمعيشة ؛ هناك عقل لم يكفه أن يدرس أقسام الماء من مطهر وطاهر ومستعمل ، ولا أن يعرف كيف يصلى على الميت ،

ولا أن يلم بالحـدود (العقوبات) وهو لم يول أمر القضاء على من انحرف أو خرج عن جادة الشرع الشريف !

هذا العقل المسكين حائر ، يرى من الخسارة أن يقصر حياته على قراءة أحكام لا عمل بكثير منها ، وتضيق نفسه أن تضيع ساعة فى شجار بين الواو والفاء ، وأفضلية التعبير بإحداهما بدل الأخرى ، وإجمالا يريد بصاحبه أن يكون رجلا صالحاً للحياة، ملماً بطرف من العلوم الحديثة ، كالحساب والخط والإنشاء ، والجغرافيا والتاريخ ، بجانب علومه الدينية :

١ — سمع أن رجلا يتبرع بكتابة « صورة الفدان » فى قطع من الورق الرقيق الردىء ، ليوزعها على الطلبة فى الجامع ، فهرع إليه ليتناول نسخة منها ، وأخذ يكررها ليحفظها : دانق ، حبة ، نصف قيراط ، إلى آخر تلك الأسطر التى لا أستطيع ترديدها الآن، والتى ترى صورتها فى الصفحة الآتية .

٢ — رأى أن من بين العلوم الحديثة التى تقرر تدريسها بالأزهر فى سنة ١٨٩٦ م علمين تسللا إلى الجامع الأحمدى ، وهما الحساب والخط ، أعدت المشيخة للحساب درسين أحدهما بزاوية القصبى والثانى بمسجد البهى عصرا ، فى أيام من الأسبوع خاصة؛ ولست أدرى السر فى تخصيص هذين المكانين البعيدين بالتدريس !؟ ربما كان ذلك لأن درسهما عورة ، وكل عورة

يجب سترها ، أو أن هذين المكانين أبعد عن ضجيج الطلبة وأهدأ من الجامع ، وقد اعتاد هذان المدرسان ، وهما من المدرسة الابتدائية، ألا يدرسا إلا في جو يسوده الهدوء والسكون؟!



صورة الفدان

كسر القيراط	رمزه	عدده	كسر القيراط	رمزه	عدده	كسر القيراط	رمزه	عدده
دانق سدس قيراط	ـه	ط $\frac{1}{4}$	حبة ثلث قيراط	ص	ط $\frac{1}{2}$	نصف قيراط	لم	ط $\frac{1}{2}$
نصف قيراط وحبة	لمـ	$1\frac{1}{2}$	قيراط	مم	١	نصف الثمن	نعم	$1\frac{1}{2}$
نصف الثمن وحبة	لعـ	$1\frac{1}{2}+\frac{1}{2}$	قيراطان	مو	٢	ثمن	و	٣
سدس فدان	///	٤	خمسة قراريط	سو	٥	ربع فدان	ى	٦
سدس وثمن	///و	٧	ثلث فدان	سلو	٨	ربع وثمن	ى و	٩
ربع وسدس	ى ///	١٠	ثلث وثمن	سلو و	١١	نصف فدان	س	١٢
ربع وسدس وثمن	ى ///و	١٢	ثلث وربع	سلوى	١٤	نصف وثمن	سلا و	١٥
ثلثان	ى	٢٦	ثلث وربع وثمن	لى و	١٧	نصف وربع	سع	١٨
ثلثان وثمن	ى و	١٩	نصف وثلث	سه	٢٠	نصف وربع وثمن	سع و	٢١
ثلثان وربع	لى	٢٢	نصف وثلث وثمن	سه و	٢٣			

أما من أراد تعلم الخط ، أو تحسينه ،فعليه استحضار المشق والسكراسات الخاصة ، وشراء بضعة أقلام من القصب الفارسى

المعروف بالبسط ، والتوجه بها إلى الخلوات أو «الخلاوى» حيث يجلس المرصفى افندى ومن معه ، ليعلما أو يعلموا على ما كتبه الطالب بعد عرضه عليهم فى سكون وأدب .

ذهب هذا الطالب إلى أحد درسى الحساب، فوجد المدرس المتأخر يدرس فى موضوعات وجدها فى كتاب « الدرر البهية فى الأصول الحسابية » للمرحوم محمد ادريس بك ، يشرح العمليات أحسن شرح ، ويجيد تفهيمها أكثر من هذا المدرس ، فأخذ يطالعه ويفهم مافيه ، لأنه اعتاد ، بدراسته الاستقلالية ، استخراج دفائن الكتب بنفسه ، فأصبح فى غير حاجة لمثل هذا الدرس .

أما الخط فقد جعل يتردد على درس الخط ، وهناك عرف أستاذا خطاطا كان « أخا » له فى الحضرة الشاذلية ، ووجد منه معلما خيرا من « المرصفى افندى » الذى لم يدر إلى الآن السر فى مطاردته له ، ومعاملته معاملة خشنة ، عفا الله عنه ورحمه . لم تمنع الطالب هذه الإهانات المتكررة ، من الجلوس فى طرقة « الخلاوى » مع الجالسين ، الذين يشعر صرير أقلامهم بهدوء الدرس ، ومنتهى السكون فيه .

٣ — لم يكتف بهذا الحظ من تلك الدراسة الحديثة ، ورأى الدروس الخصوصية بالمدرسة الابتدائية بعد ظهر الخميس وقبل

ظهر الجمعة من كل أسبوع ، وهما من أوقات فراغه الأسبوعى فأحب أن يندمج فى سلك من يحضرونها ! أغرته الكراسات « الأميرية » المسطرة وعليها اسم « نظارة المعارف العمومية » كما أخذ بلبه شكل تلك الكتب الأميرية من « النفحات العباسية » و « الفوائد الفكرية » و « التهجى والمطالعة » ونحوها من الكتب المطبوعة بالمطبعة الأميرية ، فى ورق جيد وفى جرم أصغر وألطف من الكتب الضخمة التى لا يستطيع حملها إلا كراسات أو « ملازم » متفرقة ! ولكن كيف يحضر هذه الدروس ، وهى للفقهاء والعرفاء بالكتاتيب ، لا لطلبة العلم من المجاورين ؟ ! كيف يكون فقيها أو عريفا وهو ليس من معلمى الصبيان ؟ ! لا عجب ! هذا أمر لا يصعب عليه ، كما اعتاد أن ليس شىء مستحيلا ، والحاجة تفتق الحيلة ! نعم الأمر يسير هين : الشيخ مصطفى الجندى أستاذ الصباح مسافر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، وقد أصبح وقت درسه خاليا ، ويثقل على طلبة هذا الشيخ أن يحضروا درس غيره فى غيابه . وهى فرصة لأن يشتغل فى كُتّاب « النجاح الأهلى » بكفرة « على أغا » فى هذا الوقت وفى أوقات فراغه ، عريفا ، مع صديقه « أخينا » الفقيه الشيخ « أمين غنيم » الذى تصادق وإياه فى حضرة الإخوان الشاذلية !

وقد وصل إلى غرضه ، فلحق بهذه الدروس وصار يحضرها

فى المدرسة الأميرية من فبراير سنة ١٩٠٦ م. قُبل طالبا بالفصل السادس مع المستجدين من الفقهاء والعرفاء الذين يحضرون هذه الدروس ، وبعد اختبار خاص بهم وثب إلى الفصل الثالث، وهو أقصى ما يمكن عمله رسميا ولكن قضى عليه حظه السيء وتفكيره بأن يمتحن آخر العام الدراسى فى «امتحان الفقهاء والعرفاء» العام فتقدم إلى الامتحان «من المنزل» لأنه لا يقبل به عن طريق المدرسة الا طلبة الفصلين الأول والثانى فقط ؛ ومع هذا نجح فى الامتحان فحصل على شهادة فقيه فى صيف سنة ١٩٠٦م وبذلك قطعت صلته بهذه الدروس على ألم ومضض . وليس ينسى ماشمله من السرور يوم دخل المدرسة فى فبراير ومقدار هذا الشرف الذى ناله بانتظامه فى دروسها ، وماصحبه وغطى عليه من ألم المواجهة «المرصفى افندى» فى حصة الخط بالفصل السادس حين قال له : (أنت هنا أيضا !!) ولكن الألم لم يطل ، ولله الحمد ، لانتقاله إلى الفصل الثالث الذى لا يدرس فيه هذا (المرصفى) .

كان هذا المسكين قبل قيد اسمه بالمدرسة مع الفقهاء والعرفاء يقف كثيرا أمام باب المدرسة الابتدائية ، ويتخيل هذه الدروس المنتظمة ، التى يدق الناقوس لابتدائها وانتهائها ، فيصطف التلاميذ فى الفناء عند الدخول والخروج منها ؛ ويرى صفوف التلاميذ الأربعمائة ، وهم سكوت لا يسمع فوق رءوسهم إلا شقشقة

العصافير فوق شجرة وسط الفناء ؛ ويرى فى «عم ادريس» بواب المدرسة شخصا كأنه «رضوان» الجنة ! هذا اللطيم أمام المدارس وأمام «المرصفى» أخذ يتصيد حرفا من الخط، ورقما من الحساب وجانبا من قواعد الكتابة أو الإملاء، ويصطنع شيئا من الإنشاء فيقتنى كتاب «جواهر الأدب»، ويأخذ من والده نسخة «مقامات الحريرى» يقرأ فيها ويحفظ شيئا من شعرها وألغازها ولم يكتف بدراسة شرح «السعد» عصرا بعد إتمام شرح «الاشمونى» ظهرا ! هذا اللطيم لم تعفه الأيام وحرص والده على إتمام دراسته الدينية، على ما كان يلاقى فى تنقله وتخطف معلوماته فى هذه الفنون المختلفة — لم تعفه من حضور والده بعد انتهاء درس العصر وشكواه إلى الشيخ الذى لم يقتنع بتقريعه وتوبيخه على تفريطه بتعلم أمثال هذه العلوم ؛ بل همّ بضربه وإيذائه، أمام إخوانه، وإن لم يفته أن يمدحه الى أبيه، وأن يذكر له أنه عاقل وذكى، وأنه قال خطبة بليغة عند ختام كتاب «الأشمونى»، وكفاه بذلك فخرا ! اشتغل هذا الطالب بالحساب، واشترى كتبا فيه، حتى كون مجموعة من المسائل، تربو على أربعمائة مسألة صعبة، أخذ معظمها من كتاب كان يدعى «الفهميات، أسهل كتاب فى علم الحساب» فحلها بعقله وألفها كتابا يدعى «المظاهر الربانية فى حل المسائل الحسابية» ولعلك تلحظ أن عبارة الاسم فيض من فيوض الحضرة الشاذلية. وقد عرض هذا

الكتاب للطبع على يد أحد الكتبية فرفض لصعوبة مسائله .
وهذا غير كتاب آخر دعاه « حسن المقال فى حساب الأطفال » أوحت إليه فكرة تأليفه « النفحات العباسية فى المبادىء الحسابية» وقد اشترك معه فى هذا الكتاب الثانى تلميذ بالمدارس ، واختلس أصوله ؛ أما الأول فلا تزال أصوله محفوظة « بالمكتبة الجوادية».

أما الإنشاء فقد أخذ يكتب فى الموضوعات الواردة فى كتاب « جواهر الأدب » ثم سرت إليه العدوى من « مقامات الحريرى » فكتب مقامات فى مناسبات شتى ، على نمط مقامات الحريرى ، ولا يزال محتفظاً ببعضها فى كراسة المنشئات . ولما كان يرتاد « نادى الشبيبة المصرية » بطنطا ويحضر بعض حفلاتها ، فقد تسربت إلى نفسه فكرة الخطابة ، وقام فيها خطيباً ذات ليلة منددا على هذه الجمعية ، لأنها دعته لافتتاح الحفلة بتلاوة بعض آى الذكر الحكيم ! وكان من أثر حضوره حفلات هذه الجمعية ، أن أسس فى قريته ، كفر هورين ، جمعية على غرارها ، أسماها « الجمعية الأدبية الجوهرية » سنة ١٩٠٨ م . والجوهرية نسبة إلى أسرة « جوهر » خال أمى . حضر بعض أبنائها إلى القرية ضيوفا وهم تلاميذ ، فأنشئت الجمعية تحمل لقبهم . وكان يعقد احتفالات لهذه الجمعية برآسته ، تدوم الخطابة فيها أحيانا نحو أربع ساعات ، يدعى إليها أعيان ومتعلمو القرى المجاورة .

وقد أراد الله أن يوفقّ هذا الدين ، أو ترد هذه التسمية فأسس بعض الطلاب بالقرية جمعية أسماها « هيئة الطلبة الجوادية » سنة ١٩٢٥ م كان لها أثر فى نهضة القرية زمنا طويلا ، تعددت فيها اللجان وكثر منها الإرشاد والعمل . ما بال هذا الطالب يشرك مع دراسته الدينية كل هذه المواد ، وماله لا يهدأ صيفا ولا شتاء ، لعله غير مكتف بحاله فى الجامع فهو يتوق إلى المجتمعات والدراسات الأخرى ؟ ماله يقرن علوم الجامع بهذه العلوم ؟! وماله يوازن بين أساتذة الجامع فى زيهم وتواضعهم ، وأساتذة المدارس وخريجى دار العلوم خاصة ، فيرى فى الآخرين نشاطا ورشاقة وخفة ، ويسمع منهم طلاقة فى اللسان ، ويحس منهم حدة فى الذهن ، وسرعة فى الخاطر وسدادا فى الإجابة ، ترفعهم فى نظره ونظر كثير من إخوانه المجاورين ، كما كانوا يعجبون بمشيتهم وملابسهم ونظافتهم ونظامهم ، ويحمدون منهم جرأتهم فى المحاّجة ، ومنطقهم السليم . لعل هذا كله كان تمهيدا لبعده القهرى عن الجامع ، وانتسابه فيما بعد لدار العلوم ! لم يكن هذا المجاور ، ليختلط بالتلاميذ ، ويتطلع إلى المدارس ، بدون أن يلم بطرف من اللغـات الأجنبية ! يذكر أن أول علمه باللغات الافرنجية أنه تعلم كتابة اسمه بالحروف اللاتينية ، وشغف بهذه المعرفة ، حتى إنه كان يضع تلك الحروف بالقلم الرصاص على

« لبدته » الرومية ، التى كان يلبسها صغيرا ، أما بعد ذلك فقد هداه أحد تلامذة المدارس القاطنين معه إلى كتاب فى اللغة الانجليزية لا يزال يذكر اسم مؤلفه ، وهو « جرجس ميلاد » ، ومن هنا وفى هذا الكتاب ألم بطرف من اللغة الإنجليزية . على أنه كان يقتحم المنازل بعمامته ليتعلم كلمة أو كلمتين على تلميذ يعرفه ، أو تعرفه ، وكان ، مع جهله باللغة ، يتعلمها بطريق السؤال ، فيدعى العلم بألفاظ ، ثم يسأل التلاميذ فى معناها ، فتكون فرصة للنطق والحفظ . ولهذا غادر الجامع — بعد طرده — إلى الأزهر ، وهو على جانب من العلم بمبادىء اللغة الانجليزية ، سهل عليه دراسته للغة الفرنسية فى المدرسة الإعدادية الليلية — على ما ستراه بعد .

فتنـــــــة

فى سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) صدر قانون إصلاح الأزهر ، فقامت هناك فتنة ، وقفت الدراسة زمنا طويلا ، قصد إعلان استياء أهله من هذا النظام . وقد كان على رأس هذه الحركة فئة من الطلاب ، بقيادة « المرحوم » الشيخ فهيم قنديل . ولست أدرى بالتفصيل ما فعلت هذه الجماعة ، وماذا كان مطلبها ، ولا إلى أى نتيجة وصلت ؟ ! وكل ما فى الأمر أن تلك الجماعة كانت تخطب فى الأزهر خطبا ، لا أعرف على وجه التحقيق نصوصها ولا مرماها ، وإنما هى فى موضوع هذا الإصلاح ! !

الثورات كالحريق ، يتطاير شررها إلى مكان سحيق ، وقلما يمكن حصرها فى مكان واحد . لهذا اندلع لهيبها إلى الجامع الأحمدى ، وهو الأزهر الثـــانى ، وليس بعدهما إلا معهد الاسكندرية وهو معهد جبل على النظام ، وسار فى طريقه من سنة ١٩٠٣ م فلا يشارك الأزهر إلا فى موضوع الدراسة . بل إن الأزهر يراد به أن يسير على نظام كنظام معهد الاسكندرية ، وبذلك اقتصرت الفتنة ، بعد الأزهر ، على الجامع الأحمدى .

يمتاز طلبة الأزهر باللسن والفصاحة ، لبيئتهم وقربهم من

المعاهد الثائرة ، مثل مدرسة الحقوق فى ذلك الوقت ، ولسهولة اتصالهم بأمهات الصحف ، واستماعهم لكثير من المحاضرات التى تلقى فى العاصمة ، وشهودهم كثيرا من الحفلات والاجتماعات العامة أو السياسية ؛ ولهذا كثر خطباؤهم ، فعمدوا إلى الخطابة بعد انقطاعهم عن الدروس . أما طلاب الجامع الأحمدى فهم وراء طلبة الأزهر فى هذه الناحية ، بمراحل عدة ؛ وقل منهم من كان يختلط بالأوساط الراقية كما يقولون، ولهذا ندر فيهم الخطيب وقل منهم الكاتبون . ولكن مهما كانت حالهم كذلك ، فلا بد من أن يصطلوا نار الثورة ، وتدب بينهم روح الفتنة !

كان الأمر كذلك وبدأ الطلاب بالجامع يجتمعون ويتآمرون ، ومشيخة الجامع تتعقب هذه المؤامرات ، وتجتث الفتنة من جذورها ، بفصل الطلاب المتآمرين ، وإرسالهم إلى بلادهم . وكان شيخ الجامع فى ذلك الوقت هو « المرحوم » الشيخ محمد حسنين العدوى ، الذى خلف الشيخ محمد الرفاعى الهين اللين ، فكان حازما يقظا ، بل بالغ فى الحزم إلى درجة الشدة ، قمعا للاضطرابات ومنعا للفتن .

توالى فصل جماعات الطلاب المتآمرين ، وكثر سماع هذه المآسى من الطلاب الباقين فلم يلبثوا أن سرت إليهم عدوى الفتنة وكان لا بد من أن يلقوا بدلوهم فى التآمر بين الدلاء ! وقد أشعل

هذا الميل فى نفوسهم ما كانوا يرون فى المشيخة ، من استبداد ومحاباة ، وإيثار بعض الطلبة على بعض ، لصلة هؤلاء ببعض الشيوخ ، وانقطاع أولئك عنهم ، ولا ريب فى أن مثل هذه الحركة كان ضروريا ، أو نتيجة طبيعية لتغيير نظام بنظام ، أو لإحلال النظام محل الهمجية والفوضى ، كما يزعم دعاة هذا النظام الحديث ! ! مضى من السنة الدراسية ثلاثة أشهر ، والدروس منتظمة ، وتلك المؤامرات تقمع ، فلا تستطيع عمل شىء ، وكثرت الجواسيس فى الجامع . وقد حدا هذا بعض كبار الطلبة ومتنوريهم إلى أن يتآمروا كغيرهم ، ولكن مع الاحتياط والحذر ، لئلا يقبض عليهم كما قبض على غيرهم ، بدون أن يعملوا شيئا . وإليك حديث أحدهم عن سير المؤامرة ، ونتيجة هذه الثورة ؛ وليعذرنى القارىء إذا استعملت كلمة « الثورة » فقد كانت عنوانا لما حصل بالجامع الأحمدى سنة ١٣٢٧ هـ ١٩٠٩ م وإن كانت السياسة أو التاريخ يعطيها معنى أو صبغة أخرى !

قال الراوى : رأينا أن المشيخة تتعقب الاجتماعات ، وتتعرف أمكنتها وأزمنتها بسهولة ؛ فعلينا أن نحرص على سرية المكان ، وتغييره ، وبعده عن الجامع ، بحيث لا تلحظ حركة الاجتماع .

أما الزمان فأنسبه ذلك الوقت الذى كان مشغولا فيه شيخ الجامع ، وخدم المسجد واتباعه ، وجواسيسه طبعا . هذا الوقت

كان بين المغرب والعشاء ، حين يقرأ الشيخ شرح « المقولات العشر » فى جمع حاشد ، فى إيوان من ايوانات الجامع . وكان المجتمعون فى الدرس بين مستفيد ، ومُراء وخادم ، وحارس جاسوس !

نجحت هذه الاجتماعات ، فبدأ عددها قليلا ، وأخذ ينمو ويتكاثر ، حتى ضاقت بهم المنازل فى الاجتماع الأخير ، فقرروا أن يكون هذا الاجتماع النهائى ، فى الحقول ، عند « وابورالنور » وهو أبعد مكان عن السكن ؛ بينه وبين الجامع أكثر من ميل .

قال الراوى : وكان بين المحرضين على بث الفتنة وإشعال نار الثورة ، أحد أقارب المشايخ ، وكان مأربه أن يحصل على معلومات عن « الثورة » يقدمها للمشيخة عربونا لتعيينه ملاحظا فى الجامع . وقد تم له ماأراد ؛ غيرأنه لم يتمكن من العلم بمكان الاجتماع ، لأن المتآمرين كانوا يخشونه ويخشون أمثاله ، رغم إدلائه بآراء فى توجيه الثورة . غدا تكون « الثورة » ! وفى ليلتها يذهب مئات الطلاب فى وقت درس « الشيخ العدوى » إلى الحقول . وهناك يقف كبار الطلبة على مفترقات الطرق للحراسة ومعهم الأدلاء يرشدون إلى مكان الاجتماع ؟

قال الراوى : وبعد الغروب بنصف ساعة ، كان المجتمعون فى حقل محروث ، يكونون رقعة بيضاء ، لما كان على رؤس الطلبة

من العمائم ، مستديرة ، قطرها يقرب من عشرين ذراعا ؟ هربنا من جواسيس المشيخة ، ولكننا فوجئنا بالعسس فى « داورية » ليلية بين المزارع ، فأسرعنا إليهم ، وبسطنا لهم أننا مظلومون ، وقد جئنا هنا لنجتمع على طلبات لرفع هذا الظلم ، فانصرفوا وتركونا بعد الدعاء لنا بالتوفيق .

التأم عقد الجمع فوقف أحدهم خطيبا ، متمثلا بمقالة للمرحوم السيد عبد الله النديم ، عنوانها هذى يدى ، فى يد من أضعها ؟ ! وتلاه آخر ، وتناقش المجتمعون وقرروا الإضراب عن الدروس غدا فى درس الساعة العاشرة صباحا . وكيف يكون الإضراب؟ يرفع العلم الأحمر لإعلانه . ولكن إذا اتضح ذلك قبض على صاحب العَلم ! قال قائدنا : ليكن العلم منديلا أحمر ، يتوضأ صاحبه ويأتى على حافة صحن الجامع ويقف ليجفف يديه ووجهه بالمنديل ثم ينفض المنديل ، فتكون إشارة الاضراب ! ثم قال : ولكن هبوا أنه قبض على حامل العلم قبل أداء مهمته، فيجب أن يكون له خليفة ! وقد تم الاتفاق على ذلك واختاروا فلانًا وفلانا لرفع علم الإضراب والثورة . وليلاحظ أن الأمة والحكومة فى هذا الوقت لم يكن عندها فكرة الإضراب كما هى معهودة الآن عند كل الطوائف .

قال الراوى : وبعد أن قرروا الإضراب فى الساعة العاشرة

صباح غد ، اتفقوا على أن يجتمعوا فى ناحية معينة من الجامع بعد تعطيل الدروس ليخطبوا ويتباحثوا ؛ وتلك كانت غلطتهم فإن كل مرحلة أتقنوا ترتيبها إلا هذه النقطة ، لأن وجودهم بالجامع مكّن الشرطة من أن تعيدهم إلى الدروس حالا بالقوة ؛ ولو أنهم قرروا الانصراف بعد وقوف الدروس ،وخرجوا من الجامع لكان حال الجامع غير ما كانت عليه ، بعد هذا الإضراب الفاشل !

بعد قرارهم هذا رجعوا إلى المدينة من نواح متفرقة ، عملا بوصية يعقوب ، فقابلهم بعض جواسيس المشيخة ، ولكن التكتم حال دون علمهم بشيء هام اه .

أما أنا فكنت جالسا أتناول الفطور ، قبيل الساعة العاشرة المضروبة ، وبين يدى خبز الراتب الجديد ذى الثلثمائة درهم ؛ وبينما أنا أتمتع بهذه « الجراية » التى كسبتها من طريق امتحان المسابقة التحريرى ، إذ انقض علىّ « المرحوم » الشيخ مصطفى الخشاب ، المشد ، وساقنى إلى الإدارة واحتجزنى فى المشيخة ، ثم نزل إلى الجامع .

ولم تدق الساعة العاشرة ، حتى سمعت الصياح والهياج فى الجامع ، فكان يعود إلىّ المشد متوعداً مهدداً ، وكان الصياح يخبو تارة ويزيد أخرى ، حتى جاءت الشرطة وأعادت النظام فى الدروس بكل سهولة ، لخطأ فكرة اجتماع الطلاب بالجامع . وقد

قُبض على عدد من الطلبة الهائجين ، وساقونا جميعا ــ حتى أنا ــ إلى المحاكمة ، بتهمة الاعتداء على بعض المصلين والملاحظين . فبتنا ليلة فى مركز الشرطة ، بعد تحقيق استمر طول النهار . وفى صباح اليوم التالى سيق غيرى إلى المحاكمة . وحكم عليم جميعا بغرامة على التضامن؛وبهذا انتهت تلك الحركة .

عدت إلى المنزل ، ثم إلى الجامع ، فطردتنى المشيخة ، بعد أن بعثتْ لوالدى بالكتاب الآتى نصه :

المحترم ولى أمر « محمد عبد الجــــواد » الطالب بمشيخة الجامع الأحمدى .

المشيخة رأت إبعاد هذا الطالب وسفره إلى بلده وحرمانه من الدروس أسبوعا لفساد أخلاقه وسوء أعماله التى أضرت بغيره حتى يحضر ولى أمره ويطلع على ماجناه مع العلم بأنه إذا لم يفارق طنطا فى هذه المدة ويمتنع عن الاختلاط بالطلاب ستضطر المشيخة لتقديمه للنيابة وللاحاطة أفدناكم .

١٣ صفر سنة ١٣٢٧   ٦ مارس سنة ١٩٠٩

شيخ الجامع الأحمدى

محمد حسنين (امضاء)

سافرت إلى البلد لقضاء الأسبوع ، فرأيت من والدى حسرة لانقطاعى عن الجامع ، فى الوقت الذى أعد فيه ٦٠ جنيها

لتساعد فى نيلى درجة العالمية ، فلم يسعه إلا السفر إلى القاهرة ، للسؤال عن صديق لشيخ الجامع يرجوه فى إعادتى إلى حظيرة الطلبة ، فعاد ومعه كتاب من أحد أصدقائه ، وتوجه لطنطا به ، وسلمه إلى الشيخ ،فكان هذا مستندا جديدا لرفتى نهائيا ، وارسال الجواب التالى إليه :

مشيخة الجامع الأحمدى

المحترم ولى امر « محمد عبد الجواد » الطالب بمشيخة الجامع الأحمدى

مجلس الإدارة قرر محو اسم هذا الشخص من سجلات الطلبة وحرمانه من العودة لسلك طلاب العلم ثانياً لفساد أخلاقه وسوء أعماله التى أضرت بغيره وقد أبعدته المشيخة عن الدروس . — إلا أنه إذا لم يفارق طنطا ويمتنع عن الاختلاط بالطلاب ستضطر المشيخة لتقديمه للنيابة وللإحاطة أفدنا كم ؟

شيخ الجامع الأحمدى

امضاء

محمد حسنين

تحريراً بطنطا سنة ١٣٢٧   ١٣ مارس سنة ١٩٠٩

(تذييل) وأزيدك أن جميع أعماله السيئة مسطرة لدى المشيخة حرفا حرفا .

وبهذه الكيفية انقطعتُ عن الجامع — كما انقطع كثير غيرى — ولم تنفع الشفاعات لدى الشيخ لأن الله أراد غير ما يريد والدى . أراد — على الرغم من والدى — أن أدخل « دارالعلوم » وأن ألبس الحذاء وأسير بهعلىالبسط الأعجمية ، لا على الحصير كما كان يقول ، وأن يرانى متقبعا ، سائراً على بساط فاخر .



ولما أراد الله دخولى « دار العلوم » فرحت تلك الشيعة التى طالما عرضتُ على والدى ذلك منسنوات ، وحملنىالمرحوم الشيخ الشرقاوى رسالة إليه ، يقول له : يثاب المرء رغم أنفه .

هذا ، وفى الفترة التى بين مارس سنة ١٩٠٩ وسبتمبر سنة ١٩٠٩ حصلت أحداث جديرة بأن أسجلها لك فيما يلى :

فـــترة

ما كل ما يتمنى المرء يدركه ! تأتى الرياح بما لا يشتهى السفن!

أراد والدى أن أكون من العلماء ، وأراد الله ألا أكون ! ولم يرغب والدى فى لحاقى بدار العلوم ، لما كان يرى من استهتار طلبتها بالدين ، وانهماكهم فى العلوم الحديثة ، وظهورهم أمام الناس ، لا بمظهر التواضع اللائق بطالب العلم ؛ ولكن الله قدر أن أكون طالباً بدار العلوم ، وأن أكون علما من أعلام خريجيها !

ألم أفصل من طلب العلم بالجامع الأحمدى ، وأنا على أبواب امتحان العالمية ، بحجة سوء السلوك وفساد الأخلاق ، كما يقول الكتاب الرسمى للمشيخة ؟ !

يا لله! هل من سوء السلوك وفساد الأخلاق ، أنى قضيت بالجامع عشر سنوات كاملة ، لم أغب فيها يوما أو بعض يوم ! ونجحت فيها فى امتحانات المعافاة من القرعة العسكرية ، والترقية من الدرجة الثالثة إلى الثانية ومن الثانية إلى الأولى ، وكنت أول الناجحين فى الامتحان التحريرى لاستحقاق الخبز الجارى (الجراية) ؟ . قد استعد والدى لطلبات امتحان العالمية

مع ذلك وأنا فى انتظاره ، ثم أبعد أخيراً لسوء السلوك وفساد الأخلاق ! ولكن :

القضا تحكم   فالزم السكون
لا تكثر لهمك   ما قدر يكون !

انقلبت الحسنات سيئات ، وصار الصديق عدوا ، كل ذلك كان تنفيذا لقضاء الله ! كان الشيخ احمد الفقى (عفا الله عنه) ممن لزمتهم من الأشياخ طويلا ، بعد الشيخ مصطفى الجندى ، فقد حضرت عليه الأشمونى والسعد والشنشورى وبعض حكم ابن عطاء الله السكندرى ، وطالما وقفت فى حفلات اختتام الكتب التى كان يقرؤها ، أثنى عليه وأروى مآثره وفضله ، كما كنت أحسن الى بنت كريمته الوحيدة بتقديم الهدايا لها فى المناسبات المناسبة . أبى هذا الشيخ الصديق اللدود ، إلا أن يرد هذا الجميل بالثناء علىّ وإطراء ذكائى عند التحقيق فى سبب الفتنة التى رويت أخبارها ، حتى كان هذا المدح مساعدا على فصلى من الجامع ، لجهله بأن ذكاء المرء محسوب عليه ! بل لقد بلغنى انه أغرى المشيخة بمخابرة « الحقانية » لرفتى من المأذونية ، بعد إلغائها إعفائى من الخدمة العسكرية .

لم أطق البقاء فى القرية ، بعد قطع الأمل من وجودى بالجامع

على مارأيت فى الفصل السابق ، فرحلت إلى الأزهر ، علنى أجد رحابه أوسع ، وقدمت الانتساب اليه ولم أدر ان إثبات اسمى هناك يحتاج إلى موافقة الجامع الأحمدى ، فكنت كالمستجير من الرمضاء بالنار ، ورُد الانتساب مع عدم الموافقة ، لأنى فصلت لسوء السلوك ، بتحريض الطلبة على الخروج على النظام .

رضخنى هذا الأمر ، ولم تغن فيه حيلة ولا شفاعة ، وبقيت بالأزهر شهورا ،جلست فيها فى حلقات بعض شيوخه الأجلاء ، وفكرت فى توجيه مجهودى وجهة أخرى حتى تنتهى السنة الدراسية .

فى المدارس الإعدادية

فرصة مواتية ، وبشرى لطلبة العلم بالازهر الشريف ! قد افتتح « الحزب الوطنى » من مدارسه «المدرسة الإعدادية الليلية» لتعليم طلبة الأزهر اللغة الفرنسية ، لقاء أجر زهيد أو رسوم انتساب لا تتجاوز خمسة قروش فى الشهر ! والظاهر أن الغرض - كان - من افتتاح هذه المدرسة ، بجانب المدارس النهارية ، هو إعداد بعض الشبان الأزهريين النابغين لبعوث علمية سياسية فى أوربا للمساعدة فى نشر الدعوة الاستقلالية التى يقوم بها الحزب فى ذلك الوقت .

لم يكن يعنينا نحن الطلبة ، سبب افتتاح المدرسة حينئذ ، فالأمر فى نظرى لا يعدو أن يكون انتسابى اليها قضاء وقت فى تحصيل لغة أجنبية بأجر زهيد كهذا الأجر ، لعلمى أن اللغة الأجنبية ضرورية لكل من يريد أن يكون مثقفاً ثقافة جيدة !

لحقت بالمدرسة واشتغلت بها شهورا ، قرأنا فيها كتابين وبعض الثالث من كتب Machuel وتعرفنا فيها بعض أساتذة وطلاب ، وكانت لى فى هذا المحيط متعة اجتماعية لأنها كانت أهم عندى من الفكرة العلمية ، أما الفكرة السياسية فلم يكن لها حظ من تفكيرى ، لأنى مكوىّ بنار السياسة الدينية فى معاهد العلم .

ومن أعجب ماحدث فى أثناء وجودى بالمدرسة ،أنى غبت عنها أسبوعين فى أوائل افتتاح الدراسة بها ، وعند عودتى إليها صادفنى اختبار حصلت فيه على درجة ٧/٣٠ أعقبها الاستاذ بقوله : خاب ظنى فيك ، فلعلك تسترجع ثقتى بك فى الاختبار المقبل إن شاء الله ! آلمتنى هذه الملاحظة وإن كان لى عذر الغياب والعودة يوم الاختبار ،فدعانى ذلك للمواظبة والالتفات ، ولم يأت إختبار ١٩٠٩/٥/١ حتى حصلت على درجة ١٨٫٧/٢٠ أى ٩٣٫٥/١٠٠ مع العبارة التالية : للهدرك أيها الفاضل! فحمدت الله على هذه النتيجة ولازلت محتفظاً بورقتى الامتحانين .

وأعترف بأنى قد حصلت على نصيب من اللغة الفرنسية لابأس به ، وأصبحت بحق أدعى أنى أعلم من اللغة الفرنسية قليلا ، Un peu !

جاء الصيف بإجازته ،وغلقت المدرسة أبوابها ، وليس لى طاقة على السفر الى القرية ، كالمعتاد ، لأنى اندمجت مع طلبة هورين وأولاد الشيخ الشرقاوى الذين يعدون أنفسهم لدخول مدارس القضاء الشرعى ودار العلوم ، فلم يكن بد من أن أكون ممن يعدون العدة لذلك احتياطاً ، حتى إذا مافاتنى الانتساب أول العام دخلت دار العلوم بالاحتفال اللائق كما سنرى !

إلى دار العلوم

كان من السهل أن أستعد علميا لدار العلوم ، لأنى قضيت أحد عشر عاما دراسياً هجريا فى طلب العلم ، وكنت منذ سنتين أو أكثر أساعد كثيراً ممن لحقوا بها من الطلبة ؛ فقوتى العلمية فى العلوم الدينية والعربية موفورة ، كما ان عقبات العلوم الحديثة التى كانت تعترض طلبة الازهر حينذاك لا تقف فى طريقى ، لعلمى بها علماً وافياً .

وليس أمامى من العقبات فى سبيل دخول دار العلوم ، إلا الحصول على شهادة « حسن السير والسلوك » الضرورية لضمها لطلب الانتساب إليها ، ومن لى بها وأنا بين الجامع الاحمدى والازهر على الحال التى علمتها ! ليس ذلك بالعسير مادمت محسوبا بين طلاب مهورين ! على أنى كنت متصلا ببعض شيوخ الأزهر وهم يوقعون أمثال هذه الشهادة ، بلا حساب ولا تدقيق .

تقدمت لدار العلوم ، وأحضرت منظاراً للكشف الطبى محاكاة لغيرى من قصيرى النظر ، ولكنى لم أستعمله ، لأنى كنت غير محتاج اليه وأديت امتحان الدخول التحريرى فنجحت فيه بترتيب السادس وبعد اداء الامتحان الشفوى كان ترتيبى الرابع .

لم يكن هناك مانع من الدخول ، لأن ترتيبي متقدم ، ولكن هل خرجت من الجامع بالسهولة التى يخرج بها غيرى من الطلبة ، فأدخل دار العلوم كما يدخلون ؟ ! أبت المقادير إلا أن يحاط دخولى بسلسلة من العراقيل والاحداث ، باطنها فيه الرحمة ، وظاهرها من قبله الألم والأسف !

طلبت الدار إلى الناجحين وعددهم ٤٥ أن يستعدوا للدخول باعداد الملابس الرسمية (الجبة والقفطان والحذاء الجازم) وحددت يوما لإعلان المقبولين نهائياً . انصرفنا فى طلب هذه الملابس وعُدنا يوم الثلاثاء لقراءة أسماء من سيدخلون المدرسة يوم السبت المقبل ، وكان يوم حشر للطالبين ، علق فيه اللوح بأسماء المقبولين وعددهم ٢٥ فقط فلم يكن من بينهم « محمد عبد الجواد » قد كان بين العشرين المرفوضين ، رغم ترتيبه الرابع ! رجعت بعد هذه النتيجة أجر أذيال السرور باسماً بل ضاحكا ، لأنى أعلم أن دخولى المدرسة على غير أساس ، لما كنت أظنه من ضعفى رغم نجاحى متقدما ، ومن حرج مركزى ، إذا طاردنى شيخ الجامع وأخرجنى منها ، كما حرمنى الانتساب إلى الأزهر الشريف ! ويروى لى بعض اخوانى ، فيما بعد ، عجبه وعجب أخيه من عودتى ضاحكا بعد سوء النتيجة ، مع ان جميع المرفوضين عادوا باكين آسفين ؟ !

ولكن علام الأسف والبكاء ؟! ليس فى الدنيا شىء يؤسفنى بعد ضياع مجهود أحد عشر عاما ، بدون ذنب جنيته ، إلا عملا صبيانياً ، شاركنى فيه مئات من الطلبة ، لم يظهر منهم ولم يسؤحظ أحدهم ، ولم يهتم الشيخ محمد حسنين إلا بى أنا «ذلك الجسم المملوء شرورا » كما كان يقول عندما رآنى بين يديه ، ووالدى يتضرع إليه بإعادتى إلى حظيرة طلب العلم بالجامع ، ويقول له ياسيدنا الشيخ « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف » ، ويأبى ، تنفيذا لقضاء الله وقدره !

كان الناس يعزوننى عن عدم الدخول ، فأعجب من سخف عقولهم ، وأقول فى نفسى : هل فاتنى شىء أعزى عنه ، أنا صحيح الجسم معافى ؟ ! غير أنى عدت إلى القرية أحمل ملابس المدرسة فى صرة نظيفة ، فما إن وقع عليها نظر والدتى (رحمها الله) حتى دارت بها الأرض ، وصفرت أذناها و « وشّت » أى طنّت! وقد بقى هذا الأثر معها حتى الممات ! وإذا كنت لم أجزع من وقع تلك الحوادث ، فإن ما كان من والدتى أهم شىء آلمنى فى عدم دخولى دار العلوم فى وقتها . ولا تسل عما أصاب والدى لفوات غرضه الأول وهو حصولى على شهادة العالمية ، و لما تلاه من عدم قبولى بدار العلوم بعد نجاحى ، وهو الهدف الأخير ! ويل للآباء من الأبناء ! !

هذا يكون حال الوالدين ، وابنهما هادئ مطمئن للمقادير والأحكام ! يقول الولد اعلام تحزن الأم ، ولماذ يأسف الأب ؟ وابنهما بخير ! ولسان حال الوالد يقول : كيف لا يأسف الوالد وهو فى انتظار جنى ثمار تعبه فى حياته سنوات طوالا ، يرقب فيها ابنه يرقى مدارج الرقى ، حتى إذا ما انتهى إلى المرحلة الأخيرة ، كان كالنملة التى تجاهد فى تسلق أسطوانة عالية ، فلا تكاد تصل إلى قمتها حتى تزلق أرجلها فتعود حيث بدأت ؟ وهل فى حياة الوالدين بقية تعادل تلك السنوات الماضية من عمر ابنهما ؟ ومن ذلك الوقت والطالب يردد هذه العبارة الآتية: ويل للآباء من الأبناء ! غير أنك إذا اطلعت على خبيئة نفسه وجدته يقابل الحوادث القاسية بدون اكتراث ، فهى تصدمه فلا يتململ ولا يتضجر ولا يتزعزع ،معتقداً أن كل أحداث الزمان سحابة صيف عن قليل تقشع ! وبقاء الحال من المحال ! وقد يكون الأب متصنعا فى زجره لولده حتى لا تموت عاطفته العلمية ، وقد يكون متفقاً مع ابنه فى فكرته نحو صدمات الزمان ، مؤمناً بقوله تعالى « لكيلا لا تأسوا على مافاتكم » ، ولا يجهل ماترمى إليه الآية الكريمة « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . » !

دخل الطلاب المقبولون دار العلوم فى أوائل أكتوبر

سنة ١٩٠٩ ، وعدت أدراجى إلى الأزهر ، فجددت الانتساب إليه مستعينا على قبوله بالأستاذ الجليل المرحوم الشيخ محمد ماضى الرخاوى ، وكان من خيار العلماء الصالحين ، كما استعان والدى بابن خال أمى ، وكان يزعم أنه يعرف سعد زغلول باشا « ناظر المعارف » مذ كان محاميا ، وسيخاطبه فى أمر دخولى دار العلوم. ولكن ، ألم يكن صهره « إدريس بك » أستاذاً كبيراً بدار العلوم وكان هو المهيمن على قبول الطلاب ، وكان فى استطاعته أن يجعلنى من المقبولين ما دمت ناجحاً متقدما ؟ ! أراد الله ألا يجعل علىّ يداً للأصهار فى دخول دار العلوم ، ولا لهذا الشيخ الجليل فى قبول الانتساب فى الأزهر ، فدخل مشيخة الأزهر من باب، وخرج من الباب الآخر ، ورُدّ الانتساب مرفوضا من الشيخ شاكر ،وكلمته كانت الأولى والأخيرة ، كما تخطتنى دار العلوم فى القبول بها ، ولم ينجح هذا الخال فى رجاء سعد باشا ، فكتب إلىّ يقول : « كلمت صديقا لى بالمعارف فقال إن الفرصة قد فاتته هذا العام ، فاجتهد فى دروسك ، وبركة دعاء الوالدين تحصل إن شاء الله والسلام » .

تسلمت الانتساب المرفوض ، وشفعته المقادير بهذا الخطاب فأسلمت أمرى يومئذ لله ، الله وحده الذى عودنى ألا ألجأ لمخلوق فى مهمة ، فليس لأحد أثر فى الوجود غيره ، ولم يفتنى أن

وبخت نفسى على إغفال تلك العقيدة وقتا ما ، ويئست من رجاء المخلوقين وعدت إلى الخالق ، مستنجداً ببركة دعاء الوالدين ، حين اشتدت الأزمة ، واشتدادها كان مفتاح الفرج ! جلست يوم الثلاثاء ٢٦ من أكتوبر سنة ١٩٠٩ حوالى الساعة التاسعة فى مجلس بالأزهر ، وحولى بعض إخوانى يصوغون لى عبارات الأسى والأسف ، لما حل بى من كل ناحية ، وحضر بعضهم فضايقنى بطلب يفض هذا المجلس ، فأردت صرفه عنى ووجهته إلى « الحاج مرسال البنان بجوار الأزهر » وهو محط المكاتبات ، ليبحث عن الخطابات ، فعاد ومعه خطاب باسمى ، ففضضته فإذا به من أبى محولا من مراسلى ، مرسلا من دار العلوم تطلب فيه أن أتوجه إليها صبيحة الثلاثاء ، إذ قبلتنى طالبا بها !! الله أكبر؟!

طويت الخطاب بهدوء ، وانصرفت إلى المنزل ، بعد استئذان من حولى ، ولبست ملابس دار العلوم ، ومثلت أمام وكيلها قبيل الظهر ، بعد أن قدمت له جواب القبول ، فعجب من أنهم تخطونى ، مع حصولى على الدرجة التى حددوها فى الخط لقبول الطلاب !! لست أريد أن أودع القارىء ، بعد أن جلست على كرسى فى دار العلوم ، قبل أن أقص عليه حكاية وأسطورة !

أما الحكاية فهى أن الأسابيع الثلاثة التى مضت بعد دخول من سبقونى إلى دار العلوم كانت مجال أخذ ورد فى عدم دخولى

الدار ؛ ورحم الله أستاذى عبد الرحمن زغلول حين قال للطلاب وقت انتظار النتيجة : إنهم تركوا الرابع فى الناجحين ! !

ومن العجب حقا أن يترك الرابع ، ويقبل الرابع والأربعون! وما علينا أن نبحث عن أنهم اختصروا ٤٥ طالبا إلى ٢٥ لتوفير فصل من دار العلوم ، لفتحه فى مدرسة القضاء الشرعى ، التى كانت تزاحم دار العلوم إذ ذاك ، وليكتفوا بفصل واحد ؛ وإنما الذى يهمنا أن نسرد الحكاية .

كان صديقنا (المرحوم) الشيخ على عبد الخالق الطالب بالسنة الثانية بالمدرسة ، محور الهمس الخاص بدخولى ، وكان يود من قلبه أن أدخل دار العلوم — أخذ يدعو لوجودى بها ويعرض بكفايتى ، وخاطب فى ذلك أستاذنا الحبيب الشيخ محمد فخر الدين أستاذ الخط ، فقال له : « من عبد الجواد هذا ، الذى تذكرنا به فى كل حصة ؟ ! ليكتب لى ورقة أتبين منها خطه ! » وإجابة لرغبته كتبت له ورقة خط أشبه بورقة الامتحان ، هذه صورتها :

الثلث : بشر من جاور الكرام بعز واحترام

النسخ : وأعلم بأن التبر فى عرق الثرى

خاف الى أن يستثار بنبشه

الرقعة : من سوء الحظ أنه فاتنى حسن الخط فى الامتحان

هناء محاذاك العزاء المقدما فما عبس المحزون حتى تبسما

عجب الأستاذ الشيخ فخر الدين ، لما قرأ فى هذه الورقة من أقوال مقصودة أو غير مقصودة ، ولما رأى من خط حسن ؛ ولكنه بعد أيام أخبر الشيخ على أن « بلديك » سيقبل بالمدرسة غير أن صديقنا لم يكن يعتقد تحقق هذا النبأ ، حتى إنه بعد أن رآنى فى فناء الدار بجبتى وقفطانى قال متمنيا : أما لو كنا نلتفت فنراك معنا !؟ فقلت له : أنا معكم، أنا فى الدار ، ولكنى سأخرج للغداء خارجها ، لأنى حضرت بعد كتابة عدد الطاعمين ! وقبل أن أنتقل بك إلى الأسطورة، أذكر أن الأستاذ الشيخ محمد فخر الدين هذا ، كان مثار إعجاب من لم يكونوا تتلمذوا عليه ، بله تلاميذه ، فكنا نحن الطلبة فى امتحان الدخول نشعر بدماثة خلقه ورقته وظرفه ؛ وللتاريخ والتدليل على هذا سميتُ باسمه أول أبنائى : محمد فخر الدين ، الذى ولد فى ٩ من سبتمبر سنة ١٩٠٩ فى أثناء امتحان الدخول ، وكان قد كتب الىّ والدى طالبا تسميته .

وأما الأسطورة فقد سمعت ، ولا أذكر ممن ، أن كان

من الطلاب المرفوضين طالبان ، أحدهما ترتيبه ١٢ والثانى ١٨ وكانا « محسوبين » على صديقين عزيزين لسعد زغلول باشا ، إلا أن صلته بواسطة المتقدم أضعف من صلته بواسطة المتأخر ، وكان كل من الصديقين يسعى لدى سعد باشا فى قبول طالبه مع علمه بمسعى الآخر . فتحير سعد باشا « ناظر المعارف » إذا ذاك ، وقال إن أرضيت العدالة وقبلت المتقدم ١٢ غضب الصديق الآخر وهو علىّ عزيز . وإن أرضيت هذا الصديق وقبلت المتأخر ١٨ أغضبت العدالة وضميرى والله ؟ ! ثم قال للموظف الذى يعرض عليه الأمر : أليس هناك غير هذين الطالبين ؟ ؟ فقالوا له هناك طالب ترتيبه الرابع ؛ فتنفس الصعداء ، وأمر بقبولى ، قائلا : لنعتبر أن الله يوصى به ، وبذلك استراح ضميره وأرضى صديقيه .

هذه أسطورة ، ألقيتْ إلىّ ، ولا علم لى إلا بمدلولها ؛ أما قائلها وشاهدها وزاويها ، وصحتها ، فعلم ذلك عند الله [1] !

ولعلك سائل : كيف قبلت بالمدرسة بعد أكثر من عشرين يوما من افتتاح الدراسة ودخول المستجدين ؟ ! ليس الأمر غريبا ، فقد اشتبه الطبيب فى طالب من المقبولين ، مريض بذات الصدر ، فتقرر فصله ، وبذلك خلا مكانه فاحتاجوا إلى

(١) أخبرنى بعض الأصدقاء أخيراً ، أن الذى روى هذه الأسطورة هو المرحوم أستاذنا عبد الرحمن زغلول ابن أخى سعد زغلول باشا .

طالب جديد يحل محله . وكان سعى بعض المرفوضين ثم كان قبولى مكان هذا الطالب على ما رأيت وسمعت .

أما الطالب الذى حللت مكانه ، فقد دخل دار العلوم فى العام التالى ، وتخرج فى سنة ١٩١٥ بعدى بسنة ، بعد أن كنت سأكونه ، والله المقدم والمؤخر ! ولا زال أخونا هذا ممتعا بالصحة والعافية ونحن فى سنة ١٩٤٧ م .

هذا وإلى اللقاء — أيها القارىء الكريم — فى دار العلوم !

كلمة تاريخية

الجامعة الأزهرية

حينما فتح عمرو بن العاص مصر ، وبنى بها مسجده سنة ٢١ﻫ اتخذه جماعة من الصحابة والتابعين ، مركزا علميا لنشر الدين الإسلامى ؛ وكان زاوية للامام محمد بن ادريس الشافعى يدرس فيها مذهبه ويدون آراءه ، وفيه وعليه تخرج كثير من العلماء الذين اشتغلوا بتدوين مذهبه .

وقد ظل التدريس فى الجامع العتيق مدة طويلة ، وهو عامر الحلقات ، ثم اقتفى أثره جامع احمد بن طولون .

ولما فتح الفاطميون مصر ، ٣٥٨ﻫ (٩٦٨م) ، بنى جوهر قائد المعز لدين الله ، الجامع الأزهر بعد عام من فتحها ، وفتح للصلاة فيه سنة ٣٦١ ﻫ ٩٧٢ م وابتدأ التدريس فيه سنة ٣٧٨ ﻫ . ويقال إن تسميته بالأزهر إشارة إلى السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها .

والأزهر هو المسجد الجامع ، وهو الجامعة الإسلامية الكبرى ؛ التى استقر بها تدريس العلوم الدينية ، بعد أن بدأ بالمسجد العتيق ، منذ الفتح الإسلامى .

وقد كان الأزهر موضع عناية الخلفاء الفاطميين ، فزادوا في بنائه ، وحبسوا عليه الأوقاف . وفي عهد الأيوبيين أنشئت المدارس التي كانت تدرس فيها علوم اللغة والدين ، فخلا منها الأزهر . وقد منع صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧هـ ١١٧١م الخطبة فيه ، اكتفاء بخطبة جامع الحاكم ، عملا بمذهب الشافعي في عدم إقامة خطبتين في بلد واحد، كما أنه قطع كثيرا من الأوقاف التي حبسها عليه الحاكم .

ولكن الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨هـ زاد في بنائه ،وشجع التعليم فيه ، وأعاد إليه الخطبة سنة ٦٦٥ هـ ١٢٦٧م ، وقد حذا حذوه كثير من الأمراء . ومنذ ذلك العهد ، ذاع صيت المسجد ، وأصبح معهدا علميا يؤمه الطلاب من كل فج ، ولقي من عناية البلاد شيئا كثيرا ، وبخاصة بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ وإتلاف كتبها وذخائرها العلمية ، وانحلال مدارس العلم في المشرق والمغرب .

وكان قايتباي أكثر الولاة رعاية للأزهر في القرن التاسع الهجري ، كما أن عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٩٠هـ زاد فيه زيادة عظيمة ، وجدد فيه كثيرا ، وأنشأ به منشآت عدة .

أما في العهد العثماني فقد أفل نجمه قليلا ، غير أن المتأخرين من الخديويين عملوا على إعادة مجده ، واتساع صيته ، وآثار

عباس ، وفؤاد ، وفاروق به ، لا تزال ماثلة أمام الأعين .

وكان للأزهر أهمية عظيمة ، اكتسبها من موقع مصر فى وسط العالم الإسلامى ، وقربها من الحجاز ، وصبغتها العربية ، وأهميتها الاقتصادية ، ولعراقة وادى النيل فى الثقافة العقلية القديمة ؛ ولهذا كان قبلة أهل العلم من جميع أنحاء الكرة ، كما يدل على ذلك ما به من الأروقة، التى ضمت الأتراك والهنود والجاويين ، والدكارنة وأهل الحرمين الشريفين ، واليمن والعراق والبرابرة ، والصوماليين ، والأفغان والشوام والمغاربة وأهل بورنيو وغيرها .

وقد كانت طريقة التعليم فيه أولا ، وقبل كثرة المؤلفات وانتشارها ، الطريقة الإملائية ، وفيها يملى الأستاذ على الطلبة ما يريد من المسائل . ثم جاءت طريقة الشرح والتفسير للمتون أو المختصرات ، وكان عمادها الحوار بين الأستاذ والطلبة ، مما ينمى القوى العقلية ويربى ملكة الفهم .

وقد بقى الأزهر فى عزلته ، يسير سيراً فطريا ، أساسه التقوى واحترام الدين وأهله ، ولا يساير النهضة الحديثة ، فلم يكن به شيء من مظاهر النظام والترتيب ، فى التدريس والامتحان ، والمواظبة والمرتبات وغيرها ، حتى جاء المغفور له الخديو اسماعيل باشا ، فوضع أول قانون للأزهر سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧٢ م) وهو المعروف بقانون الشيخ المهدى . وقد نظم هذا

القانون طريقة الحصول على شهادة العالمية ، ونص على مواد الامتحان ، وقسم الناجحين فيه إلى ثلاث درجات (أولى وثانية وثالثة) .

وفى ٢٠ من المحرم سنة ١٣١٤ هـ (أول يوليه سنة ١٨٩٦م) صدر القانون الثامن للجامع الأزهر ، وقد أضاف للعلوم الدينية كثيرا من المواد الجديدة ، هى : الأخلاق ومصطلح الحديث ، والحساب والجبر، والعروض والقافية ؛ وجعل التاريخ الإسلامى والخط والإنشاء ومتن اللغة ومبادىء الهندسة ، وتقويم البلدان مواد اختيارية ، يمتاز محصلها عن غيره ، ويقدم عليه فى الوظائف والمرتبات . وكان الفضل فى ذلك للمجهود الذى بذله المرحوم الشيخ محمد عبده ، ولروح الإصلاح الذى أراد بثه فى نفوس الأزهريين ، ولـكن خروجه من مجلس إدارة الأزهر ، ثم وفاته سنة ١٩٠٥ م أحدثا فى الأزهر حركة رجعية ، غير أن معهد الاسكندرية كان قد أسس سنة ١٩٠٣م .

ولما أنشأت الحـــكومة مدرسة القضاء الشرعى بقانون سنة ١٩٠٧ م وصدر القانون رقم (١) للجامع الأزهر وماشاكله من المدارس الدينية العلمية الإسلامية بتاريخ ٢ من صفر سنة ١٣٢٦ هـ (٥ من مارس سنة ١٩٠٨) ، المعروف بقانون النظام ، قامت بالأزهر فتنة ، انتهت باصدار القـانون رقم (١٠ لسنة ١٩١١ م) وقد اعتورت هذا القـانون الأخير ،

تعديلات بقوانين أخرى، أظهرها قانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠م الذى به أنشئت ثلاث كليات للدراسة العليا لمدة أربع سنوات ، بعد القسم الثانوى ، ومدته خمس سنوات، والقسم الابتدائى ،ومدته أربع سنوات. والكليات هى. كلية أصول الدين ، وكلية الشريعة وكلية اللغة العربية ، كما أوجد تخصص المادة وتخصص المهنة .

ولما تولى الشيخ محمد مصطفى المراغى مشيخة الأزهر سنة ١٩٣٥ م أراد أن يرجع بالأزهر إلى عصوره الزاهرة من البحث العلمى الصحيح ، ويكوّن « طالبا يفهم مسائل العلوم فهما صحيحا ويدرك أغراضها وصلتها ، ويستطيع الاستنباط والتدليل، وفهم الكتب التى ألفت فى العصور المختلفة فى جميع الفنون الأسلامية، فعمل على إعادة تنظيم الجامع الأزهر والمعهد الدينية العلمية الإسلامية ، باستصدار مرسوم بقانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦ م الذى عدل بمرسوم بقانون رقم ٨١ لسنة ١٩٣٧ م وبقانون رقم ٦١ لسنة ١٩٣٨ م

المعاهد الدينية التابعة للأزهر

أطلق اسم الجامع الأزهر أخيراً على كليات التعليم العالى (أصول الدين للدعوة والإرشاد ، والشريعة للقضاء الشرعى ، واللغة العربية للتدريس بالمدارس) وعلى أقسام التخصص .

أما المعاهد الدينية فيراد بها معاهد التعليم الدينى الإسلامى التى تعد الطلاب لدخول الجامعة الازهرية .

والمعاهد الدينية الموجودة الآن هى :

١ — المعهد الأزهرى بالقاهرة وبه قسم ابتدائى وقسم ثانوى
٢ — معهد الاسكندرية (١٩٠٣ م) «
٣ — معهد طنطا (١٩١٣ م) «
٤ — معهد أسيوط (١٩١٥ م) «
٥ — معهد الزقازيق (١٩٢٥ م) «
٦ — معهد دمياط سنة ١٣١٣ هـ وبه قسم ابتدائى فقط
٧ — معهد دسوق سنة ١٣١٤ هـ «
٨ — معهد شبين الكوم (١٩٣٧ م) «
٩ — معهد قنا (١٩٣٨ م) «

ويجدر بنا أن نختتم صفحات هذا الكتاب بكلمة عن المعهد الاحمدى ، خاصة ، لأنه « خليفة » الجامع الأحمدى .

المعهد الأحمدى

(١) لما ضاق نطاق الجامع الأحمدى بالطلاب ، أنشىء المعهد الأحمدى الجديد . وقد تم بناء الطبق الأرضى منه ، مع معدات التعليم فيه ، فى أواخر رمضان سنة ١٣٣١ هـ وبدأت الدراسة فيه يوم ٢١ من شوال سنة ١٣٣١ هـ (٢٢ من سبتمبر سنة ١٩١٣)

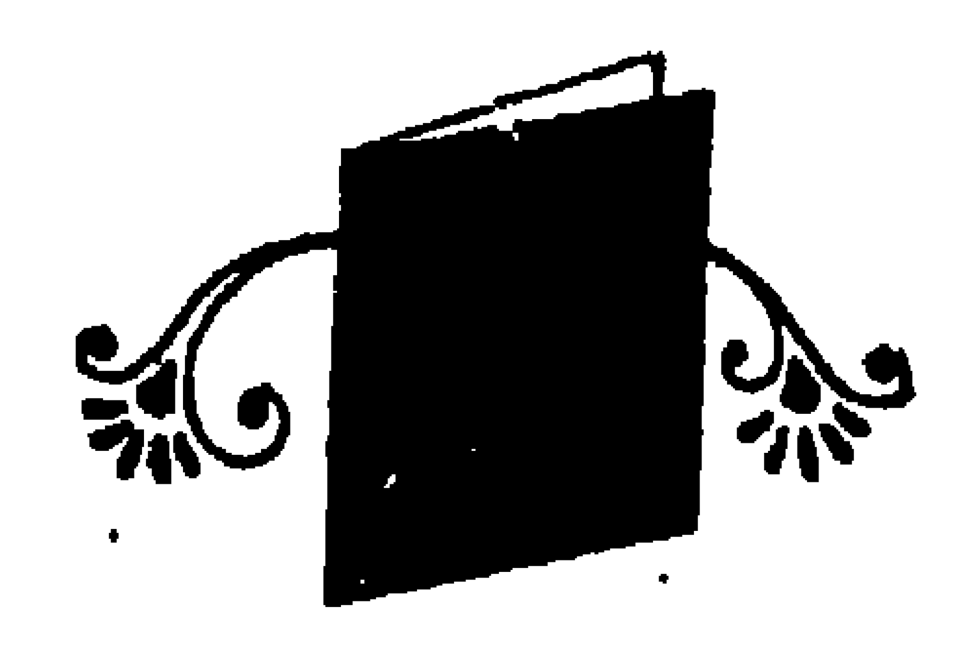
(٢) وهو بناء فخم ، على النمط العربى الجميل ، بجوار محطة السكة الحديدية (وهذا ما نأخذه على اختيار هذا المكان ، بين صفير القُطر ، وأصوات العجلات ، وقعقعة الحديد ، وفى مهب دخان القاطرات) ، وهو بأول شارع السكة الجديدة ، يشغل مساحة واسعة ، وله بابان أحدهما فى الشمال والثانى فى الغرب وبه دائرتان مشتملتان على ٣١ حجرة للدراسة ، محيطة بايوانات كالمساجد العربيه ، وثلاث حجر للإدارة ومسجد جميل يحلى صدره ، ومطهرة فسيحة . وقد تم بناء الطبق الثانى منه فى عهد المغفور له السلطان حسين كامل .

ويعتبر بناء المعهد الأحمدى (وما تلاه من المعاهد الدينية التى بنيت بقواعد الأقاليم الأخرى) ، دخولا فى طور حديث من أطوار دور التعليم الإسلامى .

فقد كانت حلقة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى مسجده ، أول حلقات التعليم فى الإسلام ، ثم تلاها حلقات العلماء فى المدارس التى كانت تجمع بين المدرسية والمسجدية ، أى بين الدراسة والعبادة .

وباستقلال هذه المعاهد وانفرادها ، امتنع التهويش واختلاط الأصوات التى كانت فى الجوامع ، وأصبح الاستعداد لتعليم العلوم الحديثة سهلا وميسوراً ، بطرق علمية وعملية .

« والله أعلم »



من سلسلة ذاكرة الكتابة

وكما تمرد الدكتور طه حسين على حياته بالأزهر تمرد الأستاذ محمد عبد الجواد على حياته بالجامع الأحمدي، وكما انتهى المشوار التعليمي للدكتور طه حسين بعيدا عن الأزهر فقد انتهى المشوار التعليمي لمؤلف كتاب "حياة مجاور" بعيدا عن الأزهر كذلك، فقد التحق - بعد أحداث طويلة أدت إلى طرده من الدراسة بالجامع الأحمدى وفشله فى الالتحاق بالأزهر للحصول على شهادة " العالمية " التى كانت كل أمل والده أن يحصل عليها - انتهى هذا المشوار بكلية دار العلوم حيث حصل على دبلوم دار العلوم، ثم بكلية الحقوق المصرية حيث حصل على ليسانس الحقوق، ليعمل بعد ذلك مدرسا بمعهد التربية للمعلمات بالزمالك.

ومهما كان من أمر تقويمنا لأسلوب هذا الكتاب ومحتوياته فهو في تقديرنا كتاب مهم يصور بأسلوب سلس ومشـوق "مشاهدات طالب في عشر سنوات كاملة قضاها في طنطا وهو حاد السمع والبصر، دقيق الحس والوجدان، سجل بها للتاريخ حقائق عاش فيها ووصف معارك للحياة خاض غمارها ومجتمعات خب فيها ووضع وشهد أحداثا سبر أغوارها وتلطخ بحمأتها وقد كتبها موزونة بالميزان الذي كانت فيه وقتها ".





www.odabaaelaqaleem.com.eg

الثمن : ثلاثة جنيهات

تصميم الغلاف : فكرى يونس